صامدون
في وجه الإحباط

صامدون

في وجه الإحباط

بقلم

حاتم سلامة

ليليث للنشر
والتوزيع

صامدون في وجه الإحباط

حاتم سلامه

غلاف/ كريم محمد

مدقق لغوي أ. محمد فهمي

رقم إيداع ٢١٩٩/ ٢٠١٥ ط٢

الترقيم الدولى / ٩- ٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

01022661632 - 012242723

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithbook.com

جميـع الحقـوق محفوظـة للنـاشر وأي اقتبـاس أو إعـادة طبـع أو نـشر في أي صـورة كانـت ورقيـة أو إليكترونيـة أو في وسـيلة سـمعية أو بصريـة دون موافقـة كتابيـة مـن النـاشر، يعـرض صاحبـه للمسـاءلة القانونيـة .

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى الذين واسوني بكلمات الأمل في لحظات الفشل، فكانت كلماتهم سندًا وعونًا لاستكمال الحياة والنهوض من جديد.!

بل أهديه إلى المثبطين المحبطين ليكون مرآة يرون منها كيف صاروا معاول هدم في بناء المستقبل، وكيف تحولوا بكلماتهم البائسة اليائسة إلى خناجر مسمومة تقتل المواهب وتذبح الإبداع؟!

مقدمة

كثيرًا ما تعثرت في دراستي، وكثيرًا ما وجدت حولي من الساخرين الشامتين.! ولكن شاء الله أن أتمها، وأنجو من أمانيهم الرخيصة في فشلي وضياعي.! كان رسوبي يشفي حقدًا في نفوسهم، جاء نتيجة لموروثات عائلية وأسرية أو نفسية لا ذنب لي فيها!.

كان بعضهم يبادرني بهذه المشاعر الوقحة دون حياء، وكان نبأ رسوبي أحب إليهم من الدنيا وما فيها، بل كانوا يشعرون أن القدر قد انتصر لهم، فينفثون سمومهم في الغمز واللمز، أما ابتسامتهم فحدث ولا حرج، فما كان شيء في الدنيا تنثني له خدودهم كما تنثني لعثراتي.!.حتى الأقرباء قد أفرغوا أيديهم من الأمل في مستقبلي، وأيقنوا بلا تردد أنني ضائع لا حظ لي في التعليم، وأن الشجرة لابد أن يكون بها فرع مائل، وأخذ والدي يبحث لي عن مهنة أو حرفة أبرع فيها وأقتات منها حتى تكون سندي في الحياة.

وتمضي الأيام.. ويشاء الله تعالى أن أفلت من أماني الحاقدين، وأحقق أمل الحيارى في مصيري..ولكن..أعيب على نفسي أنها لم تستنبت في روعها روح التحدي لهؤلاء..وأعيب على من حولي..

أنهم كانوا بارعين في اللوم والتأنيب، ولم يكن فيهم مشجع خبير بأساليب التشويق والتحفيز..

وتمضي الأيام والسنون، وتأتي اللحظة التي أرى فيها من حولي يقرأون كتبي ومقالاتي في الصحف.. وتأملت في نفسي وتساءلت:كيف لهذه اللحظة الغريبة، أن تنسجم مع ما مضى من سنوات التراجع والإحباط..إنها من عجائب الله في خلقه!.

أما الحاقدون القدامى فما زالوا في أزمتهم قائمين.. لا تغيب عنهم صورة الطالب الخائب البليد..بل أجزم أنهم حتى الآن لا يعرفون غير هذه الصورة، وربما لا يذكرون غيرها حتى بعد موتي ، ومهما خلفت ورائي من تراث مشرف..لأن حقدهم الأسود لا يستطيع أن يتصور إلا ما تستهويه نفوسهم القبيحة الحاقدة.

وصدق من قال: الحقد يُعمي.

وأما أترابي فما كان أحد يؤمن بمسيرتي..فإذا ما ردَّدت بينهم جملة أو مقولة أو معلومة..فإنهم يَضِيقون بها ذرعًا، ويتهمني بعضهم بالتحذلق والتفلسف..وأمام هذه الصور المحبطة وشواهدها المرة ، عزمت على خط هذه السطور؛ لأكشف اللثام عما يفعله المحبطون في حياتنا من هدم وتحطيم..بل لتكون بذرة أمل في نفوس المتعثرين، تدفعهم للأمام وتولد فيهم العزيمة والتحدي لكل مثبط هدام.

وجعلت عنوان صفحاتها: (صامدون في وجه الإحباط)، وهو عنوان يبعث من أول كلمة فيه على المقاومة الشديدة لكل محاولات التثبيط والتيئيس، وذكرت فيه من سير الأدباء ومواقف المفكرين والعلماء، ما تمنحه ثقلًا وفائدة، فيأنس به كل من يقرأه، ويمتع به كل من يُطالعه..بيد أنني أقرر بصدق.. أن سعادتي الحقيقية ستبلغ غايتها، لو علمت يومًا أن معانيه كانت سببًا في هداية حائر، أو سعادة بائس، أو أنها جددت أمل محبط، أو أرشدت تائهًا تعيسًا.. ساعتها فقط أستطيع أن أنظر لنفسي نظرة ملؤها الإعجاب والاعتزاز، بل أستطيع أن أشاهد ذلك الشعور الهائل الذي يغمر جنباتها وهو يُخطرني بأنني: صرت من أصحاب الرسالات، أو من المصلحين الذين ساهموا في راحة الإنسان ونجاته من الهموم.!.

لقد عشت مع هذا الكتاب محن المبتلين، وعانيت فيه مشاعر المحبطين..وكم كنت أسعدُ منهم حالًا حينما قهروا عوائقهم وغلبوا عثراتهم، وفتحوا لأنفسهم آفاقًا من الأمل الرحيب بعد أن عززوها بالصبر والإصرار..ولعل أروع ما نجنيه من التاريخ والآثار، أن يكون لنا فيهما عبرة، فالحياة تتجدد ويبقى الإنسان هو الإنسان بهمومه ومشكلاته، ربما تفشل وتتعثر.. لكن لا تسمح لإرادتك أن تنهزم، وطموحك أن ينكسر، إنها رسالة تبعث التفاؤل لكل من سقط الأمل في حياتهم، وتدفعهم أن يستأنفوا

المسير من جديد، فلا ييأسوا أو يحزنوا.. وإلى الظلاميين نقول: لا تقتلوا المتعثرين بإحباطكم، واجعلوا من التشجيع شُعلة تنيروا بها طريقهم، وتجددوا فيهم الأمل وتثيروا طاقاتهم المدفونة، التي تَعمَى عنها العين، ولكن يبصرها الإيمان!..إن التحفيز والتشجيع يُوجد إنسانًا جديدًا، ويفتح أمامه أبواب الأمل والنور، بعدما كان يرى الدنيا كلها ظلامًا قاتمًا..إن المحن والبلايا أفسدت عليه عبير الحياة، وأفقدته معنى وجوده..والذين يعتمدون منهج التشجيع فيمن حولهم من البائسين..ما هم إلا بناة حضارة، ومصلحون في حياة البشر، يدركون ويفقهون أن دوام الحال من المحال!. وأن الإنسان الذي خلقه الله قد وضع بين ضلوعه إمكانات وطاقات ومواهب كثيرة، تنتظر فقط من يلتفت إليها ويبعث كوامنها.

إن الإنسان ضعيف منكسر في لحظات الفشل، يحتاج لمن يمد إليه يد المساعدة، ويقدم له كلمات الأمل والرجاء، التي تنهض به من كبوته؛ لأن عقله وتفكيره في تلك اللحظات الآسنة، لا يستطيع أن يرى أمامه، فغبار محنته حجب رؤى المستقبل.. ووظيفة المحفزين، أن يزيلوا هذا الغبار، ويرشدوا التائه إلى غايته..

وما أروع أن يعرض لنا عبقري من العباقرة حياته، فيروي فيها: أن الذروة التي وصل إليها لم تكن إلا نتيجة كلمة وجهها إليه صديق أو تلقاها من معلم، أو ألقيت إليه من قريب!.

ساعتها لا يمكن لضميرك أبدًا أن يغفل دور هذا الناصح المشجع في رفعة هذه الأمة التي نالتها على يد هذا العبقري.!.

و يالها من كلمات مع بساطتها إلا أن نتاجها كان عظيمًا..فلماذا إذن لا نرسل ألسنتنا بكلمات الثناء والتشجيع، لنفتح بها آمالًا للضائقين البائسين، علها تصادف نفسًا خصبة، فتنمو فيها ويخرج من هديها عظيم من العظماء!.

حاتم سلامة

التشجيع يصنع المعجزات !

هل تصدق أن التشجيع قد يصنع المعجزات؟!

إن العقول الواعية هي التي تدرك مدى تأثيره في توجيه الحياة وصنع مستقبل مشرق للأجيال..وعجيبة هي النفس الإنسانية.. تُخفي بداخلها سيلًا مدرارًا من الطاقات والمواهب..ولكنها تنتظر من يكتشف إبداعها، ويدق في جنباتها أجراس الحماسة، لينطلق موكب الإبداع هادرًا بإمكاناتها المبهرة!.

إن التشجيع قوة دافعة تصنع المعجزات، وتخلق القدرات.. مارسها الزعماء والمربون، فتفانى أتباعهم في العطاء والإنجاز!. مارسها القادة في الحروب..فتحول جنودهم للهب عاصف يحرق الأعداء!.

إن فداحة الأمم والمجتمعات يوم ترميها الأقدار بالمُقَنِّطِين المحبِطين المثبطين، الذين يزرعون الفشل والخيبة والتراجع في نفوس أفرادها، وينشرون سموم ألسنتهم التي تفت العزائم، وتحط الهمم، ولعمري.. لن يكون لهذه المجتمعات قيمة أو ميزان، أو قدرة أو إبداع، ما دام فيها أشباه هؤلاء، ينخرون في مستقبلها كما ينخر السرطان أجساد البشر!.

كم من قدرات مدفونة بين ضلوع أصحابها..مهملة مجهولة يحجب الغبار عنها ضوء الشمس..لم يكتشفها غير التشجيع والدفع للأمام!.

وكم من أناس أصابهم اليأس، وكادت أن تحطمهم صدمات الحياة...ولكنهم أُقيلوا من عثراتهم، ونهضوا من كبواتهم، حينما قيض الله في طريقهم من شحذ هِممهم، وكشف عن حقيقتها الخافية!.

بل إن كثيرًا من عظماء التاريخ وزعمائه، لو قلَّبت في سيرهم.. لوجدت أن عظمتهم ما كانت إلا نتاجًا للتشجيع والتحفيز، سواء من الأسرة أم الأصدقاء أم معلمي المدرسة.

إن عبارات الإطراء والتقدير، لها فعل السحر في النفس الساكنة التي تتحول إلى مارد جبار، يحطم كل العوائق، ويزيل أمامه عقبات المستحيل.

يقول ديل كارينجي:

«إن الثناء يأتي بتأثير لا يقاوم يشبه المعجزات..تستطيع أن تغير الناس إذا عملت على إلهاب المشاعر الإنسانية لمن تتصل بهم، حتى تخرج الكنوز المدفونة التي يمتلكونها(١).

1- كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين - ديل كارينجي.

وكم كان الإمام الشهيد (حسن البنا) رحمه الله ذا قدرة فائقة على صنع المواهب، وتشجيع النوابغ وإيقاظ العبقريات..

وكم كان مثيرًا حينما علمت أن هذا البحاثة الكبير، صاحب المؤلفات الغزيرة، والكتب الكثيرة الأستاذ (أنور الجندي).. نموذج ومثال لمن صنعهم (حسن البنا) بتحفيزه.!. فمن كان يصدق أن تتحول حياة هذا الشاب، ليكون أقوى باحث إسلامي، وأشد الأقلام دفاعًا عن الإسلام وتراثه، والذي أثرى المكتبة العربية والإسلامية بأكثر من مائتي كتاب، في الأدب العربي والفكر الإسلامي وقضايا التغريب والأصالة والدفاع عن هوية الأمة، وشخصيتها التاريخية وحضارتها ودينها!.

لقد عاش للإسلام ينافح عنه ويدافع عن مبادئه، لم يتوانَ يومًا في الذود عن حياضه، وكشف زيف من يحاربونه، وإن تستروا بأستار تنطلي على كثير من الناس.

كان (أنور الجندي) مجرد شابٍ كأي شاب، لا تخطر الكتابة على باله بشيء، ولم يكن يتصور أن يصل إلى ما وصل إليه فيما بعد في يوم من الأيام !!

ولكن.. هل تعلمون من دفعه إلى هذا الميدان؟ قد تعجبون لو علمتم أن البداية كانت مجرد كلمات تشجيعية بثها فيه (حسن البنا)

ليكشف الغبار عن هذه الموهبة الفذة، ليصير فيما بعد الكاتب والمفكر الكبير (أنور الجندي)!.

فهو يروي أنه أول من شجعه على الكتابة المنتظمة، حينما خرج معه في رحلة الحج في الأربعينيات إذ طلب منه الأستاذ البنا أن يكتب خاطرة عن الحج، فتحير الجندي ولم يكن يعرف ما يكتب، وكان طلبًا جديدًا عليه، ولكنه خط بعض السطور عبر بها عن بعض الخواطر..وعندما ألقاها أعجب بها البنا أيما إعجاب، ثم قال له: «لماذا لا تستمر في الكتابة، إن لك قلمًا رشيقًا، ومن الممكن أن يكون من الأقلام القوية إذا مرنته على الكتابة، واستمر عليها.

لقد أثر كلام البنا تأثيرًا كبيرًا في قريحة الشاب أنور الجندي، حتى أنه من شدة تأثره به وامتنانه له، كان يضع صورة كبيرة له في غرفة مكتبه، ولما سئل عن ذلك قال: «أحب أن أرى هذا الرجل العظيم دومًا، فرؤيته تمدني بهمة شديدة»، كما أن حبه للبنا بلغ مبلغًا شديدًا، فحرص على أن يسكن قريبًا من المركز العام، ليستمتع بسماعه في حديث الثلاثاء، ويكون على مقربة من هذا الأستاذ النبيل، ولم يغفل هذا القلم النابه أن يكون من جملة ماكتبه، كتابًا تحت عنوان: (حسن البنا الداعية المجدد والإمام الشهيد) عرض فيه عظمة الرجل وأثره الكبير، ثم كتب بعد ذلك كتابًا عن دعوة البنا تحت عنوان: (الدعوة الإسلامية في مواجهة التحديات) بين

في مقدمة كتابه، أنه يقصد بالدعوة هنا: دعوة الإخوان المسلمين.

وظل الأستاذ (أنور الجندي) يكتب مقالات متعددة المجالات في مجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، التي كان يصدرها المركز العام للإخوان المسلمين، ثم توالت كتاباته وصدرت تباعًا، وكان من أولها قبل الثورة، كتابه: (اخرجوا من بلادنا) يقصد بذلك الإنجليز، وقد سُجن بسبب هذا الكتاب، ثم خرج من سجنه.

كثيرًا ما كان يدفع حسن البنا أصحابه ويشجعهم بكلماته الساحرة، وكثيرًا ما كان تشجيعه يؤتى ثماره..ويبلغ الرجل من أصحابه بهذه الكلمات مبلغًا كبيرًا في دنيا النبوغ، وكأنه يعز عليه أن تخرج كلمات معلمه وأستاذه دون أن تحقق رجاءها في الحقيقة!. وهذا ما فعله مع الشيخ الغزالي رحمه الله، ففي في عام ١٩٤٥م كتب حسن البنا إلى محمد الغزالي: أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

قرأت مقالك (الإخوان المسلمون والأحزاب) في العدد الأخير من مجلة (الإخوان) فطربت لعبارته الجزلة، ومعانيه الدقيقة، وأدبه العف الرصين، هكذا يجب أن تكتبوا أيها الإخوان المسلمون.. اكتب دائمًا وروح القدس يؤيدك، والله معك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد ذكر الأستاذ (محمود عبد الحليم) في موسوعته الشهيرة (الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ) أن الإمام البنا كان معجبًا بأسلوب (محمد الغزالي) وكان يوصي القائمين على الجريدة أن يهتموا به ويعتنوا بنشر مقالاته..

ولم يكن البنا يشجع تلامذته فقط.. بل كان تشجيعه مبدأ عامًا يعتمد عليه تجاه كل المسلمين، حتى من يختلفون معه في الأساليب والوسائل وطرق التبليغ. !

يقول الشيخ الألباني في بعض تساجيله الصوتية:

«كانت لي بعض أعمالي الكتابية التحريرية، مع الأستاذ الشيخ (حسن البنا) رحمه الله، وحينما كانت مجلة (الإخوان المسلمون)، تصدر في القاهرة، وهي التي تصدر طبعًا عن جماعة الإخوان المسلمين، كان الأستاذ سيد سابق بدأ ينشر مقالات له في فقه السنّة، هذه المقالات التي أصبحت بعد ذلك كتابًا ينتفع فيه المسلمون الذين يتبنون نهجنا من السير في الفقه الإسلامي على الكتاب والسنة، هذه المقالات التي صارت فيما بعد كتاب(فقه السنة) لسيد سابق، كنتُ بدأت في الاطلاع عليها، وهي لمّا تُجمع في الكتاب، وبدت لي بعض الملاحظات، فكتبتُ إلى المجلة هذه الملاحظات، وطلبتُ منهم أن ينشروها فتفضلوا، وليس هذا فقط، بل جاءني كتاب تشجيع من الشيخ حسن البنا–رحمه الله–

، وكم أنا آسَف أن هذا الكتاب ضاع مني ولا أدري أين بقي.. ثم نحن دائمًا نتحدث بالنسبة لحسن البنا- رحمه الله- فأقول أمام إخواني، إخواننا السلفيين، وأمام جميع المسلمين، أقول: لو لم يكن للشيخ (حسن البنا)رحمه الله من الفضل على الشباب المسلم سوى أنه أخرجهم من دور الملاهي في السينمات ونحو ذلك والمقاهي، وكتّلهم وجمعهم على دعوة واحدة، ألا وهي دعوة الإسلام.. لو لم يكن له من الفضل إلا هذا لكفاه فضلًا وشرفًا..هذا نقوله معتقدين، لا مرائين، ولا مداهنين».

أما كتاب (فقه السنة) الذي ذكره الشيخ الألباني في معرض حديثه والذي يعد من أكثر الكتب الإسلامية طباعةً وانتشارًا، فإنه كذلك ثمرة من ثمار (حسن البنا).

فالكتاب لصاحبه العلامة الفاضل الشيخ (سيد سابق) رحمه الله..وهو من الكتب الفريدة التي لاقت رواجًا في عصرنا الحديث وترجمت بعدة لغات، وعرفه القاصي والداني من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.!. ومن الطريف أن الشيخ (سيد سابق) حينما أُوفد رسميًا إلى الاتحاد السوفييتي في الستينيات في أحد المؤتمرات للحديث عن الإسلام، ما أن خرج من المطار في صحبة المسئول الرسمي الذي يرافقه، حتى فوجئ بحشد ضخم جاء لاستقباله في موسكو! بين مقبِّل ليديه أو رأسه، وبين هاتف

باسمه، فتعجب الشيخ متسائلًا: كيف عرفتموني؟

فكان ردهم: من كتابك..فقه السنة... وإذا بالجماهير تلوِّح بالكتاب المترجم، وتهتف باسمه!

يقول: فلم أتمالك نفسي من البكاء؛ إذ لم أكن أتصور أن فضل الله عليَّ سيبلغ بي إلى هذا الحد!.. ولعله حين ألفه قد استحضر مقولة الإمام مالك رحمه الله: «ستعلمون أيها أريد بها وجه الله غدًا» ولكن كيف كان ذلك ثمرةً من ثمار حسن البنا؟!

إن الشيخ سيد سابق تعرف على (حسن البنا) ودعوته وبايعه على العمل للإسلام ونشر دعوته، وجمع الأمة على كلمته، وتفقيهها في شريعته وهو في فوعة شبابه، وعاونه بعد ذلك في تعليم الإخوان وتربيتهم داخل الشُّعَب، واستمر على طريقته في إعداد دروس الفقه وتدريسها، وصادف أن سمعها منه الشيخ البنا ذات مرة، فاستحسن أسلوبه وطلب منه أن يعدها للنشر.

يقول الشيخ: فشرعت في جمع المادة من قصاصاتي، وبدأت نشر كتاب «فقه السنة».

سقاء المعلمين

إن فتح القسطنطينية ظل حلمًا يرواد أمة الإسلام قرونًا وأزمانًا، ولم يتحقق إلا بالشحن المستمر، والتشجيع الدائم، لنفسية هذا الأمير الصغير، (محمد الفاتح) من شيخه (آق شمس الدين) الذي رباه منذ صغره على الحديث النبوي:

«لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها، ونعم الجيش ذلك الجيش.. وعاش الفاتح لهذه الأمنية، وظل يحلم باليوم الذي تسير فيه جيوش الإسلام صوب الحلم المأمول، حتى أنه كان يمشي إلى البحر بفرسه وهو ما زال ابن بضع عشرة سنة، فتغوص أقدام حصانه في الماء.. ويشير إلى القسطنطينية ويقول:أنا آتيكي أنا فاتحك.!.وفتحت القسطنطينية وسقطت حصونها بضربات المسلمين.

وهكذا يحقق التشجيع والتحفيز، حلمًا طالما راود كثيرًا من الخلفاء والسلاطين، بل راود أمة بأسرها، بل تحقق بالتشجيع نبوءة نبينا العظيم ﷺ..حققها فتىً ناشئ فيما دون العشرين!.. كثير من العباقرة لا يعدو نبوغهم أن يكون كما أشرنا نابعًا من حفاوة والد أو تحفيز أم، أو تشجيعٍ من معلم دفعه إلى غايته بكلماته، التي تمثل سقاءً يروي في نفسه منابت النبوغ، فتورق وتثمر أينع الثمار.. وكم

يتحين الإنسان منا أن يلقى عالمًا كبيرًا أو مفكرًا مرموقًا!. فيمثل بين يديه، ويعرض له ما عنده حتى يحظى منه بإعجاب أو كلمة تجدد طاقة نفسه.

وقد وفرت الظروف للأستاذ العقاد وهو صغير أن يلتقي بالأستاذ الإمام (محمد عبده) الذي زار مدرستهم، فعرض معلم الإنشاء كراسة العقاد على الإمام، فنظر فيها وأعجب ببعض كلامه وقال: ما أحرى هذا أن يكون كاتبًا فيما بعد.!.ودفعته كلمات الإمام للأمام.!.

وكم يحتاج شبابنا لكلمات الأئمة والمفكرين! التي تغرس فيهم الأمل، وتولد فيهم الطاقات الكامنة التي تنفع الأمة وتثري نهضتها!.

يُقر نجيب محفوظ دوما بفضل توفيق الحكيم عليه وكان يردد: «لولا الحكيم لما كنت أديبًا»..

أغرتني تلك المقولة بقراءة كتب (توفيق الحكيم) فتخطيت ما كتبه هو.. لأقرأ ما كتب عنه.

وكان أولها كتاب (توفيق الحكيم يتذكر) لـ(جمال الغيطاني)، الذي ذكر فيه حديث الحكيم عن شخصية الرجل الذي شجعه وحبب الأدب في نفسه، وهو مدرس اللغة العربية الجديد، شيخ

معمم، إلا أنه عصري في تفكيره، لم يتقيد بالأساليب القديمة في التدريس، وأسلوبه فريد جعل يحبب الأدب العربي إلي الطلاب، ويجذبهم إليه ببعض أشعار الغزل الرقيق للعباس بن أحنف، ومهيار الديلمي، وعمر بن أبي ربيعة، ومن شابههم والإقلال من شعر المديح والحكم والمواعظ، فما أن يلقي ما لديه على الطلاب المراهقين إلا ويضجون بالإعجاب ويطالبون بالمزيد، بل ويسألون عن المصادر ويدونون ما يسمعونه في دفاترهم..وهم بحكم مرحلتهم العمرية، تشتعل عواطفهم ويألفون الحديث عن الحب والهيام والشعور الجميل والخيال البديع، كانوا يحبون أن يسمعوا:

ابعثوا أطيافكم لي في الكـرى(٢)   إن أذنتم لعيوني أن تنـــامْ

أو:

غيضن من عبراتهن وقلن لي   ماذا لقيت من الهوى ولقينا؟!

ولم يكن على حد تعبير الحكيم يهمهم أن يسمعوا:

علو في الحياة وفي الممـاتِ   لحق أنت إحدى المعجــزاتِ

أو:

له بفناء البيت سوداء فخمة   تلقم أوصال الجزور العراعر

2- النوم.

ومنذ ذلك الحين، وعلى يد هذا المعلم، بدأ اهتمام الحكيم بالأدب العربي، الذي أحبه كل الطلاب، وبدا ذلك في موضوعاتهم الإنشائية التي كانوا يرصعونها بأبيات الشعر والعبارات الرصينة والسجع، وصور البيان المختلفة.

أما الحكيم فدهش ذات يوم، عندما منحه هذا المعلم أعلى الدرجات في موضوع كتبه، لم يعن فيه بحشر أبيات شعرية، ولا برص عبارات محفوظة، بل كتبه وهو شبه مريض مكدود، أطلق فيه نفسه على السجية، وترك قلمه يجري ببساطة من لا يريد أن يبذل جهدًا في الإنشاء، أو يتكلف تأنقًا في البيان، والعجيب أنه كان يتوقع منه توبيخًا وتأنيبًا، فإذا به يمنحه أعلى الدرجات، ويتلقى منه تقريظًا، وسلمه كراسة الإنشاء وقال له:

(أحسنت.. إن خير البيان مالا يتكلف فيه البيان..)

ثم يعتب الحكيم على نفسه؛ لأنه نسي اسم هذا الشيخ، وكان من الواجب أن ينقش في ذاكرته.!..كما أنني لم أجد من الأدباء أكثر حنقًا على المثبطين المحبطين من الأستاذ (خالد محمد خالد) فهو الأديب الأريب، صاحب العبارة الجذلة والبيان الرشيق.. وله مواقف وتجارب حياتية مثيرة حكاها في مذكراته الثرية التي نشرها تحت عنوان (قصتي مع الحياة) فكان مما قال:

(إن الذين يضنون على النجاح بكلمات التشجيع والتقدير، إنما يمثلون آفة خطيرة بين آفات المجتمع..إنهم بأحقادهم، وإعراضهم، يحتبسون المواهب ويعتاقون سيرها ونموها من أجل ذلك كان رسولنا ﷺ أكثر المعلمين والمُربين إشادة بكل من يحقق في حياته الصالحة نجاحًا وفوزًا)

أحيانًا تدفع غيرك للنجاح دون قصد، وقد يكون هذا الدافع بمثابة التشجيع، ورسم طريق جديدة لمن يستلهمه تصرف عادي..لكنه يعتمل في نفس متلقيه فيوجه حياته ويطرق أبواب مواهبه، وهو ما حدث للأديب الكبير (ثروت أباظة) الذي أعطاه والده يومًا مجموعة قصصية أدبية للأطفال، كان أهداها له مؤلفها الكاتب الأديب (كامل كيلاني).. ولم يكن للوالد أن يتخيل يومًا أن تكون هذه المجموعة هي المنطلق الذي سيكون منه فيما بعد، الأديب الكبير (ثروت أباظة)!.

ففي كتابة (لمحات من حياتي) يقول: (أذكر وأنا في الثامنة من عمري أن الأستاذ (كامل كيلاني) أهدى عشرة كتب من مؤلفاته إلى أبي، وأعطاني أبي هذه الكتب، ودخلت إلى غرفتي وانبطحت أرضًا وبدأت أقرأ الكتب، فما زلت بها حتى أتيت عليها وأنا في عالم سحري عجيب..وأعتقد أن هذه السنوات كانت أجمل سنوات حياتي، وأجمل أوقاتها هي تلك التي بدأت فيها أتعرف على الكتاب

وأصاحبه صحبة دامت حتى يومنا هذا، واستطعت بفضل مكتبة (الكيلاني) أن أنتقل إلى الأدب الكبير دون أن أشعر بأي جهد، فحين بدأت قراءته سيطرت علي متعة القراءة، وانتقلت بعد ذلك إلى تيمور..ثم في غير ترتيب زمني رحت أقرأ للعمالقة مبهورًا بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقلي ووجداني وكياني كله، وأنا أقرأ لطه حسين وهيكل والعقاد والزيات وأحمد أمين والمازني).. وهكذا كانت البداية التي جعلت من الفتى الصغير أديبًا مرموقًا فيما بعد.. وإذا كانت من قدرة بعض التصرفات العادية الطبيعية أن تصنع مستقبلًا باهرًا.!

فكيف بنا لو تعهدناها وتعمدناها، وأردنا فيها غايتنا في غدٍ مشرق لمن نريد؟! أما الدكاترة (زكي مبارك) فإننا نجد أثر التشجيع حاضرًا قويًا في حياته، وقد أثر بقوة في اجتهاده الأدبي..

فها هو يصف لنا أول لقائه بشيخه المرصفي فيقول:

«في سنة ١٩١٣ رأيت في الأزهر رجلًا نحيل الجسم غائر العينين لا يفصح سيماه عن شيء، وحوله عشرة من الطلاب وهو ينشد بصوت شجي:

حمامة بطن الواديين ترنمي
سقاك من الغر الغوادي مطيرها

أبيني لنا لازال ريشك ناعمًا
ولا زلت في خضراء جاد نميرها

فجلست أستمع لإنشاده، وما هي إلا لحظة حتى تبينت أن الذي يُحرم دروس هذا الرجل لا يخرج من الأزهر إلا بصفة المغبون، ثم أخذت أحافظ على تلك الدروس في حماسة وإعجاب، وكانت عادة الرجل أن يلقي الأسئلة على الطلبة في تجاهل العارف، ثم يتركهم يستنبطون الجواب، وبعد يومين من اتصالي بدرسه جاءت كلمة ابن عباس رضي الله عنه:

«ما عصي الله بشعر أكثر ما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة» فقال الشيخ رحمه الله:

« أهذه مثلية أم منفية؟ فقلت: يريد ابن عباس أن شعر ابن أبي ربيعة يفعل بالقلوب ما يفعل الشراب، فينقلها من الهدى إلى الضلال»

فقال الشيخ في حماسة شديدة:»إيه يا عروس الأدب!»، وكانت أول كلمة حببت إلى قلبي دراسة الآداب.

كان الشيخ خافت الصوت، فكنت أبكر إلى درسه لأقرب منه، وكنت أكتب كل ما ينطق به، حتى جمعت من درسه ثلاثين كراسة، هي اليوم أنفس ما أملك من ذكريات الأزهر الشريف، وكان

الشيخ قد تعود أن يراني أمامه، فجئت يومًا متأخرًا، ورفض الطلبة أن يفسحوا لي المجال، فقال الشيخ:أين زكي؟..فأجبت من بعد: هاأنذا يا مولاي، فقال الشيخ رحمة الله عليه: «وسعوا له لعله ينفع»

ثم يقول:» ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعي، فكنت أحضر جميع دروسه، وأصحبه في الطريق، وأمضي إلى بيته، فأطلع على ما لديه من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية، وأنشد شعري، فيقومه، ويصلح منه في رفق كثير»(٣).

بل إن عِلم الشيخ صار يعرف طريقه إلى لبه بكل سهولة ويسر، وصار ينقل عنه نوادره وإبداعاته ويحفظها، بل يجمع عنه كل ما ينطق به؛ لأنه صار قريبًا إلى قلبه ومحببًا إلى نفسه، وأرى أن ذلك كله يرجع في أساسه إلى تشجيع الشيخ له ومدحه إياه، وبأحب الكلمات التي تستهويها نفسه..وحينما ينجح المعلم في كسب قلب تلميذه، فإنه لا يجد صعوبة في توصيل ما يحتاج إليه من العلم.. فالطريق ممهدة ميسورة لا عوائق فيها، ويظهر لنا جليًا أن الشيخ المرصفي توسم في (زكي مبارك) علامات النبوغ، فتبناه علميًا وأفسح له الطريق وشجعه وقربه منه..ولعل كثيرًا من الطلاب لو وجدوا هذه العناية وهذا الترحاب من معلميهم، لاستطاعوا أن

3 نقلًا عن زكي مبارك لأنور الجندي.

يكونوا شيئًا مذكورًا.

ولكن الجهل بالتشجيع وأثره في النفوس، يظلم الأجيال ويطفئ فيها جذوة الموهبة!.

***

تحت سماء لندن

في لندن كان يطمح هذا الشاب أن يكون كاتبًا مرموقًا، لكن الأقدار منعته من ذلك، فقد كان فقيرًا لا يستطيع أن يلتحق بالمدرسة، وينتظم في صفوفها وبين طلبتها؛ لأنه يعجز عن دفع رسومها؛ ولأن والده دخل السجن..عاش هذا الفتى الفقير حياة الحرمان والجوع والفقر، ولم يجد أمامه إلا أن يعمل في مهنة حقيرة مهينة، في مخزن مهجور يعج بالفئران، يلصق الورق على زجاجات الطلاء، وفي هذا المستودع كان يعيش مع فتيين آخرين، وفي ظل هذا البؤس والضياع كان يشعر برغبة قوية في نفسه، تقوده نحو الكتابة، التي كان يعشقها ويختلي بها في جوف الليل، حتى لا يراه أحد فيسخر منه.. فيحطم إحساسه المرهف!.

كان يكتب قصصه ويرسلها للصحف، يرسل القصة تلو القصة

فلا يجد غير الرفض والتجاهل، ورغم هذا.. كانت قوة الموهبة تدفع عنه مشاعر الإحباط وتوحي إليه بالاستمرار فيما يهواه، إلى أن جاء اليوم الذي قُبلت فيه أول قصة من قصصه التي أرسلها.. لقد شعر وقتها بأن الدنيا تضيق على سعادته، وهذه السعادة لم تكن لأنه تقاضى مالًا على قصته، لا..فهو لم يحصل منها على شيء، ولكن تدفقها كان سببه الأول أن الصحفي الذي نشر قصته امتدح أسلوبه فيها..

جعله هذا الإطراء والمديح يسير هائمًا على وجهه في الشوارع، والدموع تنهمر من عينيه فرحًا واغتباطًا، ومن يومها تغيرت حياته وارتسم له خط آخر، وأصبح فيما بعد (تشارلز ديكنز) الأديب المشهور..الذي لولا هذا التشجيع.. لكان من الممكن أن يقضي بقية حياته بين الفئران، يلصق الورق على زجاجات الطلاء!. لكنه أصبح بفضل هذه السطور البسيطة، أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفكتوري، بإجماع النقاد، ولا يزال كثيرٌ من أعماله يحتفظ بشعبيّته حتى اليوم، تميَّز أسلوبه بالدُّعابة البارعة والسخرية اللاذعة، صوَّر جانبًا من حياة الفقراء، وحمل على المسئولين عن المياتم والمدارس والسجون حملةً شعواء، من أشهر آثاره: (أوليفر تويست) و(قصة مدينتين) و(أوقات عصيبة).

وتحت ذات السماء..سماء لندن.. كان هناك صبي آخر يسمى

(هربرت جورج ويلز) يعمل كاتبًا في متجر متواضع للسلع الجافة، يستيقظ في الخامسة صباحًا، وينظف المحل ويكدح لمدة ١٤ ساعة يوميًا، وكان عملًا شاقًا حقيرًا يشعر فيه بالمهانة، ولا ترتضيه نفسه، وبعد عامين لم يعد يحتمله، فنهض في أحد الأيام ولم يتناول إفطاره، وقطع ١٥ ميلًا لكي يصل إلى أمه التي كانت تعمل مُديرة منزل لأحد الأثرياء، وتوسل لأمه أن تعفيه من هذا العمل، وكان شديد الاضطراب، حتى اضطره الأمر أن يهددها بالانتحار والتخلص من حياته لو أنها أصرت على عودته لهذا العمل المهين.. ووجد في نفسه حنينًا لأن يسمعه أحد ويشاركه همومه، فكتب خطابًا طويلًا إلى مدير مدرسته القديمة، يشكو إليه حاله وآلامه وسوء حظه في الحياة، التي لم يعد يشعر بمعناها حتى أنه لم يعد يريد العيش!.

ورد عليه مدير المدرسة وامتدحه، وأكد له أنه ذكي جدًا، ويصلح لأمور أحسن مما هو فيها، وعرض عليه العمل كمدرس، وعينه بالفعل مدرسًا في مدرسته.

واستطاع هذا الثناء والمديح أن يغير مستقبل هذا الغلام الذي كان له شأنه وتأثيره المرموق في الأدب الإنجليزي، لقد ألف هذا الصبي منذ ذلك الحين سبعًا وسبعين كتابًا، وحصل على مليون

دولار من كتاباته(٤).

يقول الناقد والمفكر الراحل رجاء النقاش:

(في أحوال غير قليلة يعجز النقاد عن فهم العبقريات المعاصرة لهم، فيتهمونها، حتى يأتي جيل جديد بعد جيل العباقرة فيفهم ويتحمس لهم، وكم من عبقري مات جائعًا، ثم أصبحت أعماله بعد رحيله يتهافت عليها الناس وتباع بالملايين)(٥).

أن تقتل مبدعًا ليس بأقل من أن تقتل طفلًا بريئًا أو عالمًا كبيرًا..

وصورة أخرى لتجاهل العباقرة..فالذين لا يعترفون بالعباقرة حولهم ليس لديهم مشكلة إلا أنهم لم يتعودوا أن يروا عبقريًا، وإنما تعودوا أن يسمعوا عنه..فإذا كان بينهم فإنهم لا يعبأون به، وكما قيل: لا كرامة لنبي في وطنه..

فإذا ما انتقل هذا العبقري إلى مجتمع آخر، سرعان ما يكتشف أمره، ويذيع صيته، ويظهر شأنه..فكثيرون لم تعرفهم الدنيا إلا حينما تركوا أوطانهم ورحلوا إلى مجتمعات تملك مقومات الاكتشاف!. وتحت سماء لندن الكئيبة كانت هناك طفولة بئيسة مضنية ذاق معها صاحبها مر العيش وكآبة الحرمان..لكن الأقدار كانت تخبيء له مستقبلًا واعدًا ومجدًا لم يكن يتوقعه.

4 راجع كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين – ديل كارينجي.
5 تحت المصباح – رجاء النقاش.

إنه الفنان الكوميدي الشهير(شارلي سبنسر شابلن)، الذي ولد في ضاحية «والوورث» التي تعد الأكثر فقرا وبؤسا في لندن، لقد وصف شارلي هذه الطفولة بأنها تشبه الطفولة التي رسمها الروائي الانجليزي (تشارلز ديكنز) في رواياته العديدة.

(كان والده مغنيًا في (الميوزيك هول)، وهو من أصل فرنسي، وكانت أمه مغنية وممثلة، وقد انفصل والداه قبل أن يبلغ تشابلين ٣سنوات، حيث تعلم منهما الغناء، ورغم وراثته الموهبة الفنية عنهما، إلا أنه لم يعرف النعيم والشهرة بفضلهما، بل عانى في طفولته انفصال الأبوين وهو في الثالثة من عمره، فعاش مع والدته في فقر مدقع وظروف صعبة خاصة بعد أن فقدت الأم عملها في المسرح نتيجة لإصابة أحبالها الصوتية، كما أضطر شارلي الصغير إلى العمل مع أخيه الأكبر غير الشقيق سيدني في مسح الأحذية، وبعد سنوات تأزمت ظروف العائلة ولم تعد والدة شابلن قادرة على رعايته هو وأخوه، فقررت السلطات وضع تشابلن وسيدني في ملجأ الفقراء في (لامبث)، ثم انتقلوا بعد ذلك بعدة أسابيع إلى مدرسة (هانويل) للأطفال الأيتام والمعدمين. توفي والده الذي كان مدمنًا على الكحول عندما كان عمر تشارلي ١٣ عاما، وعانت والدته انهيارا عصبيًا لتوضع في مصحة للأمراض العقلية.

ويواجه مع شقيقة قسوة الحياة ونكد العيش بلا مال ولا أهل ولا معين ..يأكل فضلات الطعام من صناديق القمامة ، ويرى الناس يدخلون المطاعم فيقف خلف الزجاج يبتلع ريقه وهو يراهم يأكلون ..ويعمل ماسحًا للأحذية ،ثم قاطعا للأخشاب في أحد المغالق، ويبيت في الشوارع الباردة ويتسكع في الطرقات، ويذهب ليعمل بإحدى المطابع لمدة يوم واحد فقط ثم يطرده صاحب المطبعة من قوانين تشغيل الصبية ، ويعيش أيامًا كما قيل عنها :يصبح فيها فنجان الشاي الساخن أمنية من أمنيات العمر ، ثم تقوده قدماه إلى مكتب لتشغيل فناني المسرح فيدخل مع الداخلين فيراه مدير المكتب ويسأله ما جاء بك إلى هنا؟ فيفكر ثم يقول له :هل لديكم أدوار للأطفال ؟ فيرسله مدير المكتب إلى سكرتيرته و يقول له: أعطها اسمك وعنوانك وانصرف ، فيغادر المكتب ثم تأتيه بعد أيام رسالة بالبريد تطلب منه التوجه إلى أحد المسارح حيث تجرى بروفات مسرحية فيها دور لصبي صغير ..وكانت هذه هي البداية الأولى على طريق الفن .

«ويرحل مع شقيقه إلى (أميركا) حيث ولدت هناك صورته التي نعرفها جميعًا والتي اشتهر بها، صورة الصعلوك الصغير بسرواله الواسع ، وحذائه الكبير، وسترته الضيقة وقبعته وعصاه الشهيرة،، لينطلق مشواره نحو النجومية، وكانت البداية من

الفيلم الكوميدي (أطفال يتسابقون في فينس)، ثم اشتهر بشخصية (الصعلوك) المتشرد ذي الأخلاق الحميدة والشهامة، تلك الشخصية المبتكرة هي التي طورت من موهبته الكوميدية ، وأصبحت إحدى الشخصيات الأسطورية في هوليود وأنحاء العالم ، فأحبه الناس كبارًا وصغارًا وبقي اسمه على كل لسان)(٦)

***

أمهات في وجه الإحباط

كثير من العباقرة والعظماء كاد أن يجرفهم تيار الإحباط، وتصيبهم كلمات المثبطين في مقتل، لينحرف مسارهم إلى الفشل والضياع.. لولا وجود أمهات فطنات حكيمات وقفن خلف أبنائهن بالتشجيع والدعم والمؤازرة، حتى كانت المفاجآت التي أظهرتها الأيام.!.

ذات يوم..أرسلت المدرسة إلى أم تلميذ تقول لها: (وفري مالك..لا داعي لتعليم ولدك؛ لأنه غير صالح للتعليم، فهو بليد ومتخلف عقليًا)

وتساقطت دموع الفتى على مقلتيه حينما قال له أحد أساتذته: إن

---

6 صحيفة الإمارات اليوم

رأسك الكبير مملوء بالتراب.

لكن الأم العظيمة أبت في شموخ أن ينطفئ الإبداع في طفولته، وصممت على أن تُعلمه بنفسها..وفعلًا علمته، ولم تؤثر فيها عوامل الإحباط!.

بدأ (أديسون) في التعليم المنزلي، وبدأ يطبق أفكاره الغريبة التي سخروا منها في المدرسة، ومحاولة تلو أخرى..فشل ثم فشل، لكنه لم ييأس، فقد نظر للفشل على أنه خبرات وتجارب تفيد بعضها بعضًا، وأجرى ٩٩٩٩ تجربة دون يأس ولا استسلام، وفي تمام العشرة آلاف..كان اختراعه المذهل الذي أضاء العالم وواجه الظلام (المصباح الكهربائي)، وكانت نظرته للفشل نظرة إيجابية حينما قال: تعلمت ٩٩٩٩ تجربة لا يعمل بها المصباح الكهربي، ثم تعلمت واحدة بها يعمل!.

وهذا الإنجاز العظيم كان بفضل أمه التي لم تعرف معنى الإحباط، حتى تربع ولدها على عرش المخترعين بعد ذلك، ليصير المخترع العبقري (أديسون) بفضل الأم العظيمة (نانسي إليوت أديسون) التي قال عنها ولدها في ذكرى وفاتها معترفًا بفضلها عليه:

(لم أكن أعرف الحزن حتى ماتت أمي، فهي التي صنعتني)وفي (نابولي) كان هناك صبي صغير يبلغ عشر سنين، ويعمل في أحد

المصانع، كان عاملًا بسيطًا، دخل معترك الحياة في العاشرة من عمره، وأنهى دراسته الابتدائية وهو يعمل نهارًا ويدرس مساءً، وكانت أمنيته التي تسيطر على خياله أن يصبح مغنيًا، ..إلا أن معلمه أحبطه وقال له:

لا يمكنك الغناء يا صغيري، فأنت لا تملك أية موهبة على الإطلاق، وصوتك يشبه ريحًا تصفق، غير أن أمه الفلاحة الفقيرة احتضنته وطوقته بذراعها وشجعته، وزرعت فيه الأمل مرة أخرى بعد أن أحبطه هذا المعلم الجهول، وقالت له أمه: إن صوتك جميل، وأشفقت على أدائه، وكانت تخرج حافية القدمين تكد وتتعب حتى توفر له نفقات دروس الموسيقى، واستطاعت بإصرارها وجهادها أن تُغير حياة ولدها الذي كاد الإحباط أن يهدمه يومًا ما..وهذا الصبي هو (إنريكو كاروزو) مطرب الأوبرا الشهير.

ومن علماء المسلمين من عرف بالورع والاستقامة والعلم والفضل، وكان ثمرة أم مكافحة ربته وعلمته وجاهدت به الدنيا وهو يتيم فقير، حتى صار أعجوبة من عجائبها!. ومنهم الإمام (أبو عمرو الأوزاعي) والذي ربته أمه، وتنقلت به من بلد إلى بلد، فتأمل ماذا أخرجت وكيف ربت؟

إنه الإمام الأوزاعي الذي قال عنه النووي رحمه الله:

(وأجمع العلماء على إمامة الأوزاعى، وجلالته، وعلو مرتبته، وكمال فضله، وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة مصرحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسنة، وبراعته فى الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته)(٧).

وعن سفيان الثوري:

(أنه لما بلغه مقدم الأوزاعى، خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار(٨)، ووضعه على رقبته، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ»(٩).

وقال الذهبي رحمه الله:

(قال العباس بن الوليد: فما رأيت أبى يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي، فكان يقول:

(سبحانك تفعل ما تشاء! كان الأوزاعي يتيما فقيرًا في حجر أمه، تنقله من بلدٍ إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيته،

---

7 تهذيب الأسماع واللغات للنووي (922/1).

8 جاء في لسان لعرب : القِطارَةُ والقِطارُ أَن تُشَدَّ الإِبلُ على نَسَقٍ واحدًا خَلفَ واحد.وقَطَرَ الإِبلَ يَقْطُرها قَطْرًا وقَطَّرها: قَرَّب بعضَها إِلى بعض على نَسَقٍ.

9 تهذيب الأسماع واللغات للنووي.

يا بنى! عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعت منه كلمه قط فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكًا قط حتى يقهقه، ولقد كان أخذ في ذكر المعاد، فأقول في نفسي: أترى في المجلس قلب لم يبك؟)(١٠).

وهذا الشافعي الذي انتحل مذهبه خلق عديدون.. كان أيضًا ثمرة أم شامخة مكافحة، فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها وكانت من العابدات القانتات العاملات، حتى صار الشافعي الذي ملأ طباق الأرض علمًا.

ويحكى أن الأمام مالك قد رأى لنفسه رأيًا فى مستهل حياته، لو أنه قام بتنفيذه لحرم العلم والدين شيخًا من شيوخه، وإمامًا من أئمته، ذلك أنه قد راق له فى باكر صباه أن يشتغل بالغناء، ولعله قد أنس فى نفسه صوتًا رخيمًا، وأداءً جذابًا، ولكن أمه (عالية بنت شريك الأزدية) كانت سيدة فاضلة سارعت إلى تقبيح الفكرة، موهمة إياه أنه قبيح المنظر، والناس لا يقبلون سماع المغنى القبيح، ونصحته بالإقبال على الفقه، فأذعن لرأيها، وأقبل على الفقه والحديث، ذلك الإقبال الذى جعل منه إمامًا جليلًا من أئمة الإسلام.!.

لقد أحبطته وسدت في وجهه طريق الأمل في أن يصبح مطربًا، ولكنها لم تتركه هملًا، فقد أخذت بيديه ووجهته، وقامت بدورها

10 سيرة أعلام النبلاء (011/7).

أكمل قيام، وأرشدت ولدها للطريق السوي، وكانت نصيحتها مهددة بالسقوط لو أن ولدها ذهب للمرآة يتحسس رأى أمه فيه.. فما كان مالك قبيح الوجه رديئه، وإنما كان جميل المحيا، مكتمل البنية، أبيض اللون الى شقرة.. ولكن فطنة الأم أخرجت إمامًا عظيمًا، ومجتهدًا فريدًا، قيل فيه:إذا جاء الحديث فمالك النجم الثاقب، وقيل: إنه وعاء العلم، وقيل : لا يفتى ومالك في المدينة.

ونسمع عن «كريستين بارنيت» الأم التي تحدت الأطباء.. واختارت دخول التاريخ من أوسع أبوابه، وتجاهلت تمامًا ما قاله الخبراء عن ابنها (جيكوب) المصاب بمرض التوحد، وانصاعت لغرائزها الخاصة كأم، ومع مرور السنوات توصلت إلى نتائج مذهلة..

فقد نُشر أن الأطباء أعلنوها صراحة بأن (جيكوب) مصاب بمرض التوحد عندما كان في الثانية من عمره، وقالوا أنه لن يتمكن من الحديث طوال حياته، إلا أن «بارنيت» قامت بتجربة برامج تربية خاصة، وطرق علاجية تهدف لمعالجة حدود قدراته، وعندما قال لها المدرسون: إنه لا يوجد أمل، تمردت واتخذت مسارها الخاص.

فبدلًا من التركيز على حدود قدرات (جيكوب)، قامت (بارنيت) برعاية هواياته، حتى بلغ ١٥ عامًا وطرح اسمه لنيل جائزة (نوبل)

لعمله في مجال الفيزياء النظرية.

تقول (بارنيت):

«كان يحب السلوكيات المتكررة، كان يلعب بالكوب وينظر إلى الضوء، ويقوم بعكس الضوء على الحائط لساعات متواصلة، وبدلًا من أخذه بعيدًا كنت أعطيه ٥٠ كوبًا ممتلئة بالمياه على مستويات مختلفة وأجعله يستكشف..كنت أحيطه بكل ما يحبه، وكلما مارست هذا الأمر كلما ازداد نجاح الموضوع.. وفي إحدى الليالي تحدث (جيكوب).. كان كالموسيقى؛ لأن الجميع قالوا: إن هذا أمر مستحيل الحدوث».

ودرس (جيكوب) الفيزياء النظرية وقيل: بأن معدل ذكائه أعلى من آينشتاين!.

ومع نموذج آخر للأم التي انتصرت على بعض الصعوبات من أجل تعليم ابنتها التي كان لها فيما بعد شأن عظيم..

الأديبة الكبيرة الدكتورة (عائشة عبد الرحمن)، أوكما عرفت أدبيًا بـ(بنت الشاطئ)..لقد كان من أمرها عجبًا..حيث مرت بتحديات كثيرة، ولكن قدرها كان يدفعها دومًا لمكانتها المنتظرة، ففي هذا الوقت العصيب من تاريخ مصر، والذي لا يستطيع أن ينهض فيه من الرجال إلا القليل، شقت هذه الفتاة المصرية الأصيلة

طريقها نحو التعلم والدراسة، ووجدت من يقف وراءها ويحفزها حتى تنال أعلى الدرجات العلمية في هذه المرحلة التي قلما تعترف بنبوغ امرأة.!.. لقد رفض أبوها الشيخ إلحاقها بالمدرسة الأولية في دمياط..ولكن والدتها الحصيفة، كانت لديها رغبة شديدة في تعليم فتاتها، فلم تستسلم لإباء الوالد، فاستعانت عليه بشيخه وإمامه في التصوف، والذي لا يستطيع أن يخالف له أمرًا أو يرد له كلمة، فقبل مكرهًا أن تلتحق بالمدرسة، بعد أن تجاوزت سن القبول ببضع سنوات، واصطحبتها أمها من دمياط إلى المنصورة لتحاول إلحاقها بمدرسة المعلمات، ولكن المدرسة ترفض قبولها لأنها تجاوزت السن المقرر...فهل يئست الأم واستسلمت لهذا الواقع المثبط؟!..لا..فبدلًا من أن ترجع محبطة كئيبة إلى مدينتها، اتجهت على الفور إلى محل صائغ في المنصورة وباعت فيه أسورتها الذهبية، وتوجهت بفتاتها إلى القاهرة لتحاول إلحاقها بمدرسة حلوان..وتغلبت بنت الشاطئ على تلك العقبات بفضل هذه الأم القوية التي حفزت فتاتها، ونذرتها للعلم.

وتؤدي بنت الشاطئ امتحان الكفاءة من منازلهم، ودون أن يعلم والدها بهذا..لتكون المفاجأة المذهلة وحصولها على المرتبة الأولى على مستوى القطر كله، وبفارق ١٥٠ درجة عمن دونها في الترتيب، كان الجميع يحثها على التوجه للتعليم الحديث حتى تأخذ

طريقها للجامعة – فقابلتها عقبة أخرى وهي..اللغة الإنجليزية التي لا تدري عنها شيئًا!.

فتحاول جاهدة أن تلم بها وفي الامتحان كانت تعتمد اعتمادًا كبيرًا على موضوع الإنشاء فحفظته وكان عن(السندباد البحري).. ولكنها وفي قلب الامتحان نسيت كلمة (نسر) التي تتكرر في الموضوع ويعتمد عليها أكثر جمله، فتظل حائرة، وتصاب بنوع من اليأس، ويتبدد أمهامها حلمها في دخول الجامعة واستكمال أملها المرجو..وبينما هي في هذه الأسى، تلمح بعينيها وعلى قلمها الرصاص الذي تكتب به إجابتها..كلمة نسر باللغة الإنجليزية Eagle العلامة التجارية على القلم، فاستأنفت إجابتها، وتنقشع غيوم اليأس من صفحتها..وتنجح وتواصل طريق تعليمها الحديث حتى الجامعة، وتأهلت لمرحلة أخرى إذ كانت على موعد مع أستاذها ومعلمها وزوجها فيما بعد (أمين الخولي) الذي ساندها وعاونها حتى حصلت على الماجستير والدكتوراه وصارت الأديبة الدكتورة (بنت الشاطئ).

نقوش على جدار الذاكرة

لا يمكن أبدًا لذاكرة الإنسان أن تنسى أو تتغافل مواقف التشجيع في حياتها، فهي المواقف التي يرى فيها الإنسان ميلاد نفسه مرة أخرى، يرى فيها آية من آيات الله، حينما يتبدل من حال إلى حال، ومن ميدان إلى ميدان..ومن هنا.. تظل محفورة على جدارها خالدة لا تنمحي.!.

الدكتور (نجيب محفوظ) وهو غير الأديب الكبير (نجيب محفوظ)، وتشابه الاسم بينهما ليس مصادفة، فالدكتور (نجيب محفوظ) هو الذي أشرف على ولادة أم الأديب الكبير التي كانت متعسرة، فما كان من تقدير الأب لهذا الجهد، إلا أن سمى وليده باسمه.!.

لم يكن الاسم وحده الذي يربط بين الشخصين، فقد كان الدكتور (نجيب محفوظ) أديبًا جديرًاً بقدر ما كان طبيبًا عبقريًا، تعرف ذلك من كتابه (حياة طبيب) الذي عرض فيه سيرته الذاتية ومشوار حياته، وقدم له عميد الأدب العربي (طه حسين)، وأشاد فيه بأسلوبه، وذكر أنه من فرط حلاوته قرأه مرتين، ويعزم على قراءته للمرة الثالثة.

ولك أن تعلم أن هذه الملكات الثقافية، كانت نتاجًا للظروف التي أحاطت به وشجعته، فوالده كانت له مكتبة كبيرة، حوت كتبًا كثيرة في ميادين شتى، وأبرزها كُتب الدين التي طالعها نجيب في أوقات فراغه، وتعلم منها آداب المناظرة والإيمان بالحرية لكل ذي فكر، كما كان أبوه مشتركًا في شتى الصحف اليومية والمجلات العلمية، وكانت تعقد بمنزلهم جلسات في قاعة الاستقبال، يدور فيها الحوار بين أزواج أخواته، ويتناولون مختلف الموضوعات، فكان أحدهم يتلو الصحيفة بصوت عال وتدور بعدها المناقشات.

ويحكي الدكتور نجيب في كتابه: «ما أذكره لأبي أنه كان يريدني أن أقرأ له قبيل نومه إصحاحًا من الكتاب المقدس، ويشرح لي ما يخفى علي أثناء القراءة من دقائق المعاني، وكانت أمي تستظهر كثيرًا من الآيات، وتفسر لي ما يغمض من معانيها، وفيما بين الثامنة والثانية عشرة من عمري، اشتد شغفي بالقراءة فلم أكن أدع من مكتبة أبي كتابًا إلا طالعته، كما أني كنت أحرص على قراءة ما يأتينا من نشرات تجارية تبين أسعار القطن وحركة الأوراق المالية، فإذا استعصى علي فهم شيء منها استعنت بأبي على حل ما يعترضني من غموض»(١١).

11 حياة طبيب للدكتور نجيب محفوظ.

كل هذه العوامل وما إليها.. قد وجهته نحو الثقافة والقراءة وحب العلم والمعرفة، فهي تشجيع ودافع صنع منه عقلية ماهرة متفوقة، وبعد ذلك.. وفي حياته كتلميذ كان للتشجيع أثره الفعال في نفسه، والذي ظلت مواقفه محفورة في ذاكرته، وظلت حوادثها عالقة في عقله لا ينساها أبدًا.. يقول:

«وثمة حادثان صغيران كان لهما أثر بعيد أثناء تلمذتي في هذه المدرسة: الأول أن مدرس اللغة العربية الشيخ (حامد موسى) رحمه الله، كان يشجعني بعبارات يوقع بها في موضوعات الإنشاء التي أكتبها، وأذكر من هذه العبارات: أجدت يا واحد الأدباء، وهكذا كان ظني بك، ولكل اسم من مسماه نصيب يا نجيب، وكان لتشجيعه لي أكبر الأثر في إقبالي على مطالعة كتب الأدب العربي.

والحادث الآخر الذي أذكره، هو أني عندما كنت طالبًا بالمدرسة التوفيقية، كتبت باللغة الإنجليزية موضوعًا إنشائيًا عنوانه (العمل بلا تسلية يجعل من جاك تلميذًا بليدًا)، فلما قرأه مدرس اللغة الإنجليزية المستر (فوستر سميث) دعاني إليه وسألني: من كتب لك هذا؟ أو من أي كتاب نقلته؟ فأجبته بأن الموضوع من إنشائي، فقال لي: إني أسامحك إذا قلت الحق، فعرضت عليه أن أكتب فصلًا آخر في هذا الموضوع، وأنا أمامه على المكتب، وما لبثت أن

فعلت، فشد المستر (فوستر سميث) على يدي، وقال: هذا حسن جدًا»(١٢).

وعلى قدر نبوغ الدكتور نجيب، وعلى قدر أنه وجد التشجيع والمشجعين في بداية حياته، فإنه كذلك رأى في حياته من بخل عليه بكلمة أحسنت أو أجدت..فهناك أناس يرون في الثناء والتشجيع مهانة وصغارًا لا يجب أن يصدر منهم تجاه من يستحقه، ومنهم ذلك الطبيب الإنجليزي مستر (ساندويث) الذي ذكره الدكتور نجيب بأنه: لاذع اللسان، ولا يعفي أحدًا من غليظ القول، وهو طبيب كفء إلا أنه كان يُعير المصريين بأنهم لا يتعمقون في بحث المرضى، وأن أوراق المشاهدات التي يكتبونها تافهة، ويذكر عنه في كتابه:»من حسن حظي أني كنت قبل أن ألتحق بذلك القسم قد تعلمت كل ما يلزم من فحص المرضى بالتسمع والقرع بفضل الدكتور (جرجس نجيب)، وكان طالبًا بالسنة الرابعة، وكان كفئًا ممتازًا.

أما حصتي من أسرة المرضى فكانت عشرًا، وكان في أحدهما مريض يشكو ألمًا شديدًا في صدره، وقد قام بفحصه الدكتور (هيوراد) على أنه لم يكتب في ورقة المشاهدة تشخيص المرض بل اكتفى بكتابة (ألم بلوراوي) في الجنب الأيسر، ففحصت المريض فحصًا دقيقًا

12 المصدر السابق.

فلاحظت أن النبض في اليد اليسرى ضعف كل الضعف، يكاد لا يحس، وهو في اليد اليمنى قوي، فذهبت إلى مكتبة المدرسة، لعلي أظفر في أحد الكتب بما يساعدني على معرفة التشخيص، ولحسن الحظ وقع في يدي كتاب إنجليزي اسمه (أهمية الأعراض في تشخيص المرض) فبحثت في فصوله عن أسباب اختلاف حجم الحدقة في عيني المريض واختلاف قوة النبض في الساعدين، فوجدت في الأغلب أنهما اذا اجتمعا فالأغلب أن يكون المريض مصابًا أنيوررزم في الأورطى المستعرض، وهو مرض نادر الحدوث جدًا فطلبت كتابًا في الجراحة، ودرست هذا الموضوع درسًا وافيًا، وتعلمت طرق فحص المريض، ثم ذهبت إلى المستشفى وكتبت المشاهدة على غرار ما أوصى به المؤلف، وفي الصباح غدوت أنا والطلبة مع الأستاذ (ساندويث) إلى قاعة المرضى، وكان أول يوم للمرور معه، فوقفنا عند سرير ذلك المريض الذي فحصته، وأخذت أقرأ ما كتبت في ورقة المشاهدة الخاصة به، ولكن الدكتور (ساندويث) لم يكن مصغيًا لي، بل كان يحدجني بازدراء، مستنكرًا أن يرى شعري مصففًا وطربوشي مكويًا وحذائي لامعًا، وإذا هو يقول: كم ساعة تنفق في أناقتك؟ فأجبت: لا أكثر من خمس دقائق، فقال: حسنًا تابع قراءة المشاهدة، فقرأت له ما كتبت، فلم يبد أية ملاحظة، بل سألني: وماذا هو مكتوب في التذكرة؟ فأقبل

بالسماعة على المريض يستمع إلى قلبه وصدره، وسألته: هل أغير التشخيص؟ فقال:لا ونظر إلي باستخفاف وقال: وما تشخيصك أنت، فأوضحت له ما أرى وعززته بما كنت قرأته، فلم يزد على أن قال: ألاحظ أن خطك في الكتابة رديء..انتقل إلى مريض آخر!.

وقد ساءني أنه لم يقنعني بخطأ ما رأيت، وزادني ضيقًا أن رفاقي الطلبة الذين كانوا يصاحبونني في المرور جعلوا يأخذون علي أني راجعت الدكتور ساندويث، وقال بعضهم في تهكم: ما كدت تستعمل السماعة أول يوم حتى شطحت وأمسكت بالأنيورزم في الأورطى المستعرض!، وقال أحدهم: على مهلك ياسي نجيب!».

❊ ❊ ❊

عقدة الساخرين!

ربما يكون لمن حولك عذر إذا فاجأتهم إبداعاتك دون أية مقدمات أو خلفيات..لكن لا عذر لهم بعد أن يروا معالمها منك ثم يجحدونها فيك.!.. ولكن المصيبة والفاجعة أن يصيبك نكرانهم في بداية انطلاقك، بعقدة تكبل موهبتك..

وشبيه بهذا ما حدث للأديب الكبير (عبد الحميد جودة السحار) الذي أصابته عقدة الساخرين وظل لها أثرها السلبي في حياته، فهو يحدثنا في مذكراته الطريفة التي نشرها تحت عنوان (حياتي) عن نشأة هذه العقدة في بداياته مع الكتابة فيقول:

قاسيت كثيرًا حينما انتشرت ترجمة (كريتون العجيب) في المدارس الثانوية وبين طلبة البكالوريا –وهي الترجمة التي أعدها ونشرها أخي (سعيد جودة السحار)، فما أن أكتب موضوعًا إنشائيًا وأحصل على درجة في الفصل، حتى يصيح زملائي في صوت يهزني ويضايقني قائلين: أخوه..أخوه.

وما كان سعيد يكتب لي موضوعات الإنشاء، فإنني منذ قرأت المنفلوطي والمازني وطه حسين، وأنا في السنة الرابعة الابتدائية، وأنا أحصل على درجات عالية في الإنشاء، وكان زملائي في الفصل يعرفون هذه الحقيقة، ولكنهم ما كانوا يرضون أن يتركوا

تفوقي عليهم في مادة واحدة دون غمز وتجريح.

وجاء مدرس اللغة العربية، وكان المدرس نفسه الذي كان يدرس لنا في السنة الماضية، وكانت الصداقة قد توطدت بيني وبينه، فكان لا يفتأ يمتدح أسلوبي في الكتابة، وكان يستعين بي إذا ما دخل الفصل مفتش من مفتشي اللغة العربية، وقال النهارده امتحان..ح يكتب كل واحد فيكو موضوع الإنشا هنا في الفصل، والتفت الزملاء نحوي وصاحوا مهللين وفهمها المدرس فقال: وح نشوف إذا كان أخوه اللي بيكتب له ولا هو اللي بيكتب؟

ووقف عند السبورة وفي يده الطباشير وكتب: وردة على ساقها تتحدث، وإذا بأصوات استنكار تنطلق من جنبات الفصل، فالتفت الرجل إلينا وقال: الموضوع ده جه في امتحان الكفاءة السنة اللي فاتت.

وأعرب الطلبة عن صعوبة الموضوع، فراح المدرس يكتب لهم بعض العناصر على السبورة، ولم تكن هناك صلة وثيقة بين العناصر والموضوع، فلم ألتفت إلى ما كتبه، وانكببت على كراستي أكتب موضوعًا من وجهة نظر الوردة..

وصفت الندى الذي نزل على خدودي في الفجر، وتفننت في وصف الشروق، ثم تحدثت عن عاشقين دخلا يتناجيان في

الحديقة، وأظهرت سروري لما هب النسيم، فملت نحو العاشقين أسترق السمع إلى أحاديث الحب، ثم وصفت الفزع الذي انتابني لما جاء الجنايني يقطف الزهور، وعبرت عن خوفي ولوعتي لما قطفني ووضعني في سلة مع رفاقي، وأخيرًا تحدثت عن وضعي في وعاء تحته ماء يغلي، ووصفت عملية التقطير وأنا أستغيث بأهل المروءة أن ينقذوني مما أنا فيه.

وجمع مدرس اللغة العربية الكراسات، وانتابني قلق؛ تُرى أيرضى الشيخ عن وصف الغزل الذي دار بين العاشقين اللذين دخلا إلى الحديقة؟! أيرضى الشيخ الوقور عن تلك الجرأة التي عالجت بها الموضوع؟ واستولى علي خجلي، ولكن صوت الدفاع هب يسخر من مخاوفي: ولماذا لا يرضى الشيخ، وما كانت الموضوعات التي يشرحها لنا عندما يشرح النصوص تتعلق بمكارم الأخلاق؟ إنها تغزل في المذكر وفي الخمريات، وإن ما كتبته من حوار بين العاشقين، لا يمكن أن يخدش الحياء.

ومرت الأيام ودخل مدرس اللغة العربية، ومن خلفه الفراش الذي يحمل الكراسات، ولأول مرة أشعر بخوف حقيقي فقد أحسست أن شرفي أصبح في الميزان، وراح المدرس يوزع الكراسات على زملائي وانتهى من التوزيع، ولم آخذ كراستي، فإذا بطلبة الفصل يصوبون أنظارهم إلي ويقولون في هزء، آلمني

وجرح كرامتي، قالوا: انكشف انكشف، وتناول الأستاذ كراستي وطلب مني أن أقف ثم فتح الكراسة وقال في زهو: عشرة من عشرة، أنت يابني أديب.

ولم أشعر بزهو.. بل كل ما فعلته أن بلعت ريقي وحمدت الله أنه لم يتخل عني، وراح الطلبة يعلقون تعليقات لا تخلو من وخز، وقدم إلي الأستاذ الكراسة وطلب مني أن أقرأ الموضوع على زملائي.

كان مدرسو اللغة العربية في مدرستي الابتدائية يطلبون مني أن أقرأ إذا ماجاء مفتش زائر كريم، وقد حدث أن اختاروني لألقي كلمة الطلبة في حفل أقامتها المدرسة، وكنت أقرأ الآيات القرآنية دون أن أتلجلج أو أتتعتع؛ فلما وقفت في ذلك اليوم لأقرأ أول قصة قصيرة كتبتها في حياتي - فقد كان علاجي للموضوع الإنشائي علاجًا قصصيًا - إذا بمصمصات من الشفاه تنبعث من هنا وهناك، وإذا بتعليقات ساخرة تنطلق من الأفواه أقسى من طلقات الرصاص، فاهتزت ثقتي في نفسي، وأرهفت حواسي تلتقط الهمسات والزفرات، وزاغ بصري عن السطور التي كنت أقرأها، وجعلت أتلفت حولي في توسل كأنما ألتمس من الزملاء أن يترفقوا بي، وفطن المدرس إلى ما أنا فيه من حرج، فأمرني أن أكف وأن أجلس وقد فعلت، وما كان ذلك الحادث من الحوادث العابرة في حياتي، فقد حفر في وجداني بل سرى فيّ مسرى الروح،

فأصبحت إذا ما قمت بين الناس لألقي كلمة أو لأقرأ في كتاب مسطور»

وفي تأمل المشهد بين التشجيع والتثبيط، يبدو لنا ما يلي:

أولًا: حكمة هذا المعلم، ورشاقة أسلوبه في علاج الموقف، فهو بداية يريده أن يثق بما كتب، وأن ما وصفه بكلامه إنما هو إبداع، وذلك حينما طلب منه أن يقرأ أمام زملائه.

ثانيًا: كان هناك موهبة وليدة، وكان كل من حولها يريدون إحباطها وإفشالها في مهدها، بزعم أنها من صنع أخيه (سعيد جودة السحار) الذي ترجم (كريتون العجيب)، فكان لابد من الاختبار الفاصل بين الادعاء والحقيقة!.

ثالثًا: ماذا يحدث لو كان هذا المعلم غشومًا مأفونًا متشددًا متعصبًا، يمقت الإبداع، ويكن في نفسه صورة سوداوية للأدب؟!، لعله ساعتها صدم السحار بما يسبب له عقدة أبدية من الأدب والإنشاء واللغة العربية كلها.. وخاصة أنه صور بقلمه مشهدًا ماجنًا لعاشقين مالت الوردة إليهما تسترق السمع من حديثهما الملتهب.. وقد تبلغ ثورة المعلم أوجها، لأن كاتب هذا الكلام فتى صغير.. فكيف لمثله أن تقف خواطره على هذه المعايب.؟!

رابعًا: إن المعلم نطق بالحق، وكان حكيمًا في التعبير، فهو لم يقل

له: أنت مشروع أديب، أو لديك أسلوب جيد ومؤثر، أو من الممكن أن تكون أديبًا...لم يقل شيئًا من هذا أو ذاك، وإنما واجهه بالحلم المأمول حين قال له: (انت يابني أديب).

خامسًا:مهما بلغت الثقة بالنفس مبلغها، ومهما كان هناك من المشجعين المحفزين البنائين، فإن هناك على الجانب الآخر أعداء للنجاح، يحقدون على كل موهبة، ولا يرضون إلا بالفشل مظلة للجميع، وذلك فعل أترابه معه، حين أخذ يقرأ قصته، فسبب له استهتارهم عقدة لازمته طول حياته، وصاحبته كلما قام متحدثًا بين الناس، ففعال المثبطين وكيدهم قد يجد المبدع أثرها في نفسه فتفقده الثقة في موهبته ونجاحه.!.

ورغم أن ما حققه شيء عبقري محمود، إلا أنه وجد أذرع الخجل تكبل ثقته بما حقق، ليصير مترددًا مهزولًا.

وهو تمامًا ما حدث للسحار، فسخرية التلاميذ علقت في نفسه، وحفرت لها علامات في وجدانه، تجاه أي إبداع تنتجه قريحته.. ويصور لنا في موطن آخر هذا الموقف الخاجل فيقول:

«تعودت أن أشتري بعض الصحف التي تصدر بالإنجليزية في مصر، وكانت تلك الصحف تجد رواجًا بين الأجانب الذين يقبضون بيد من حديد على المراكز المهمة في البنوك وفي التجارة

وبين قوات الاحتلال، وكنت أقرأها لأتقوى في اللغة الإنجليزية، فعثرت بين موادها التي كانت تهتم بالسياسة والاقتصاد على مقال يصف (نقمة الضوضاء) فعكفت على ترجمة المقال، ولما انتهيت منه بعثت به إلى جريدة المقطم، وكنت قد بعثت إليها ببعض المقالات، كأنما لم يعد الأهرام يكفيني، فإذا بالمقال ينشر في الصفحة الأولى مع مقالات المقطم الرئيسة التي كان يكتبها كريم ثابت وفارس نمر وغيرهما من كبار محرري الصحيفة.

اشتريت الصحيفة في أثناء عودتي من الكلية وهبوطي في ميدان العتبة لآخذ ترام العباسية الساري في شارع فاروق، وما إن رأيت مقالي في الصفحة الأولى حتى خفق قلبي في شدة وغمرني سرور فياض، ورحت أقطع ميدان العتبة وأنا منهمك في القراءة، لا أحفل بالسيارات أو الحناطير التي تغدو وتروح، فما كانت بالكثرة التي تفزع من يقرأ صحيفة أو يقلب صفحات مجلة في عرض الطريق.

وعدت إلى البيت وصعدت الدرج قفزًا، وما إن دلفت إلى شقتنا، حتى وجدت أبي قد جلس وإلى جواره (إبراهيم الشري)، وقد راح يقرأ المقال والحاج إبراهيم يُصغي مطرقًا ويردد بين فقرة وفقرة: جميل..جميل.

وتسمرت في مكاني لحظة، وقد لفني خجل شديد، وسرعان ما أنسحب لأغيب في غرفة بعيدة، فأنا لا أحتمل أن أرقب أناسًا

يقرأون ما كتبت، فإن تهريج زملائي الطلبة في مدرسة فؤاد الأول الثانوية يوم أن قمت لأقرأ موضوع الإنشاء الذي حصلت فيه على الدرجة النهائية..ترك في أغوار نفسي جرحًا ما أيسر أن ينتكئ إذا قمت لأقرأ أو وقعت عيناي على أي إنسان يقرأ أي شيء كتبته، حتى لو كان ما كتبته عنوان دار»

ولكي نتفادى هذه العقدة العنيفة التي مني بمثلها السحار، حذر خبراء التنمية البشرية من أبرز مسبباتها وأهمها صحبة الفاشلين، «فهي وحدها دون أية مساعدات تضمن أسباب الفشل؛ لأنهم يحبون توسيع ناديهم حتى لا يشعرون بغربة اللحظة السوداء على الصفحة المشرقة، وهم لا يكادون يتألمون من واقعهم المزري ولا يفكرون في تغييره، إنهم مقيدون بسكرهم في مركب غارق ويحاولون تقييد كل من يقربهم ليلقى مصيره معهم»

وهذا المعلم الذي درس الإنشاء للسحار كان حكيمًا بصيرًا في تصرفه بعكس مدرس الإنشاء الذي أعطى (أنيس منصور) صفرًا.. لأنه لم يصدق أو يستوعب أن أنيسًا هو كاتب هذا الموضوع، لأنه حشاه بكثير من أبيات الشعر، وكان أنيس يحفظ كثيرًا من الشعر في صغره، ويجد البراعة في أن يجد لكل مناسبة أبياتها الشعرية..بل كان يُسرف من وضع الشعر في كل موضوعات الإنشاء.

لم يصدق المعلم أن يصدر هذا الأمر من غلام صغير، فقال له:

أنت سرقت هذا الموضوع من أحد الكتاب.!.ولم يحاول هذا المعلم المتسرع أن يستبين حقيقة الأمر حتى جاءت اللحظة الموعودة التي كشفت عن الفتى المعجزة، فوقف بين المستمعين ليلقي ما عنده..إلا أنه لم يجد أحدًا يسخر منه كما وجد السحار، وإنما وجد المشجعين والمحفزين.

لقد كان (أنيس منصور) يحفظ القرآن في صغره، وفي يوم من الأيام استدعاه ناظر المدرسة ليجد والده في مكتب الناظر، ومعه عدد من المدرسين، وطلب منه والده أن يقرأ سورة هود.. فقرأ، ثم سورة مريم..فقرأ، فقال له أحد المدرسين:تحفظ سورة الطور؟.. فقرأ، وقال له والده: سورة المنافقين.. فقرأ.

فقال ناظر المدرسة ما شاء الله..ثم قال والده للناظر والمدرسين، إنه يحفظ الكثير من الشعر في هذه السن، لا يعرف معنى الذي يحفظه، ولكنه يحفظ وينطق نطقًا سليمًا وهو قادر على أن يحفظ أية كمية من الكلام الجيد، ثم عرج والده إلى الشعر فأسمعهم من شعر طرفة بن العبد، وامرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى والمتنبي..وهنا وقف الناظر واقترب منه وقبله، وقال له: كفى يا ولدي بارك الله فيك..فلم نكن نعرف عنك كل هذا!

واقترب منه أحد المدرسين وهو يقول له:

أنت أستاذ..أنت لست تلميذًا.!(١٣).

ولك أن تعجب حينما تعلم أن يكون المدرس الذي قال له هذا الكلام، هو نفسه مدرس الإنشاء الذي أعطاه صفرًا واتهمه بالسرقة.!.!ومن يومها شعر (أنيس منصور) أنه مختلف عن غيره!.

13 عاشوا في حياتي – أنيس منصور.

سيضحكون .. لكنك ستنجح !

ما أكثر الذين يضحكون حولك، بل ما أكثر المستخفين المستهزئين..!.

ومعرفتك الجيدة بهدفك وغايتك تدفع عنك أي إحراج أو خجل يسببه لك ضحك الساخرين واستهزاؤهم، فليسخروا ما شاؤوا أن يسخروا، ولكن..لا تسمح لآمالك وأحلامك أن تنزوي وتزول..وما يضيرك أن تكون مثل نبي الله نوح عليه السلام الذي كان يعرف ماذا يصنع، ويطلع بيقين على المصير المرتقب..

قال تعالى: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ..) (٣٨) هود

امتثل نوح لأمر ربه، فطفق يصنع الفلك، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها، استهزأوا به وتعجبوا من أمره، وقالوا متهكمين به كما جاء في بعض الآثار: «يا نوح صرت نجارًا بعد أن كنت نبيًا»

ثم يتساءلون مستخفين: كيف تصل هذه السفينة من « الموصل « إلى البحر؟!

ولم يكونوا قد علموا ما علمه نوح عليه السلام، من أن الماء هو

الذي سيأتيهم لحملها ويغرقهم .. وهنا يرد عليهم نوح بقوله: قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) هود

إن تسخروا منى ومن أتباعي اليوم لصنعنا السفينة، فإنا سنسخر منكم في الوقت القريب، سخرية محققة في مقابل سخريتكم الباطلة.

في كتابه القيم (خمسون عامًا بين الشرق والغرب)، وتحت عنوان (اضحكوا فلن أخجل) يحكي رائد العمل الإسلامي، وأحد أبرز مؤسسي (الندوة العالمية للشباب الإسلامي) الدكتور (أحمد توتنجي)، الذي لقبه العلامة (أبو الأعلى المودودي) بإمام الشباب، عن بداياته التعليمية في بريطانيا ومشكلته مع اللغة الإنجليزية فيقول:

«التحقت بكلية (كورنوول) التقنية، حيث درسنا اللغة الإنجليزية والفيزياء والرياضيات والكيمياء، وأتيح لنا أن نختار مواد دراسية أخرى لتدعمنا في الجامعة، فاخترنا بعض المواد الدراسية العامة. وتقرر في نظام الدراسة أن أول عامين سيختصان بتلقي بعض العلوم التحضيرية لمرحلة البكالوريوس، وعند جدارة الاجتياز نلتحق بالمرحلة الجامعية لثلاث سنوات. أما المستوى الأدنى من ذلك فيضاف إليهم سنة تمهيدية لمرحلة البكالوريوس، وتآلفنا مع المناخ العلمي، وانطلقنا بقوة لولا ضعفنا اللغوي، فأقبلنا على تعلم

الإنجليزية، وبذل الطلاب البريطانيون معنا جهدًا للغاية نفسها، ولم يكن ثمة برامج خاصة آنذاك لتعليم اللغة لغير الناطقين بها، وأثناء التعلم ربما حدث ما يدعو إلى الخجل، ففي الأسابيع الأولى طرحت فقرة فيها نحو أربعين كلمة للدرس، وكان من بينها كلمة (كوزماتيكس) فسألت المعلمة عن معناها، فسألتني بدورها: ألا تعرف؟ فقلت: لا، أجابت: (ميك أب)، فسألت: وما هو؟

فضحك بعض الطلاب، غير أني لم أبالِ لأنه قد تقرر لديّ أني في بداية مرحلة تعلم، وعليّ أن أتحمل هذا العبء، وما كان ليؤثر عليّ حتى لو ضحك الطلاب جميعهم، ولعل ذلك الموقف ونظائره، جعل الطلاب البريطانيين يتلقون انطباعًا عنا يحمل سمة الثقة بالنفس والقدرة على التحمل، ولعلهم كانوا يتواصلون مع طلاب أجانب للمرة الأولى، فتقربوا إلينا، وأبدوا استعدادًا للتعاون معنا في تعلم الإنجليزية».

إن السخرية لم تجد سبيلها إلى نفس الدكتور (توتنجي)، لا لشيء إلا لأنه يعرف قدراته ويؤمن بهدفه ويثق في نفسه، هذه الثقة التي كانت تقوده لخوض المصاعب باطمئنان كبير..بل كانت تدفعه للتحدي أحيانًا أخرى، فقد تحدى أستاذه واستطاع أن يتفوق وينال أعلى الدرجات، فتحت عنوان (تحدي الأستاذ والتفوق على الطلبة البريطانيين) يقول:

«وجدنا المحتوى المعرفي في مادة الرياضيات سهلًا ويسيرًا، فطلبنا إلى الأستاذ أن ننتقل إلى المرحلة التالية فرفض، فلم نجد إلا طرق باب التحدي، واتفقت مع زميليّ، ونحن من أوائل الطلبة العراقيين، أن نخاطب العميد في ذلك لعله يمنحنا فرصة. وحدث ما رجوناه، وقبل الأستاذ مرغمًا، ولما انعقد أول اختبار ليستبين سبيل المتفوقين، ونادى المنادي: أنتم الثلاثة حصلتم على أعلى الدرجات، فإذا برياض الدبوني من الموصل يرحمه الله يحصل على الدرجة الأعلى بين طلاب الفصل ٩١ وتلوته أنا ٨٥، وكان ثالثنا مظفر مصطفى الصالح ٧٥، وهكذا حصل أبناء العراق على تقدير ممتاز بينما لم يستطع أكثر الطلبة البريطانيين تفوقًا أن يتخطى ٦٥، وارتسمت ابتسامة في قلوبنا، ولكن سرعان ما بددها قلق دبيب شبح العنصرية، غير أننا نعمنا بعيشة راضية كضيوف في بلدة ريفية نجت من عقد كثيرة، ولعل أخلاقنا التي تربينا عليها كانت صاحبة الفضل في جميل المعاملة التي تواصل بها معنا أهل هذه البلدة الجميلة».

ولم يكن الدكتور (توتنجي) وحده من سخر منه أصدقاؤه وضحكوا عليه ، فقد كان في حياة الأستاذ الكبير الشيخ الأديب (علي الطنطاوي) من سخر من أحلامه واستهزأ بطموحاته فقد كان يقول: «لقد كان رفيقي (سعيد الأفغاني) يمد شفتيه ساخرًا كلما حدثته

عن آمالي في الحياة ورغبتي في أن أكون كاتبًا يشار إليه بالبنان» لكنه انطلق في مسيرته غير عابيء بسخرية سعيد وشفتيه الممدودتان فقرأ لكثير من الأدباء كالمنفلوطي والزيات والرافعي وغيرهم ، وأحس عقب هذا بأشياء تجيش في نفسه، فنفس عنها بمحاولة الكتابة ، فاستوى له مقال قرأه على رفيق له فاستحسنه وعرض عليه أن يسعى لنشره ، فاستكبر الطنطاوي هذا الأمر، ولكن صديقه ألح عليه ، وما أبعد البون بين هذا الصديق المشجع وبين الصديق الأفغاني المثبط، فذهب إلى دار المقتبس في شارع السنجقدار العظيم، والتقى بالأستاذ (أحمد كرد علي) صاحب الجريدة، ودفع إليه المقال ، ولم يكن النشر في ذلك الوقت أمرًا سهلًا أو ميسورًا للمواهب الشابة فهو يقول :» لم يكن من إخواننا من يعرف طريق صحيفة أو يجرؤ على النشر فيها « وحينما تسلم الأستاذ (أحمد كرد) مقالة الشاب اليافع (علي الطنطاوي) نظر فيه فرآه كلاما مكتهلًا ناضجًا ، ونظر إلى الطنطاوي فرأى فتى فطيراُ، فعجب أن يكون ذاك من هذا ! وكأنه لم يصدقه ، فاحتال عليه حتى يمتحنه بشيء يكتبه أمامه ، وزعم أن المطبعة تحتاج إليه ولا يصح تأخيره ، فأنشأ له الطنطاوي إنشاء من يسابق قلمه فكره فازداد عجبه منه ووعده بنشر المقال ..

يقول الشيخ الطنطاوي:» فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبي، أنظر هل نبتت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور، ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد ، وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعاليًا وزهوًا، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد.. أي كنز سأجد ، وجعلت أترقب الصباح كعاشق متيم ينتظر وصلًا بعد طول الهجران ، حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار، أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه..«

وأمام الموقف ..كان من الوارد أن يعرض عنه الأستاذ (أحمد كرد)، فهو رجل صاحب جريدة ومسؤول، وليس لديه وقت ليشغله مع فتى صغير من المؤكد أنه لا يحسن الكتابة ، لكن الأستاذ (كرد على) كان على خلاف ذلك، فقد كان ممن يؤمنون بالتشجيع ويعرفون أثره العميق على النفوس، ويخشى إن هو أعرض عن هذا الفتى أن يطفيء في نفسه هذا الحب الوليد للكتابة ..ولكن هناك شك كبير يمسك بتلابيب نفس صاحب الجريدة، ولكي يعالج هذا الشك العالق به ، كان ولا بد من هذه الفكرة التي لا مناص منها وهي اختبار الفتى حتى يظهر البرهان إن كان المكتوب ملكه

وإنتاجه أم احتال به وسطا عليه من أحد الكتاب .! ونجح الشاب (علي الطنطاوي) في الاختبار ، وكانت هذه هي البداية لمشوار الكتابة..وبلغ الطنطاوي ما بلغ ، وصار من كبار العلماء والأدباء، حتى قال فيه الشيخ (القرضاوي) :

«كان مشعلًا من مشاعل الهداية ونجمًا من نجوم التنوير ولسانًا من ألسنة الصدق وداعية من دعاة الحق والخير والجمال»

وقال عنه (منير الغضبان) :» كانت حياته كلها صدعًا بالحق لا يخشى زعيمًا ولا كبيرًا ولا رئيسًا كان يُغذي فينا عنصر الثورة للإسلام والاعتزاز به والتضحية في سبيله«

وفي قصيدة تحت عنوان (بشائر الفوز) رثاه الشاعر (أحمد الصديق) فقال:

شدا بفضلك أهل العلم والأدب ** فاظفر بما شئت في الفردوس من رتب

إذا تحدثت ناجيت القلوب فما ** في الحاضرين فؤاد غير منجذب

اعرف نفسك أولًا

قرأ نابليون في صغره : أن من أراد أن يكون شيئًا فليهتف كل يوم ثلاث مرات عن وعي وانتباه ، يجب أن أكون ذلك الشيء، وذهب وكتب لافتة واضحة الكلمات ، وناطها بجدار غرفته، وفي كل صباح يرتدي ثيابه، ثم يستقبلها في وقفة عسكرية، ويقرأ كلماتها المكتوبة في قوة : يجب أن أكون جنرالًا.. يجب أن تؤمنوا أن قيمتكم لن تقل أبدًا بمشكلات الحياة، ولذلك لن تحس بطعم النجاح إلا بعد أن تتذوق التعب وربما الفشل.

رفع المعلم لتلاميذه ورقةً من مئتي جنيه

وسأل: من يريدها؟ فرفع الجميعُ أيديهم

ثم كرمشها بقوة بيديه! وعاد يقول: من يريدها الآن؟

فرفع الجميع أياديهم..

ثم رماها على الأرض وصار يسحقها بحذائه حتى اتسخت تمامًا!

وسأل: من يريدها الآن؟ فرفع الجميع أياديهم!

فقال لهم: هذا هو درسكم اليوم!.

مهما حاولت تغيير هيئة هذه الورقة تبقى قيمتها لم تتأثر.. وهكذا أنتم..مهما تعرضتم للتحقير، والتعثر، والتقليل، والإهمال، والتهميش، والتطنيش..يجب أن تؤمنوا أن قيمتكم لن تقل أبدًا

بمشكلات الحياة، كما أن النجاح لن تشعروا بطعمه إلا بعد أن تتذوق التعب والفشل.

وهنا تكمن المشكلة.. حينما لا تدرك من أنت وما قيمتك.!.حينما تترك للآخرين أن يقيموك ويحددوا قدراتك وإمكاناتك!. كثيرًا ما يخطئون في إدراك ماهيتك.

إن نفسك مؤهلة ولديك أدواتك وإمكاناتك لتحقيق الأمل.. ولكن من حولك يوجهون إليك ضحكاتهم التي هي في حقيقتها جمار يرمونك بها حتى تحطم تقدمك للأمام، لتظل أنت كما أنت لا جديد ولا تطوير، حتى تموت ولم تحقق من رجائك إلا أنه كان حلما طاف بخيالك.. وتصير تمامًا كهذا النسر الذي ضمرت همته حينما أغفله الجاهلون عن حقيقته!.

يُحكى أن نسرًا كان يعيش في إحدى الجبال ويضع عشه على قمة إحدى الأشجار، وكان عش النسر يحتوي على أربع بيضات، ثم حدث أن هز زلزال عنيف الأرض فسقطت بيضة من عش النسر وتدحرجت إلى أن استقرت في قن للدجاج، وظنت الدجاجات بأن عليها أن تحمي وتعتني ببيضة النسر هذه، وتطوعت دجاجة كبيرة في السن للعناية بالبيضة إلى أن تفقس، وفي أحد الأيام فقست البيضة وخرج منها نسر صغير جميل، ولكن هذا النسر بدأ يتربى على أنه دجاجة، وأصبح يعرف أنه ليس إلا دجاجة، وفي أحد الأيام

وفيما كان يلعب في ساحة قن الدجاج شاهد مجموعة من النسور تحلق عاليًا في السماء، تمنى هذا النسر لو يستطيع التحليق عاليًا مثل هؤلاء النسور لكنه قوبل بضحكات الاستهزاء من الدجاج قائلين له: ما أنت سوى دجاجة ولن تستطيع التحليق عاليًا مثل النسور، وبعدها توقف النسر عن حلم التحليق في الأعالي، وآلمه اليأس ولم يلبث أن مات بعد أن عاش حياة طويلة مثل الدجاج.

إنه الموت إذن.. مصير من يجهل قدراته..ويقبل حكم الرفاق فيه، وتقييمهم لذاته!.

تأمل هؤلاء الصبية كيف بلغت ثقتهم بأنفسهم مبلغها حتى يقوم أحدهم ليخاطب أعاظم الملوك والخلفاء غير هياب أو مقبوض.!. دخل على الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) وفد للتهنئة يتقدمهم غلام، فغضب عبد الملك من حاجبه الذي سمح لهذا الغلام بالدخول إلى مجلسه، فقال له: ما شاء أحد أن يدخل علي إلا دخل حتى الصبيان! فتقدم هذا الغلام يخاطب خليفة المسلمين، وكان يحكم ثلثي الأرض، فقال: أيها الأمير.. إن دخولي عليك لن ينقص من قدرك، ولكنه شرفني، أصابتنا سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، ومعكم فضول مال، فإن كان هذا المال لله فنحن عباده، وإن كان هذا المال مالكم فتصدقوا به علينا، وإن كان لنا فعلام تحبسوه عنا، فقال الخليفة: والله هذا

الغلام ما ترك لنا في واحدة عذرًا!.

فصاحة ما بعدها فصاحة، جرأة ما بعدها جرأة.!..ودخل وفد آخر على (عمر بن عبد العزيز) ﵁، يتقدمهم غلام، فقال الخليفة: اجلس أيها الغلام وليقم من هو أكبر منك سنًا، فقال الغلام: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه قلبه ولسانه فإذا وهب الله العبد لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس!.

ومن قبلهم مر عمر بن الخطاب ﵁ على غلمان صغار يلعبون، كان من بينهم عبدالله بن الزبير ﵁ وكان عمرُ ذا هيبة عظيمة، فلما رأوه فرّوا وولّوا هاربين إلا عبد الله بن الزبير، فلَفَت نظرَ عمر بن الخطاب وقوفُه وأدبهُ، قال:

«يا غلام، لِمّ لمْ تهرب مع من هرب؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالمًا فأخشى ظُلمك، ولستُ مذنبًا فأخشى عقابك، والطريقُ يسعني ويسعك».!.

إن سلفنا الأول يزرعون الثقة في نفوس الناشئة، وإلا فما معنى أن يتأمَّر على الجيش غلام فيما دون العشرين وفي الجيش كبار الصحابة والسابقين من المؤمنين؟! إنه أسلوب رفيع في صنع الرجولة، ينميه المجتمع ويصيغ به النفوس.

إنك إن لم تكن واقفًا على حقيقة نفسك، قوي الثقة بها، فإن هناك من سيتعهدك بالهدم، وليس العيب أو اللوم فيهم وإنما منك أنت، حينما ضعفت ثقتك بنفسك..هذه الثقة التي تتولد تلقائيًا حينما تعيش بين أناس هذا ديدنهم وطبعهم، فتكون قويًا مثلهم، معتزًا بنفسك جريئًا مواجهًا، مقدامًا غير هياب من التجربة، حتى وإن فشلت لا تخجل أو تتحرج..

أما لو عاشرت الضعفاء فمهما حملت نفسك على غير ما اكتسبت منهم، فإن طباعهم فيك غالبة متمكنة، وفي هذه الأسطورة..ترى كيف فقد الأسد نفسه وغفل عن ذاته، لأن المحيطين به ربوه على خلاف حقيقته:

ذكروا أن أسدًا كان يأمر وينهي ويسمع له ويطاع، فهو حاكم الغابة وملكها القوي، وله شبل صغير جميل الهيئة حلو الملامح، وهو ولي العهد وملك المستقبل، سيحل مكانه يومًا ما..وفي يوم شديد الريح والمطر والطوفان والرعد والبرق ضاع الأسد الصغير، وتلاطمت به الدروب والظروف حتى انتهى أمره إلي قطيع من الأغنام، عاش معهم وأكل من أكلهم، وبات في أماكنهم، حتى أنه صار يصدر أصواتًا كأصواتهم، ونشأ وترعرع وشب علي ذلك.. وكل هذه الأزمان ووالده الأسد الملك يبحث عنه في كل مكان، وفي يوم بدأ قطيع الأغنام في الارتباك والقلق، لقد سمعوا أن أسدًا

قادمًا إليهم، وتواترت بين القطيع الهمسات، ترى أينا سيأكل أولًا؟، نحن هالكون لا محالة، ما الذي بعثه إلينا..؟

ووصل الأسد لا لشيء إلا أنه يبحث عن ولده الغائب من سنين كثيرة، وبدأ الأسد الابن في الفرار خوفًا من الأسد الكبير، لأنه تربي علي ذلك..وهنا أمسك الأسد الكبير به.. وهو يقول له:

لماذا تهرب.. ألا تعرف أنك أسد وابن أسد.؟!

والصغير يقول: لا لا.. أنا خروف وابن خروف!.

يقول أبوه:بل أنت أسد ابن أسد

فيرد عليه: لا لا أنا خروف.

قال إذًا تعال معي وأخذه إلي بئر الماء.. وقال انظر..

ماذا تري في البئر؟

إنه فعلًا يشبه الأسد تمامًا.. الشعر والأنياب والشارب وكل شيء.. وهنا أمره أن يصدر صوتًا وزئيرًا، حاول مرةً وأكثر، حتى استطاع أن يخرج صوت الأسد بعد طول أصوات أخري، حتى أدرك أخيرًا أنه الأسد.. الملك.

وهكذا تكون معرفة النفس أولى مراحل الطريق!.

الواثقون بأنفسهم

معرفة النفس تقود إلى الثقة بها.. فكثير مما تبدعه..لا تدرك جماله، ولا تستطيع أن تتذوقه بالدرجة التي يتذوقها غيرك من القراء..وهناك أفذاذ يثقون في مواهبهم..ويصرون على أن تأخذ شخوصهم مكانتها، مهما تجمع في طريقهم من جيوش الإحباط والمحبطين.. إن الثقة بالنفس جعلت من البعض مقاتلين أقوياء، يستعذبون مرارة النضال وعناء النجاح!.

يقول الأستاذ الحكيم:

«إنني أقرأ ما يكتبه الواثقون في أنفسهم وأحسدهم..أذكر أن (صموئيل بيكت) عندما كتب مسرحيته (في انتظار جودو) عرضها على ستة مخرجين، كلهم سخروا منه، لكن اليأس لم يدركه، ثم عرضها على مخرج ألماني، وأحدثت المسرحية ضجة كبيرة في ألمانيا، عندئذ تنبه الفرنسيون وقدموها على مسارح باريس، واشتهر بيكت، وهذا الإصرار نتيجة للثقة بالنفس»[١٤].

النفسيون وخبراء التنمية البشرية يقولون:إن الاعتزاز بالمواهب والافتخار بالذات أمام الآخرين بلا غرور، يعزز الثقة بالنفس ويُنميها..وهو ما يسمى بتقدير الذات في الحديث عنها وعن

14 توفيق الحكيم يتذكر – إعداد .جمال الغيطاني.

إنجازاتها، فهذا النوع من الحديث ليس غرورًا، بقدر ما هو تحفيز ودفع معنوي لصاحبه، حتى يعزز قيمة التوازن بين من يصعد بنفسه للسماء مغرورًا، وبين من يهينها ويحط من شأنها، وكلا الأمرين مرفوض.

الشيخ الغزالي رحمه الله كان لديه ثقة شديدة بنفسه، دفعته مرةً أن يتحدى شيوخه وممتحنيه، وهو موقف لم أقف على مثله فيما قرأت، ولا يمكن اتهام الشيخ فيه بأنه مغرور، فهو من هو جهادًا ونضالًاً وعمرًا مديدًا في خدمة الإسلام ونصرة قضاياه، ولكنه الاستفزاز يفعل الأفاعيل ويضطر المرء أحيانًا أن يظهر ما لديه من رصيد حتى يصد ما يصيبه من تجاهل وازدراء!.

يروي الشيخ الغزالي رحمه الله في بعض ما كتبه عن ذكرياته فيقول:

«وحصول الأزهري على عمل كان على عهدنا شيئًا بعيد المنال، وهذا جزء من خطة محكمة لتخريب الأزهر، وصرف الناس عن التعليم الديني كله، ولاح الأمل عندما أعلنت وزارة الأوقاف عن مسابقة بين خريجي الأزهر لشغل وظائف» الإمامة والخطابة والتدريس» الخالية بمساجدها، وتقدمت للمسابقة مع مئات كثيرة من «العلماء العاطلين»، وكانت تحريرية وشفوية، وفي الامتحان الشفوي وقعت بيني وبين أعضاء اللجنة مجادلة حادّة؛ بدأت بعمل مني كان طائشًا!

كان أحد الأعضاء يسألني في القرآن الكريم، وكنت أحفظه جيدًا، وأجبت عن كل ما سئلت عنه، والرجل يتابعني في مصحف كبير أمامه، وينتقل بي من صفحة إلى صفحة وأنا ماض في التلاوة، وردَّني في كلمة، فتوقفت ثم مددت بصري إلى المصحف الذي معه، فقال لي بدهشة: ماذا تفعل؟ قلت: أريد أن أستوثق هل أخطأت حقًا؟ فأنا أحفظ جيدًا!

وشتمني رئيس اللجنة.. وكان الأستاذ (أحمد حسين) أخا الدكتور (طه حسين)، وهو يومئذ مفتي الأوقاف، وجاء دور الأستاذ (أمين الخولي) الذي طلب مني تفسير آيات قرأتها، وأجبت فخطأني، وذكرت رأيًا آخر في التفسير فخطأني، فقلت وأنا أضبط أعصابي: وددْتُ لو أعرف الحق، فقد ذكرت كل ما أعرف!

قال: ذاك في قاعة الدرس لا في لجنة الامتحان.

وتدخل مدير المساجد الشيخ (سيد زهران) قائلًا للشيخ أمين: لقد اعترف الطالب بعجزه، فدُله على الجواب!

فقال مرة أخرى: ليس هنا.. فقلت بنزق: لا جواب إلا ما قلتُ، وأتحدَّى إذا كان هناك جواب آخر!.. وعاد الشيخ (أحمد حسين) إلى توبيخي، أما الأستاذ (أمين الخولي) فأدار ظهره معرضًا عني ومنهيًا المناقشة، ولكن سؤالًا وُجِّه إليَّ من مدير المساجد: ألق

الخطبة التي أعددتها.

فقلت:اقترح أي موضوع أتحدث فيه، وقمت فتحدثت في موضوع اقترحه وانصرفت، وظهرت النتيجة بعد أسبوعين، وكنت الخامس بين الناجحين، وتم ذلك بما يشبه خوارق العادات!

وعُيِّنتُ إمامًا وخطيبًا ومدرسًا بمسجد «عَزَبان» بالعتبة الخضراء، ولم يلق هذا الحظّ أحد من زملائي معي!» الموقف مدهش، وربما يكون مضحكًا، وقد يثير الإعجاب أكثر، فالشيخ الشاب يواجه العلماء الكبار، وكان عنيدًا في تحديه، بيد أنه لم يكن مغرورًا، إذ لو كان كذلك لانطفأ الغرور أمام الحاجة الملحة للوظيفة، والخضوع للممتحنين الذين يمنحونها لمن أرادوا، لكنه صاحب جرأة وثبات أنسته أن خصومة هؤلاء قد تفقده حُلمَه ومستقبله في وظيفة هو في أمس الحاجة إليها.

أما العملاق العقاد فكانت مشكلته في إيمانه الكبير بنفسه واعتزازه بها، وثقته التي لا حد في قدراتها، وغضبه السريع إذا ما حاول أحد أن يمسها بسوء، مهما كان مقامه أو سلطانه.

وفي موقفه الثائر مع النحاس باشا شاهد واضح، فالنحاس هو زعيم حزب الوفد الذي ينتمي إليه العقاد..وقد حدث هذا الموقف عام ١٩٣٣م، حيث قامت وزارة (توفيق نسيم) فأيدها مصطفى

النحاس وهاجمها العقاد، فاستدعى مصطفى النحاس باشا العقاد لمقابلته بمنزله بالإسكندرية، ووصل العقاد وكان معه محمد طاهر الجبلاوي. وعند المقابلة كان هذا الحوار:

مصطفى النحاس: لماذا تحمل على الوزارة يا أستاذ.. يا عقاد؟

العقاد: لأنها انحرفت عن الطريق السوي وتماطل في إعادة الدستور، وتعمل لصالح الإنجليز.

النحاس: ولكن الوفد يؤيد هذه الوزارة..

العقاد: لن أقف وقفة الإغضاء عن مساوئ الوزارة..

النحاس: أنا زعيم الأمة أؤيد الوزارة فما عساك تصنع يا عباس يا عقاد.

العقاد: أنت زعيم الأمة لأن هؤلاء انتخبوك، ولكنني كاتب الشرق بالحق الإلهي.

النحاس: إن الوزارة باقية ما دام الوفد يؤيدها.

العقاد: لن تنتهي برية هذا القلم إلا وقد انتهى أجل هذه الوزارة. وكانت النهاية بين العقاد وحزب الوفد وقد حارب الوفد العقاد فمُنع من الكتابة في البلاغ الأسبوعي، فكتب العقاد في الأهرام في الثلاثينيات.

إن العملاق العقاد ينتصر لنفسه التي حاول زعيم الأمة في كلماته أن يهون من شأن صاحبها..لكنه رده في عنف بالغ، وبين له أن إصرارها على ما تريد أقوى من جاهه وسلطانه.

وذات يوم وفي لقاء بالمجمع اللغوي جلس إليه أحد علماء الزيولوجيا، وكان يردد من حين لآخر هذه الكلمة كلما أراد أن يتحدث في شيء يقول: «عندنا في الزيولوجيا»! ففوتها العقاد مرة، فلما كررها انفجرت براكين الغضب، وقال بثورة هائلة: عندكم يعني إيه يا..هل تريد أن تقول: إنني لا أفهم أحسن منك في الزيولوجيا! هو لم يقصد أن يُهين العقاد..لكن حديثه جرى بحماس فأغفل حساسية الكاتب العظيم، وفات عليه أن ما يجري مع العامة والبسطاء، لا يجري مع العظماء والعباقرة.

إن مدح النفس أمر وخيم، لأنها قد تضخم حظك من الأنانية وحب الذات..لكن لا بأس بذكر حقيقتها وما هي عليه من قدرة، إذا احتاج الأمر لذلك، وقد قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) [يوسف].

ورسولنا ﷺ حينما قال يوم حنين:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[١٥]، فإنما قال ذلك

15 صحيح البخاري.

للإعلام وجمع الناس بعد اضطرابهم لا للفخر والتعالي عليهم.. وحينما قال: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا»[١٦].

إنما كان تحديدًا للمصدر الذي يؤخذ منه الحق، وتقتبس منه الأسوة الحسنة وينظر إلى غيره على أنه باطل وهراء.

وقديمًا قال الشافعي:

و لولا الشعر بالعلماء يـزري
لكنت اليوم أشعـر مـن لبيـد
و أشجع في الوغى من كل ليثٍ
وآل مهلـبٍ وبـنـي يـزيـد
و لولا خشية الرحمـن ربـي
حسبت الناس كلهـم عبيـدي

وكان الأستاذ (بديع الزمان سعيد النورسي) واسع العلم غزير المعرفة، وكان في إدراك العلوم أكثر إحاطة من المتخصصين فيها، فكانوا يتعجبون من ذلك ويقولون له: «من أين لك هذه العلوم؟ فنحن لم نقرأ هذه المسائل قط»..ومما يقال عن حالة مستمعيه في الدرس، أنهم كانوا لا يستقرون في جلوسهم على حالة واحدة من كثرة قيامهم وقعودهم من الإعجاب ويصيحون: الله أكبر من

16 صحيح البخاري.

شدة إعجابهم بالدرس.

وقد شهد له أحد العلماء المختصين وهو البروفيسور (علي باشكل) بقوله: إنني معجب جدًا بعلم الأستاذ فالله تعالى قد منحه علمًا كالبحر، مهما غاص فيه غواص فلا يمكن أن يسبر غوره، أو أن يصل إلى قاعه.

وتأتي هذه الشهادة مألوفة في إقرارها لحالة بديع الزمان..وقد جاءت في تعبير بليغ رصين، لكن الأدهى منها، شهادة سعيد نفسه، وكيف كان يصف هذا العلم الكبير، حتى ليخيل إليك أنها من قبيل الغرور لولا وقوفك على زهده وتقواه واستقامة نفسه.؟!

ففي أحد الأيام سأل (ملا رسول) الأستاذ سؤالًا فقهيًا، فأجابه الأستاذ النورسي بما يخالف أسئلة الفقهاء السابقين، فاعترض (ملا رسول) على هذا الجواب، ولكن الأستاذ أصر على جوابه وقال بشيء من الحدة والقوة.

أيها السادة اعلموا، أن سعيدا القديم قد مات، ولكنكم لا تزالون تظنونني سعيدًا القديم، فأمامكم الآن (سعيد الجديد)، قد أحسن الله سبحانه إليه وأنعم عليه بأفضاله وألهم قلبه إلهامًا ما لو كان المصنفون بحرًا من العلم لما استطاعوا أن يبلغوا ركبة سعيد الجديد!.

فعليكم أن تقبلوا كلامه على ما هو عليه، مهما بدا لكم معناه مخالفًا لظاهر ما لديكم من المتن، فالحقيقة هي هذه، فسعيد الجديد يدرس في عشرة أشهر ما يدرسه سعيد القديم في عشر سنوات.(١٧)

إنها معرفة قوية بالنفس بعيدًا عن كل زهو مذموم، وتوصيف صادق لسعيد الجديد، الذي توفرت له همة عظيمة أكلت العلوم أكلًا!.

إن شعور الثقة بالنفس يحتاج إلى رعاية وتربية، لأنها نِسب تختلف في حجمها ومعدلها من شخص لآخر، بسبب النشأة والتربية والتدريب في الصغر..هناك أناس مُعجِزُون في ثقتهم بأنفسهم، وهناك درجات لا تؤهل أصحابها أن تصمد أمام المحطمين المثبطين، ومن هنا اخترعوا الشؤون المعنوية، وكانت أساليب الحرب النفسية..التي تقضي على كيان الإنسان..

كما تأخذ الرعاية شكلًا آخر..حينما تريد الإبقاء على حالة التوازن المطلوبة، لئلا تشتط النفس إلى الكبر والغرور.

---

17 ذكريات عن سعيد النورسي . لإحسان قاسم الصالحي – ط. مركز الكتاب للنشر

على خطى العباقرة

اكتب من أجل الكتابة..من أجل عشقك للإبداع..لإيمانك أن الحياة إبداع، وأنك لابد أن تساهم فيها بنصيب..

ليس شرطًا أن يشهد لك من حولك أنك مبدع..يكفي أن ترى ذلك من نفسك فتؤمن بإمكاناتك وتثق فيها..

لا تنظر لإبداع العباقرة نظرة القداسة، فيحجب تقديرك لهم ما يمكن أن تقدمه.. فتخاطب نفسك خطاب اليائسين.!. ما قيمة ما أكتب بجوار ما يكتبون؟! ليس في الإمكان أبدع مما كان!.

والصواب أن تجعل إنجازهم حافزًا لك ليس أكثر.. فلعل في نفسك شيئًا كبيرًا لم يقدر له الظهور بعد.

عندما بدأ (نجيب محفوظ) حياته الأدبية، وجد نفسه في ميدان رهيب يجول فيه عمالقة النهضة الأدبية كالعقاد وطه حسين وهيكل والحكيم وغيرهم من الأدباء، فكان يقول:»كنا نشعر حقًا أننا أمام أهرام كبيرة وعمارات ضخمة، ولكن هذا لم يمنعنا أن نجرب حظنا وأن نقتحم الميدان، بل لعل وجود هؤلاء العمالقة في أيامنا قد أغرانا بالاجتهاد، ولم يدخل في قلوبنا اليأس، لأن الإبداع.. (الخَلق يحفز على الخَلق)، وأظن أن مهمة الذي يدخل ميدانًا من جيلنا الحالي، أخف بكثير من مهمتنا أمام هؤلاء العمالقة، ولو

جئت أنا من جديد الآن ووجدت نجيب محفوظ، وغيره من كتاب الفن القصصي بكل إنجازاتهم، لكان شاغلي الشاغل أن أحاول الوقوف غير واطئ القامة أمامهم..أحاول تجاوزهم لو استطعت، إن جيلنا لو كان قد خاف من عمالقة الميدان أيامها، ما كنا كتبنا كلمة واحدة»(١٨).

في كثير من الأحيان تنتابني الرغبة القوية في كتابة موضوع بعينه، وسرعان ما أجد من الكبار من تناوله وأدلى فيه بدلوه، فتفتر عزيمتي التي كانت متوقدة، وأقول لنفسي: ماذا عساي أن أضيف أو أبتكر وقد تحدث فيه فلان، وكتب فيه علان، ولكن إيماني باختلاف الأذواق، وتباين الحس من شخص لآخر، يردني ردًا، ويحفزني أن أستمر فيما رغبت فيه..

وصورة أخرى..حينما يُخيل إلي أني أبدعت شيئًا كبيرًا بلغ غايته في الحبك والسبك، ثم يستقر في دخيلتي أن هذه النظرة ستتغير بمرور الأيام لتصيبني الدهشة وأتساءل كيف كتبت بهذا الأسلوب وكيف صِغت هذه الصياغة؟! كان الأولى أن تكون هذه الجملة كذا وهذه العبارة كذا..ومع هذا لابد من اليقين بأن الإنتاج المبكر هو البداية التي تصل بها للنهاية، ولن تستطيع الوصول للنهاية إلا إذا كانت هناك بداية.

18 أنا نجيب محفوظ – عبد العزيز إبراهيم– ط. مكتبة الأسرة

ونجيب محفوظ نفسه عندما بلغ أشده واسترجع بداياته الأولى سخر من أسلوبه في روايته الأولى (عبث الأقدار) التي نشرها له سلامة موسى وقال: «كنت يومها أظن أنني صنعت شيئًا عظيمًا حقًا ومرت بي الأيام فإذا بي أراها (عبث أطفال) مش عبث أقدار!».

وما أكثر ما يملأ المرء زهوًا لو علم أن أحد العباقرة يتابعه ويعجب بكتاباته ويقرأ له، إنه دافع يثير غبطة غزيرة في النفس.. إنه يحفل بكلماتك..لقد أصبح لها قيمة.. إن عقله الجبار يقف منحنيًا أمام سطورك!. ففي الخمسينيات وبعد سنتين من تخرج الشيخ الغزالي، كان في مصر ما يسمى بالمؤتمر الإسلامي، تولى أمانته العامة القائمقام (أنور السادات) وقتها.

وحدث أن وجه المؤتمر دعوة إلى الكتاب والمفكرين المسلمين ليقوموا بعمل ما في خدمة الرسالة الإسلامية، وضم المدعوِّين اجتماع تمهيديٌّ كان من بين رجاله الأستاذ الدكتور (محمد يوسف موسى)، الذي نظر فيمن حوله فلم ير الشيخ محمد الغزالي!.. وكان للشيخ الغزالي وقتها بضعة عشر مؤلفًا في خدمة الدعوة والدفاع عنها.

وكان الجمع يضم عددًا من علماء الأزهر، وكبار الأدباء، وما كان الشمل يلتئم والعمل يبدأ، حتى قال الدكتور (محمد يوسف

موسى) للسادات – أمين المؤتمر - بصوت مسموع: «أرى أن يكون معنا في تحقيق أهدافنا رجل ليس بيننا الآن، الشيخ محمد الغزالي!» .. ويعلق الدكتور موسى على الموقف قائلًا: «وما كدت أنتهي من قولي حتى خيَّم على المجلس صمت شامل، طال فترة حتى أحسست بالحرج، وما أغراني بالكلام إلا أن هناك أزهريين كثيرين، اعتقدتُ أنهم سوف يؤيدونني! لقد لاذوا بالسكوت جميعًا!.

وما أنقذني من الخجل إلا صوت الأستاذ (عباس محمود العقاد)، وهو ينطلق أجشّ على عادته: نعم أنا قرأت لهذا الشاب، وينبغي أن يكون معنا!»

وعندئذ تحرك جمهور المشايخ وأثنوا على الشيخ وأيدوا وجوده.. ثم يثني الشيخ الغزالي على من شجعه، ويظهر في كلماته غبطةً بقراءة العقاد لمؤلفاته وهو الكاتب الكبير، حيث يقول:

«ومن المفيد أن أذكر أنه لا علاقة بيني وبين العقاد ولم أحضر للكاتب العملاق ندوة أو تربطني به صحبة، وإن كنت من أشد الناس إعظامًا لأدبه وعلمه.

إن تشجيع (حسن البنا) لي، وإقبال الإخوان عليّ كانا من أقوى الأسباب في عكوفي على التأليف؛ مع تجهُّم الحكام لي وضيقهم بي»(١٩).

***

سيعرفون قيمتك يومًا

ماذا لو طلب منك أن تكتب سطرًا من إبداعك..وجاء نجيب محفوظ وكتب بجوار ما كتبت سطرًا من إبداعه؟!

هل ساعتها سيلتفت إليك أحد أو يعبأ بما كتبت؟! لا تحتار في الجواب..فلن يهتم أحد بكلماتك..لأن الأنظار كلها ستتجه إلى الأديب الكبير، والروائي المبدع، الذي حصل على نوبل!.

ولكن لا تيأس..فربما لا يدرك الناس موهبتك وقدراتك وقيمة إبداعك.. وأواتيك بالمفاجأة.!.

هل تعلم أن هذا الأديب الذي حصل على نوبل، وجذب الأنظار عنك، عانى مثل ما عانيت من الإهمال والاستنكار..لم يكن أحد يُدرك موهبته أو يلتفت إليه، حتى أنه كان مثلك تمامًا، لو وضع

---

19 قصة حياة – الشيخ محمد الغزالي.

كلماته بجوار ما كتب نابغة من السابقين، لما التفت إليه أحد أو أشاد به، حتى أتت اللحظة المناسبة، وعرفه الناس، وتلهفوا على أعماله وإنتاجه وصار أديبًا يشار إليه بالبنان!.

نعم..لقد كانوا يرفضون أعماله رواياته، ولا يرون أدبه حفيًا أن يظهر للناس أو يطبع على الورق، وكان مصير إبداعه دوما إلى الدرج –درج المكتب– الذي يتسع لكل ما أبدع قلمه حينما ضاق به الآخرون..لكن نجيب لم ييأس ولم يصبه الإحباط، وواصل الكتابة والإبداع لإيمانه بأن اللحظة المناسبة لم تأت بعد..وإيمانه أكثر بأنه مبدع.

يقول:»ما أكثر الأقاصيص التي رفض نشرها، فالنشر دائمًا كان صعبًا، خصوصًا في البداية، حتى أننا كنا نختار بعض المجلات المتخصصة مثل بعض المجلات القضائية التي كانت تخصص معظم صفحاتها للإعلانات..فكانت ترحب بأعمالنا لتسويد صفحاتها، لكي تسند نفسها أمام الجهات التي تصدر عنها، لكي تحصل على الإعانة اللازمة، فهذه كانت ترحب بما نكتبه..وإنما وجدنا صعوبة بالغة في نشر أي شيء في مجلة تستحق هذا الاسم، وقد كان النشر في تلك الأيام هو المجد الأعظم، والمتعة التي لا يعلوها متعة.

بدأت أكتب الرواية..أكتب وأعرض على الناشرين فيرفضون، وأضعها في الدرج فوق سابقتها، وأسلي نفسي بكتابة القصة القصيرة.

كنت أكتب الرواية وأدور على دور النشر من جديد، وبالطبع نفس المصير، تقبع مع أختها في درج مكتبي، وأبدأ في رواية أخرى، وما أن أنتهي منها حتى أحملها بدورها وألف بها على دور النشر من جديد..وبالطبع نفس المصير، حتى تجمع عندي ثلاث روايات بلا نشر وهي: (رادوبيس، كفاح طيبة، القاهرة الجديدة»(٢٠).

ظل (نجيب محفوظ) على هذا المنوال حتى التقى بسلامة موسى وعرض عليه رواياته، عساه أن يجد فيها ما يعجبه فيقوم بنشره.. لكن سلامة موسى لم تعُجبه رواياته، وفي الوقت نفسه أدرك موهبته التي تحتاج إلى تحفيز وتشجيع، فنصحه بأن يستمر في الكتابة حتى يصل للأسلوب المنشود الذي يرقى للنشر ويُعجب القراء..

ودار بينهما هذا الحوار:

- سألني هل تكتب روايات؟

قلت: نعم..تساءل:

---

20 أنا نجيب محفوظ – إبراهيم عبد العزيز– ط مكتبة الأسرة.

هل نشرت؟ قلت: لا بالطبع، ولكني أكتب لنفسي ولا أدري ما إذا كان ما أكتبه يستحق النشر أم لا؟ وطلب مني أن يطلع على شيء مما أكتبه، وفعلا أطلعته على بعض ما أكتبه، فكان يقول لي: أنت تملك موهبة روائية، ولكن هذه الكتابات لا تصلح للنشر، وقد كرر على مسامعي هذا الكلام مرارًا.

كان (سلامة موسى) رجلًا وديعًا جدًا وحيويًا، تطمئن إليه من اللحظة الأولى، ورغم أنك من تلاميذه، إلا أنه كان يشعرك أنك معه على قدم المساواة..كانت علاقتي بهذا الرجل مصدر سعادة وقوة لي، لم يجعلني أحس في لحظة أني أثقل عليه..قرأ لي أربع روايات، أو بمعنى أصح أربع تجارب في الرواية، وفي كل مرة كان يقول لي: لا تصلح للنشر ولكن استمر..لابد أن تستمر..في انتظار رواية أخرى منك..إلى أن جاء يومٌ آخر من أسعد أيام حياتي:

ذهبت له برواية (عبث الأقدار) وحين قرأها فاجأني: هذه تصلح للنشر، وحجزها لديه.

وكانت فرحة لا تقدر حينما قال لي: سوف أطبعها وأقدمها هدية من المجلة الجديدة، في إجازتها السنوية، وكانت لهذه المجلة إجازة شهران، تعطي للمشتركين فيها كتابا بدلا من المجلة!!

لحظتها لم أصدق ما أسمع، غير أني كنت أثق في كلام الرجل، مع

هذا ظللت لا أصدق نفسي حتى فوجئت به في أحد الأيام يقول لي بهدوئه المعتاد: اذهب للمطبعة وصحح روايتك.

جريت إلى المطبعة وفرحة الدنيا لا تسعني، وكانت أول رواية تنشر لي مقابل ٥٠٠ عدد منها هي أجري عن الكتاب وكان العدد بخمسة قروش»(٢١).

لم ييأس نجيب محفوظ مما واجهه من إعراض الناشرين، لأنه كان يعشق الأدب ويعيش له.. حتى وجد من يشجعه ويؤجج مواهبه.

إن إعراض الناشرين كان يواجهه إصرار عجيب، لأن بين الضلوع موهبة تلح عليه وتفرض نفسها على رغباته تمامًا كهذا الروائي الذي ضحى بكل شيء من أجل موهبته، وقرر أن يكون قصاصًا شهيرًا فاستقال من وظيفته، وتفرغ لكتابة القصص وليس لديه أي مورد للرزق غير هذه الكتابة.. إنه (أرسكين كالدويل) كان يكتب من الصباح حتى آخر الليل، ويرسلها بالبريد للمجلات أملًا في نشرها، وأن ترسل له أجرها.

ومضت عليه شهور وفترات طويلة لم تنشر له قصة واحدة، وعرضت عليه بعض المجلات، أن يكتب لها عرضًا للكتب الجديدة، ولم يكن أجره من ذلك إلا الاحتفاظ بهذه الكتب التي ترسلها له، وراح يكتب ويجمع الكتب وكلما تجمع له بعضها قام

21 المصدر السابق.

ببيعه بربع الثمن لكي يشتري بثمنه الخبز وطوابع البريد والورق والآلة الكاتبة..وكان يقوم بزراعة حديقة بيته البالي المتهدم بالبطاطس ويأكل منها.

ومع مرور الأيام امتلأت عنده حقيبتان كبيرتان بالقصص القصيرة، التي كتبها وأرسلها بالبريد، إلى المجلات المختلفة وأعادتها له معتذرة عن نشرها..

ظل هكذا في معاناته وأخيرًا وبعد ست سنوات من الكتابة اليومية من الصباح حتى منتصف الليل، نشرت له إحدى المجلات قصة وأرسلت له ثمنها عشرة دولارات، فكانت هذه المفاجأة أكبر دافع له على مواصلة الكتابة التي انفرج لها باب الأمل، وكتب أولى رواياته ونشرها، كما اختيرت قصة من قصصه للفوز بجائزة أدبية ومبلغ ألف دولار..فلم يصدق.. وكاد أن يغمى عليه ليس لأن المبلغ المالي كبير ولكن لأن هذه القصة تحديدًا رفضت أن تطبعها ١٢ مجلة أرسلها لها بالبريد.

واحتفل بالفوز وتناول أول وجبة لحم مشوي له ولأسرته منذ أكثر من سنة، وظل يكتب بلا توقف وأصبح مشهورًا، وله روايات تحولت لمسرحيات تُدر عليه عشرات الألوف من الدولارات أسبوعيًا، ووجدت السينما الأمريكية في أعماله مادة غنية لأفلامها، وانتشرت إبداعاته في المجلات والصحف والمسارح، وبدأ يستعيد

وزنه الذي فقد منه ٨٠ رطلًا في سنوات الحرمان، واستطاع بعد صبر وكفاح أن يسترد قيمته الأدبية التي تنكر لها البعض سلفًا، وحاولت هذه المجلات الآسفة أن تشككه فيها!.

«أما الفيلسوف الألماني شوبنهاور فظل ٤٠ عامًا يكتب ويؤلف، ولا يشعر به أحد، أو يوليه بعض ما يستحقه من تقدير واهتمام، حتى بعد أن أصدر الجزء الأول من مجلده الضخم (العالم إرادة وفكر) فكان يمضي أيامه وحيدا صامتًا لا ينطق أحيانًا بحرف واحد لمدة أسابيع..ثم تولاه اليأس من أن ينال ما يستحق من التقدير والحفاوة العلمية، لقد عاش مجهولًا أو شبه مجهول، يفتقد الأصدقاء وتساوره الشكوك في الجميع، ويتذمر من كل شيء.. ينام وقد وضع مسدسًا محشوًا بالرصاص تحت وسادته، ولا يسلم ذقنه لحلاق أبدًا خوفًا من أن يتعرض لأذى أو للعدوى، كما يصحب معه كوبًا جلديًا إلى أي مكان يذهب إليه ولا يشرب إلا منه، ويكتب حساباته باللغة الإغريقية القديمة حتى لا يفهمها أحد غيره..ونشر الجزء الأول من مؤلفه (العالم إرادة وفكر) الذي صور فيه فلسفته الخاصة، فأبلغه الناشر بعد ١٦ سنة من صدوره أنه اضطر ليبيع نصف الكمية كورق دشت للف البضائع!.

لقد تجرع مرارة الإحساس بالهوان وهو يرى كما يقول: التافهون يتمتعون بالشهرة والتقدير، وهو الذي أعلى لواء الحقيقة إلى

أعلى مكان رفعه إليها إنسان يعيش وحيدًا منسيًا، وكره كل شيء واعتزل الحياة الفكرية وهو في سن الخامسة والأربعين وانتقل إلى مدينة فرانكفورت، وعاش هناك وحيدًا فتوقف عن الكتابة ١٧ سنة متصلة، لم يكن يفعل خلالها شيئًا سوى القراءة، وتناول وجبات الطعام في المطعم ووهو يحدق صامتًا بالساعات في تمثال بوذا الذي يضعه أمامه على المكتب، ثم استعاد حيويته فجأة ونشر مقالًا فلسفيًا، ثم أصدر الجزء الثاني من مجلده، فإذا بالباحثين من كل الأنحاء يطرقون بابه، وإذا بالدعوات تنهال عليه من الجامعات الأوروبية، وإذا بالأوساط العلمية تلتفت إليه، وتضع على رأسه أكاليل المجد..وإذا بالشهرة تفاجئه وهو يقترب من سن السبعين، وهو يرقب كل ذلك متعجبًا ويقول: بعد أن عشت حياتي وحيدا منسيًا جاءوا فجأة ليودعوني إلى قبري بالهتاف والتهليل!»(٢٢).

ومنذ أكثر من ٦٠ عامًا وعلى صفحات مجلة (الهلال) تحديدًا في أغسطس عام (١٩٥١م)شكا الأديب الموهوب المغمور (أحمد عبد الرحمن شادي)، تنكر دور النشر للإبداع والمبدعين، وتجاهلها للمواهب الصاعدة، ونشرها للكتابات الغثة التي لا ترقى للتعبير المنصف عن الأدب الحقيقي.

22 اندهش يا صديقي – عبد الوهاب مطاوع.

كان ذلك في صفحة (إذا سألتني) التي كانت تجيب فيها الدكتورة (بنت الشاطئ) على ما يرد إلى (الهلال) من أسئلة أدبية واجتماعية فقالت تحت عنوان: (الطريق شاق وطويل)

« الأديب عبد الرحمن شادي بالمنصورة يروي لي حديث كفاحه في سبيل الأدب..أرسل لي بعض المجلات قصصًا ومقالات يراها أفضل بكثير مما تنشره هذه المجلات، فكان نصيبه الإهمال والإغفال، وحمل كتابين له – هما باكورة تأليفه- وطاف على الناشرين، فردوه ردًا غير جميل، وقد بعث إلي كتابيه هذين، وسألني محتكمًا إلى راضيًا بحكمي: أمن الحق أن يضطهد مثل هذا الإنتاج في الوقت الذي تلفظ لنا المطابع تفاهات غير جديرة بالورق الذي طبعت فيه؟

وقد قرأت ما كتب، وأشهد أنه على حق إذ يراه أفضل من كثير مما تنشره مجلاتنا، لكني لا أقره على المبالغة في التألم مما يسميه اضطهادًا، فالحق أن ليس في الأمر شيء من الاضطهاد، وإنما هي عادة الصحف والمجلات ودور النشر، تتردد طويلًا قبل أن تنشر شيئًا لأديب مغمور لم يعرفه القراء بعد.

ونحن جميعًا قد عانينا من هذا مثل ما يعاني الأديب، كما عاناه معنا كثيرون، ظلوا مغمورين لأنهم استعجلوا الظهور قبل أوانه،

فلما أبطأ عليهم النجاح، يئسوا وظنوا بأقلامهم الظنون فحطموها كافرين.

وأُعيذ الأخ الأديب أن يكون من السذاجة بحيث يظن أن كبار الأدباء اللامعين، ألفوا الطريق معبدًا أمامهم منذ الخطوة الأولى!

لقد صدوا كما صد غيرهم، وردتهم دور النشر ردًا غير جميل، لكنهم صبروا، وظلوا يكافحون غير يائسين، مؤمنين بأقلامهم وإن كفر بها أصحاب الصحف وتجار الكتب، لم يتخل عنهم إيمانهم لحظة، حتى فرضوا أقلامهم على صحف كانت تزهد فيها بالأمس.

فإذا كان الأخ مستعدًا لأن يحتمل متاعب الخطوات الأولى في هذا الطريق الشاق الطويل، فليعكف على فنه ينضجه، ولينتظر في صبر ومثابرة وإيمان، ذلك اليوم الذي يستطيع فيه أن يفرض بضاعته الأدبية على الناشرين.

أما إذا تخاذل يائسًا أمام الاضطهاد الأول فرحمة الله عليه!

* * *

الجماهير العمياء

مات بالسل وعمره ٤١ سنة في مصحة بالقرب من فينا، وبعد موته قام صديقه (برود) بنشر إنتاجه وتعريف العالم بأدبه، فإذا بكتبه تنتشر في كل أنحاء العالم، وتترجم إلى معظم اللغات بغير أن يسعد صاحبها بهذه اللحظة التي طالما تحينها كثيرًا، ولكنه عانى الإهمال والتجاهل، ورحل في سن مبكرة، فلم يكن هناك من الأمل في حياته ما يشجعه على البقاء..

إنه الأديب التشيكي (فرانز-كافكا) (١٨٨٣-١٩٢٤) الذي كان يعمل موظفًا في حكومة النمسا وكان يكتب الروايات والقصص الغريبة، التي تصور الإنسان صريعًا للقلق والشعور بالخطيئة، وأن هناك دائمًا قوى غامضة تطارده..ولكن فرانز لم يستطع أن يعيش من التأليف، ولم يستطع في حياته أن ينشر إلا القليل من أعماله، وحينما ألف كتابه التأملات وافق أحد الناشرين على طباعته ونشره وبعد صدوره سارع (كافكا) بشراء عشر نسخ منه..ثم اتصل بالناشر بعد أيام ليسأله عن حجم مبيعات كتابه فأجابه: بأن الكتاب قد باع ١١ نسخة فقط!. ولم يهتم (كافكا) بقلة مبيعات كتابه، بقدر ما اهتم بمعرفة من هذا الشخص الذي اشترى كتابه..وفي ظل هذه النتائج المحبطة، ظل يكتب ببطء شديد، وأصابه اكتئاب وكانت نهايته كما عرفنا.!.

إن (شوبنهاور) حزن كثيرًا لأنهم أدركوا قيمته في هرمه..فما باله بمن لا يدركون قيمة العظماء إلا بعد رحيلهم، بل تزداد أسى حينما تعلم أن هذا التجاهل، قد يكون سببًا في موت بعضهم، فهناك فئات لا تُدرك معالم النبوغ إلا بعد رحيل صاحبها، ولتكن حياة (جوخ) شاهدة على ما نقول..فهذا الفنان العالمي الرائع الذي تعلق لافتاته في متحف اللوفر الفرنسي وتبلغ الواحدة منهن بملايين الدولارات، ويصطف حولها السياح من كل الجوانب، هو نفسه جوخ الذي عاش ومات فقيرًا معدمًا..لم يستطع أن يبيع لوحة واحدة، وكان أخوه يعوله، ويحاول أن يسوق له لوحاته، ويعرضها له..لكنه لم ينجح في بيع واحدة منها، ولم تقدر لوحاته أن تنطق بنبوغه كما لم تستطع أن تفسرها عقول الناس وأذواقهم.. مما أدى إلى اكتئابه الشديد، وإصابته بنوبات جنون حتى مات في السابعة والثلاثين من عمره وهو يقول لشقيقه ورفيق دربه: لو أنك حتى اشتريت ثمن الأدوات التي اشتريتها لي؟!

وأسلم نفسه الأخير..

ولا أعرف بأيهما نعجب..بموقف ذلك الفنان، أم بحالة تلك الجماهير العمياء التي لا تلبث إلا وتدرك أنها عمياء ثم ترى.!.ولكن بعد أن تُسبب خسارة فادحة في حق من تجاهلوه وازدروه بعماهم!.

وإذا لم يكن أصحاب المواهب على قدر من الثقة بالنفس، فإن مصيرهم لا يعدو غالبًا أن يكون مثل مصير جوخ.

شيء عجيب غريب أن يكون هؤلاء الذين يرفضونك وينكرون موهبتك هم أنفسهم من يصفقون لك فيما بعد..ويطربون لإنجازك وأعمالك!. وتتساءل..هل فعلوا ما فعلوه قديمًا لأنهم لم ينضجوا بعد، أو أنهم لم يرتقوا لمستوى ما قُدم لهم؟ أم إنهم إمعات، لا يصفقون لشيء إلا حينما يرون غيرهم من الناس يصفق له؟

وعلى هذا التصور تتحول المشكلة من عدم وجود الإبداع إلى عدم تقدير الإبداع.!.

لقد عاش (ريتشارد فاجنر) فيلسوف الموسيقى سنوات صباه وشبابه يعاني البؤس والحرمان، مضافًا إليهما افتقاد التقدير لموهبته الموسيقية على الرغم من نبوغه وجمعه بين عبقرية التأليف الموسيقي والنبوغ في كتابة القصة والمقال..ثم بدأ يؤلف أوبراته الشهيرة ويعرضها، فيقابلها الألمان بالسخط والانصراف عنها لمخالفتها للأوبرات التقليدية التي تعودوا عليها، ويضطر الموسيقار العبقري إلى الترحال بين عواصم أوروبا فلا يلقى في أي منها التقدير الذي يستحقه، ويعود لبلاده محبطًا، وينهمك في تأليف إحدى أوبراته وهو بلا مورد تقريبًا، فيكاد ذات مرة أن يهلك جوعًا لولا أن أنقذته زوجته بشراء وجبة طعام دسمة تعهدت كتابيًا بدفع ثمنها

فيما بعد!، ويستعد لعرض أوبرا (رينزي) التي ألفها، وينهمك في تدريباتها، ويبدي ممثل الفرقة الأول إعجابه بألحان الأوبرا ويعبر عن إعجابه، ويدعو الممثلين الآخرين لأن يفعلوا مثله، فيستجيبون ضاحكين..ويتقبل الموسيقار النقود ضاحكًا وتتكرر القصة طول أيام التدريبات وتصبح دعابة كل يوم، والممثلون لا يعرفون أنه لولا هذه الدعابة، لما وجد (فاجنر) ثمن وجبته كل يوم، ثم تُعرَض الأوبرا فتحقق نجاحًا مذهلًا لأول مرة، وتبدي أميرتان ألمانيتان إعجابهما بالموسيقار الموهوب..وتبلغ أنباء النجاح أسماع ملك مقاطعة (ساكس) فيأمر بتعيين (فاجنر) رئيسا للفرقة الموسيقية الملكية، ويجد الموسيقار لأول مرة دخلًا مضمونًا يكفيه للتفرغ للموسيقى، وتدعوه لندن التي سبق أن أنكرته من قبل لعرض أوبراته فيها، فيذهب إليها غازيًا، ويعود إلى ألمانيا فيجد أوبراته تحقق نجاحًا يتعجب له حين يتذكر الإحباط الذي أصيب به منذ سنوات قليلة.!.

وعلى الرغم من أنه لم يتخلص من الديون معظم سنوات حياته، إلا أنه لم يعد أبدًا إلى حالة البؤس الذي عاشه في شبابه..وعاش حياة عريضة نال فيها معظم ما أراده..ولم يتخل أبدًا عن اقتناعه العجيب بأنه لا يقترض..لكن العالم مدين له بما هو في حاجة إليه.. كما كان يردد ساخرًا أو مصدقًا.

أما الأديبة البريطانية (دوريس لسنج) الحائزة على نوبل لعام ٢٠٠٧م، أرادت أن تختبر موهبتها مع الناشرين، لتعرف انطباعهم عن أدبها، هل فعلًا يؤثرونه ويحتفون به؟ أم أنها مجرد عملية تجارية يربحون منها؟!

ولولا ثقتها بموهبتها لأصابها الإحباط من تصرفات الناشرين وردة أفعالهم المفاجئة، حتى عاجلها أحدهم برأيه، وأوجد خيطًا بين الزعم والحقيقة، وكان رائعًا فيما لاحظ ورأى!.

لقد أعدت رواية بعنوان (مذكرات جار طيب) وقامت بإرسالها إلى أحد الناشرين، واستخدمت اسما مستعارا هو (جان سومرز) وذكرت أنها الرواية الأولى لها، ورد عليها الناشر معتذرًا بعدم صلاحيتها للنشر، فكان أن أرسلتها لناشر آخر وتلقت الرد نفسه، ثم أرسلتها لناشر ثالث علق عليها بقوله: إنها قريبة من أسلوب (دوريس) في شبابها، ووافق على نشرها، وحينئذ اعترفت له المؤلفة بالحقيقة، وقرر الاثنان جعل (جان سومرز) مؤلفة ناجحة، وحين صدرت الرواية تجاهلها معظم النقاد، ونتيجة لذلك رفض الناشرون إصدارها في طبعة شعبية تتوفر للجميع، وحين أذيع الخبر في الأوساط الأدبية، احتدم النقاش بين المثقفين وعموم الناس حول ما حدث، وبرز سؤال مهم ومثير، ما الذي نستخلصه من حكاية (جان سومرز)؟

وكانت الإجابة: أن دور النشر عاجزة عن اكتشاف المواهب وتعتمد تقديرها للأعمال على الاسم لا الموهبة، وتطبق المقولة القائلة: أنه لا ينجح إلا الناجح، أو كما يقولون: الشهرة تجر الشهرة أو المال يجلب المال، ومن جانب آخر.. فضحت هذه الحكاية النقاد الذين يقضون جهدهم، ويعطون مساحة كبيرة لنقد كتب المشاهير ويتجاهلون المبتدئين!.

***

الانطباع الأول وهم أم حقيقة ؟ !

يتسم المحبطون دائمًا بأنهم عديمو الحكمة والفطانة، والنظر للعواقب والنتائج..والغوص في أعماق المواقف والأعمال والأشخاص!. أي أن رؤيتهم ضعيفة مشوشة

ومن أبرز رذائلهم تقييم من يرونه من النظرة الأولى.. ومع أول موقف يصدر منه، أو لفظة ينطق بها، دون أن يحسبوا في أنفسهم أو يفرضوا في ظنونهم..وجود دوافع أخرى ساهمت في صنع الأحداث!.

وفي حياتي أعرف من كوّن رأيه وانطباعه عني لمجرد كلمة عابرة في ساعة غضب أو لحظة هرج..ومهما مرت السنون والأيام فلا تزال هذه الفكرة هي القائمة تجاهي..ومهما ثبت من الأدلة المادية الحسية التي تظهر خلافها..ومهما رأى من الإمكانات والقدرات والنتائج التي حققتُها أمامه.. فهو لا يستطيع أن يتخلص من الانطباع الأول الذي حفر في أعماقه النفسية.!.

كثير من البشر يعانون من عقدة الانطباع الأول، وتعميمه على بقية عمر الإنسان ومواقفه، فيظل طوال حياته رهين بهذا الموقف، وهي ثقافة غير ناضجة، تظلم الإنسان ولا تعطيه قدره الحقيقي.. وهي من أساسها ضد فكرة الإنسان، الذي يتغير ويتطور في

مواقفه وميوله، وتتبدل أحواله حسب الصروف والظروف الزمنية، ويستطيع أن ينتقل بين يوم وليلة من حال إلى حال، فيصير محموده مذمومًا ومذمومه محمودًا.. وقد تعجب حينما تعلم أن هذا الداء موجود في الإنجليز حسب ما أعلمتنا به نبوية موسى حين وصفتهم بقولها : والإنجليزي إذا فهم شيئًا واستقر في رأسه لا يتنازل عنه مهما كانت الظروف ومهما ظهرت له الحقائق ، فهم في ذلك يتمثلون بقول الشاعر : «ما الحب إلا للحبيب الأول » فالرأي الأول له عندهم المكانة الأولى مهما كان خاطئًا وكل ما عداه خطأ لا يأبهون به».. فإذا فشل الإنسان في الدراسة، ترى من يصفه بأنه فاشل في كل حياته، وتظل صفة الفشل تلازمه أينما حل أو راح، حتى وإن ذهب إلى ميدان آخر، ونجح فيه، وجنى منه الألوف والأموال الطائلة..فسوف يظل في أعينهم فاشلًا.!. لأنهم أسيرو الانطباع الأول!.

ويالضيعتك إن لم تكن عليمًا بذاتك..مقدرًا لإمكاناتك، غير عابئ بانطباعاتهم البلهاء التي لا سند لها من علم أو منطق.

وللنبي ﷺ سلوكه السديد في معاملة الأخطاء، التي نظر إليها على أنها عوارض تجيء وتزول، فلا ينهدم معها الإنسان، فربما تكون لبنة من لبنات بنائه!.

يقول (أسامة بن زيد) فيما رواه البخاري:

«بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قلت: كان متعوذًا فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم».

لقد أخطأ أسامة رضي الله عنه وفعل فعلًا لم يُرض رسول الله ﷺ ومع ذلك هل سجل له الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الموقف، ليكون علامة سوداء في تاريخه، تلاحقه كلما رُشح لموقع أو وظيفة.؟!

ويشيع بين الناس أن أسامة لا يصلح للقيادة، لأنه فعل كيت وكيت، وحدث منه كذا يوم كذا؟!

أبدًا لم يكن ذلك..

فقد أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فتفرق المسلمون من عند رسول الله ﷺ وهم مجدون في الجهاد، فلما أصبح رسول الله ﷺ من الغد دعا أسامة بن زيد فقال: يا أسامة سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش.

إن أسامة يتولى القيادة مع ما سلف له من أخطاء، لأن المرء يتعلم من أخطائه، بل يكاد من شدة تعلمه أن يتحول خطأه السالف إلى شبح يؤرق حياته ويحسب لخطواته من بعده ألف حساب..وهو ما حدث لأسامة ﵁ حينما استدعاه علي بن أبي طالب ﵁ ليكون معه في حربه على معاوية فكان رده على علي: لو أدخلت يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله ﷺ حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله.

بعض الناس تنقبض نفسك لرؤيتهم من الوهلة الأولى، وما أن تجلس إليهم وتتحدث إليهم، سرعان ما تزول وحشتهم من قلبك، ويتبدل مكانها إلفًا وودًا.. فنشعر ساعتئذ بمدى الظلم التي تحمله أعيننا وتظنه أوهامنا لكثير من الناس، وأننا إذا لم نتحل بالحكمة والروية، فإن نفورنا وخصومتنا تكون عظيمة فاحشة..

الانخداع بالمظاهر شيء يجب الحذر منه، وعدم الاعتماد عليه في فهم الناس.. وذو الرمة كان من الذين اكتشفوا زيف المظاهر وخداعها حينما قال:

على وجه مي مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الخذي لو كان باديًا
كذلك ميٌّ فِي الثِّياب إذا بدت
و أثوابها يُخفين منها المخازِيا

ألم تر أن الماء يخبث طعمه
وإن كان لون الماء أبيض صافيا

ويرى بعض الباحثين: أن النفس البشرية خليط من المشاعر التي يصعب التحكم بها، فإن الحكم على أي شخص من النظرة الأولى أو بمجرد مقابلة عابرة، خطأ يترتب عليه مظالم للآخرين، والدليل أننا نبني في بعض الأحيان صورًا مثالية لشخص ما، وعند أول امتحان نصاب بصدمة، وهذه النتيجة الطبيعية للحكم المتسرع..

ويرى آخر: أن الحكم على الغير يحتاج وقتًا كافيًا لتمحيص ودراسة الشخص الذي أمامنا، وهذه معرفة ليست بسيطة كما يتوقعها البعض، لأن الإنسان يتألف من وحدة مركبة تتضافر في تشكيلها مجموعة من العوامل النفسية والبيولوجية والاجتماعية.

وعلى النقيض»وجدت بعض الأبحاث أن الخبرة الجديدة المتعلقة بشخص في مكان وسياق مختلف، يمكن أن تخلفها نظرة جديدة، لكن الانطباع الأول ما زال مسيطرًا على تفكيرك ووعيك.. خفيًا كان أم واضحًا، فعندما تكّون أو تكوّنين نظرة معينة عن أحدهم وبعد فترة تلتقون بهم في اجتماع ما، وتكتشفون أن الفرد هذا أحسن من انطباعك الأول عنه – فإن النظرة تتعدل فقط في سياق الاجتماع أو الاحتفال هذا، لكن المخ يخزن (حسب نتائج الدراسات النفسية الحديثة) معلومات تنطبق مع الانطباع الأول،

بينما نظرتك الجديدة متغيرة فقط في مكان أو طبيعة الاجتماع الجديد»(٢٣).

و»في جامعة (لويولا) بولاية (شيكاغو) الأمريكية، حاول بعض العلماء دراسة تأثير الانطباع الأول على علاقاتنا فطلبوا من مجموعة طلبة تقييم أساتذتهم الجدد في بداية الصف الدراسي فلم يتغير تقييمهم للأساتذة أنفسهم في نهاية الصف، مما يدل على أن انطباعهم الأول لم يتغير.

وحاول باحثون آخرون من جامعة ولاية (أوهايو) وجامعة مينيسوتا الأمريكيتين، معرفة تأثير الانطباع الأول فتوصلوا إلى أن أول عشر دقائق من لقائك مع الآخرين، تحدد طبيعة العلاقة المستقبلية بينكم، وذلك بحسب اختبارات علمية أجريت على مجموعة من الناس تعرفوا إلى بعضهم البعض فأثر الانطباع الإيجابي على علاقتهم المستقبلية إيجابًا، وبصورة أسرع مما يتخيله البعض»(٢٤).

غاية القول..أن الانطباع الأول موجود، وهو صادق في أحيان كثيرة، وموافق للحكم على أشخاص كثيرين، لكنه لا يمكن أن يكون هو القاعدة في الحكم على آخرين، والتعرف الدقيق على

23 جريدة اليوم السعودية – مقال الانطباع الأول حكم أبدي – د. موفق الغثيان.
24 من مقال لمحمد النغميش - عقدة الانطباع الأول في حواراتنا! – مجلة الرجل.

نفسياتهم.. لا يمكن أن نجعله محور التقييم ورسم صورتنا الذهنية للأشخاص..فما أسهل خداعنا لو جعلنا طريقنا إلى فهم الناس بالمظاهر، التي لا تعكس لب الحقيقة وكيان الشخصية.

حتى وإن كان الانطباع الأول صادقًا، وكان حكمنا على الأشخاص بشواهد من حياتهم، فإننا يجب أن نؤمن بأن الإنسان يمكنه التغيير من نفسه ومن طباعه ومواقفه.. فبقاء الحال من المحال..وعلينا أن نساعده على هذا التغيير إن كان إيجابيًا، ونرده عنه إن كان سلبيًا.

والحكماء هم من يقيمون الناس بعيدًا عن المظاهر والظنون، ويبنون حكمهم على المعرفة الحقيقية والمعاشرة الحياتية.

لقد جاء رجل يشهد لرجل بالصلاح عند أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقال له: أأنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: أسافرت معه في سفر طويل يسفر عن أخلاق الرجال؟، قال: لا، قال: أعاملته بالدينار وبالدرهم الذي به يظهر ورع المرء من شرهه ـ؟ قال: لا، قال: لعلك رأيته في المسجد يمسك بالمصحف، يقرأ القرآن، يرفع رأسه تارة ويخفضها تارة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: اذهب فلست تعرفه، وقال للرجل: ائتني بمن يعرفه(٢٥).

---

25 إحياء علوم الدين 38/2.

وطلب عمر بن الخطاب الأحنف بن قيس رضي الله عنهما، فأبقاه عنده سنة يراقبه ثم قال له: «يا أحنف، قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيرًا، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، فإنا كنا نتحدث: إنما أهلك هذه الأمة كل منافق عليم»(٢٦).

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «أما بعد، فادن الأحنف بن قيس وشاوره، واسمع منه»(٢٧).

وعمر ﵁ هنا يبَنى معرفته بالأشخاص على المعاشرة، التي تولد المعرفة الحقيقية.

أما الحسن البصري ﵁ فيرفض أن يكون الكلام - مجرد الكلام- مقياسًا في تصنيفه الناس، وإنما جعل طريقه للحكم عليهم بالتأكد واليقين فيقول:

«اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا قولهم، فإن الله لم يدع قولًا إلا جعل عليه دليلًا من عمل يصدقه أو يُكذبه، فإذا سمعت قولًا حسنًا فرويدًا بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم، ونعمة عين، فآخه، أحببه، وأودده، وإن خالف قولًا وعملًا فماذا يشبه عليك

---

26 تهذيب الكمال – المزي- الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٠ – 0891 تحقيق : د. بشار عواد معروف.
27 الطبقات الكبرى – ابن سعد الناشر : دار صادر – بيروت.

منه، أو ماذا يخفى عليك منه؟ إياك وإياه، لا يخدعنك»(٢٨).

وكذلك كان شريحًا حينما جاءته امرأة تخاصم رجلًا فأرسلت عينيها فبكت فقال له الشعبي: يا أبا أمية ما أظن هذه البائسة إِلَّا مظلومة؛ فقال:يا شعبي إن إخوة يوسف:

(وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) [يوسف]

ولله در البارودي في قوله:

واختبر من شئت تَعْرِفهُ، فما

يعرفُ الأخلاقَ إلا مَنْ فَحَصْ

ويعلمنا النبي ﷺ أن لا ننخدع بالمظاهر.. ففي الحديث قال ﷺ: «..وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع.

قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها

---

28 البداية والنهاية 172/9.

فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا فقلت: اللهم لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت: اللهم اجعلني مثلها»(٢٩).

وأعطى النبي ﷺ أصحابه درسًا عمليًا في عدم احتقار المسلم لأخيه أو ازدرائه والحط من شأنه أو التعالي عليه، لأنه رأى من مظهره ما لا يعجبه، فعَنْ أبي الطفيل، عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فلما جاوزهم قال رجل منهم:

والله إني لأبغض هذا في الله..

فقال أهل المجلس: بئس والله ما قلت: أما والله لننبئنه قم يا فلان.. رجلًا منهم فأخبره قال:

فأدركه رسولهم فأخبره بما قال: فانصرف الرجل حتى أت رسول الله ﷺ فقال:

29 رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن حبان.

يا رسول الله مررت بمجلس من المسلمين فيهم فلان فسلمت عليهم فردوا السلام، فلما جاوزتهم أدركني رجل منهم فأخبرني أن فلانا قال:

والله إني لأبغض هذا الرجل في الله فادعه فسله على ما يبغضني فدعاه رسول الله ﷺفقال: فسأله عما أخبره الرجل فاعترف بذلك وقال: قد قلت له ذلك يا رسول الله فقال: رسول الله ﷺ فلم تبغضه؟! قال: أنا جاره وأنا به خابر، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه الصلاة المكتوبة التي يصليها البر والفاجر قال الرجل: سله يا رسول الله: هل رآني قط أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو أسأت الركوع والسجود فيها؟، فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا ثم قال: والله ما رأيته يصوم قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر قال: يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو انتقصت من حقه شيئا فسأله رسول الله ﷺ فقال: لا ثم قال: والله ما رأيته يعطي سائلا قط ولا رأيته ينفق من ماله شيئا في شيء من سبيل الله بخير إلا هذه الصدقة التي يؤديها البر والفاجر قال: فسله يا رسول الله هل كتمت من الزكاة شيئا قط أو ماكست فيها طالبها؟ قال: فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: لا، فقال له رسول الله ﷺ: قم إن أدري لعله خير منك»(٣٠).

30 رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات أثبات.

لا تتعجلوا في هدم الأشخاص بحكمكم الأبدي البائس، فالطباع يُمكن أن تتبدل والأحوال بإمكانها أن تتغير.. وما علينا إلا أن نُوجد البيئة الإيجابية التي ينمو فيها هذا التغيير، ونورفها بالتشجيع والتحفيز حتى تقدم أفضل النتائج.

ويحاول الدكتور (مصطفى محمود) أن يصف لنا بريق المظاهر الزائف حينما يتحدث عن إدراك الجمال الحقيقي للمرأة فيقول:

«إذا أردت أن تحكم على جمال المرأة لا تنظر إليها بعينيك، وإنما انظر إليها بعقلك، لترى ماذا يخفي وراء الديكور.. واحذر أن تنظر إليها بعاطفتك أو غريزتك، وإلا فإنك سوف تفقد عقلك من أول نظرة، ثم يُخيل إليك إنك أمام (فينوس) الخارجة من زبد البحر.

والجمال الحقيقي هو جمال الشخصية..وحلاوة السجايا وطهارة الروح..أي قيمة لوجه جميل وطبع قاس وخوان مراوغ خبيث؟ وأي قيمة لمقاسات الوسط والصدر والقلب مشحون بالطمع والدناءة؟ وأي قيمة للشفاه المرجان، واللسان يقطر بالسم والقطران؟ وأي قيمة للساق الجميلة التي تمتد لك بشلوت، والذراع الفاتنة التي تمتد لك بقبقاب؟وأي قيمة لباروكة لا يوجد تحتها عقل؟ وأي قيمة لنهد نافر خصصته صاحبته لإرضاع العشاق؟ولأرداف تتزين للنزوات، وفم فاتن لا ينطق إلاالكذب؟»(٣١).

31 الشيطان يحكم–د.مصطفى محمود.

لا تقتلوا الأمل

قال علي الجارم رحمه الله: «الشجاع من يخلق من اليأس أملًا لأن اليأس فيه طعم الموت، ولأن الشجاعة معنى الحياة»

كثيرون هم أولائك الذين يحبطون عزائمنا ويضعون القيود في مسيرتنا!..إنهم يبذرون أشواك اليأس في طريقنا حتى تَضمر في نفوسنا أهدافنا وغايتنا.. إن الموهبة فيك كامنة.. لكنك لا تراها، ولا يراها من حولك من المحبِطين المثبِطين.. إنها تنتظر اللحظة المناسبة حتى تشب عن الطوق، وتُثبت ذاتها ووجودها.. فكم من العبقريات والمواهب قتلها المثبِطُون المحبِطُون!

والذين أفلتوا من غوائلهم، كان لهم صمود محمود.. ولكن ماذا يضير هؤلاء لو أنهم ملأوا الدنيا تفاؤلًا وأملًا..لماذا يكسرون أرواح الناس، ويغرقونهم في اليأس والقنوط؟!

ماذا يضير أحدهم لو أنه رسم بكلماته آمالًا للواعدين والمبتدئين، حتى يتجدد الشوق في نفوسهم للحياة مرة أخرى؟!

(قل لأي طفل أو زوج أو موظف، إنه غبي أو أحمق بالنسبة لأي شيء، وأنه معدوم المواهب، وأنه يفسد كل شيء يقوم به، إذا فعلت هذا.. فقد دمرت لديه كل حافز للتقدم، ولكن بدلًا من ذلك استخدم الطريقة العكسية، كن سخيًا في تشجيعك واجعل

الشيء الذي يفعله يبدو سهلًا، وانفث في روحه أن لديه حساسية خاصة، ومقدرة متميزة وأنه بالتدريب سوف تكبر موهبته إذا تعهدها بالرعاية وأنه سيتفوق» (٣٢).

«فالأمل قوة دافعة تشرح الصدر للعمل، وتخلق دواعي الكفاح من أجل الواجب، وتبعث النشاط في الروح والبدن، وتدفع الكسول إلى الجد، والمجد إلى المداومة على جده، والزيادة فيه تدفع المخفق إلى تكرار المحاولة حتى ينجح، وتحفز الناجح إلى مضاعفة الجهد ليزداد نجاحه، إن الذي يدفع الزارع إلى الكدح والعرق أمله في الحصاد، والذي يغري التاجر، بالأسفار والمخاطر، أمله في الربح، والذي يبعث الطالب إلى الجد والمثابرة أمله في النجاح، والذي يحفز الجندي إلى الاستبسال أمله في النصر، والذي يهون على الشعب المستعبد تكاليف الجهاد أمله في التحرر، والذي يحبب إلى المريض الدواء المر، أمله في العافية، والذي يدعو المؤمن أن يخالف هواه ويطيع ربه، أمله في رضوانه وجنته.

الأمل إذن هو إكسير الحياة، ودافع نشاطها، ومخفف ويلاتها، وباعث البهجة والسرور فيها.

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!.. والأمل -قبل ذلك كله- شيء حلو المذاق، جميل المحيا في ذاته، تحقق أو لم يتحقق، واستمع

32 كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين - ديل كارينجي.

إلى الشاعر العاشق يقول:

أماني من ليلى عذاب كأنما

سقتني بها ليلى على ظمأ بردا

مني إن تكن حقًا تكن أحسن المنى

وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وضد الأمل اليأس.. وهو انطفاء جذوة الأمل في الصدر، وانقطاع خيط الرجاء في القلب، فهو العقبة الكئود والمعوق القاهر الذي يحطم في النفس بواعث العمل، ويوهي في الجسد دواعي القوة، ورحم الله من قال:

واليأس يحدث في أعضاء صاحبه ** ضعفًا ويورث أهل العزم توهينا(٣٣)

إن بعض العباقرة عاشوا في محيط لا يؤمن بهم، ولا يرى فيهم أي نفع أو فائدة للدنيا، حتى القريبون منهم كانوا يؤمنون بفشلهم ويرون تخلفهم، وقد يصارحونهم في وجوههم بأنهم فاشلون لا قيمة لهم ولا مكانة، لكن روحًا قوية في نفوس هؤلاء الملهمين، أفلتتهم من سهام التوهين إلى مصير كبير.

أما المُحبطِون فما عليهم إلا أن يتخلوا عن سوداويتهم، ويغمروا الدنيا حولهم بالتفاؤل والبشر، فعقولهم لا تحيط بالغيب، ولا

33الإيمان والحياة – د. يوسف القرضاوي.

تعرف كيف تسير حركة الزمن، وإلى أي جهة تسير؟ إنهم لا يدرون ما ستكشفه لنا الأوقات واللحظات القادمة!.

فالليالي من الزمان حبالى *** مثقلات يلدن كل عجيبة

«إن تجارب الحياة قد علمتنا منذ زمن طويل، أنه لا شيء يتجمد في موقعه إلى الأبد، وأن الفلك دائمًا دوار يحمل الجديد والغريب كل حين، وأنه بغير التطلع دائمًا إلى الغد بقلب يرجو رحمة ربه ويخفق دائمًا بالأمل، لا يستطيع أحد أن يتحمل الحياة أو يحقق أهدافًا فيها الآن أو غدًا وفى أي وقت.. لأن السأم عدو السعادة ولأن الإحباط واليأس أعدى أعداء الإنسان، ولأنه إذا ثبت المرء عينيه على أوضاعه وتصور أنها سوف تستمر بنفس ظروفها إلى ما لا نهاية لما غادر فراشه.. ولما شارك في مباراة الحياة بحماس الراغبين في الفوز وفى تحقيق الأحلام» (٣٤).

صورة أخرى لرجل حقق نجاحًا كبيرًا في حياته، وحصل على جائزة نوبل، وكان من قبلها يتهمونه بالفشل والخيبة.. إنه الطبيب الألماني (ألبرت شفايتزر) الذي رحل عن بلاده شابًا وقرر أن يذهب لأفريقيا ليعيش في مجاهلها، سافر إلى الكنغو واستقر بها، وأقام في قرية (لامباريني)، وهي قرية بدائية لا يوجد بها ماء نظيف ولا كهرباء ولا شيء من مباهج الحياة.. اعتبرته أسرته فاشلًا نتيجة

34 اندهش يا صديقي – عبد الوهاب مطاوع.

هذا القرار لأنه ضحى بفرصته في أن يصبح طبيبًا معروفًا يجمع الثروة والمال من عمله، كما يفعل زملاؤه، ولكن (ألبرت شفايتزر) أمضى سنوات عمره يعالج مرضى الجذام، وهو مرض جلدي كان يخيف الأطباء من عدواه، لكنه أنشأ مستشفى بدائيًا لعلاج الجذام، وانتهى ذكره من مجتمعه ونسيه أصدقاؤه ومعارفه، ولم يعد له صلة بالأوساط الطبية، واعتبرته أسرته مجنونًا قضي على مستقبله وأضاع عمره..أما هو فأحب خدمة الناس وشعر أن ما يقوم به رسالة إنسانية عظيمة..

وبينما كان يعيش حياته ويجتهد في علاج هؤلاء الفقراء، أخذ يكتب من حين لحين بعض المقالات يصف فيها أحوال أفريقيا ويرسل بها للصحف الأوروبية، وبعد فترة زمنية وجد نفسه فجأة محط الأنظار في بلده وفي العالم كله، فالرحالة يأتون إليه في مشفاه البعيد، والصحفيون يسعون إليه ويسجلون آراءه..وكليات الطب تدعوه للمحاضرة فيها، ويذهب هو إلى أوروبا ليلقي المحاضرات، وينشر الكتب والمقالات، ويعزف على الأورج في الحفلات، ليجمع التبرعات لمشفاه، فيفاجأ النقاد الفنيون بمستوى عزفه، ويعتبرونه واحدًا من أبرع عازفي الأورج في العالم، ويرضى عن نفسه لذلك ويتصور أنه قد نال كل ما حلم به.. لكن الحياة تهديه هدية أخرى لم ينتظرها وهي جائزة نوبل، فيسعد بتقدير العالم له

إلى أن رحل عام ١٩٦٥م عن ٨٣ عامًا.

وإنه لدرس للمثبطين.. فهذه نوبل يحصل عليها رجل كانت أسرته تتهمه بالفشل يومًا ما.!.

ويطل علينا (بروس لي) بطل الكارتيه الشهير الذي لم يكن بمنأى عن محاولات الإحباط والتعجيز.. ففي صغره سألته المعلمة عن أمنيته التي يرجوها حينما يكبر، فقال بكل طموح وأمل: سأكون الأقوى في العالم، وسوف أحصل على أعلى أجر يأخذه ممثل في السينما..وكان (بروس لي) ضعيفًا نحيل الجسد، وهو ما دعى المعلمة أن تسخر منه وتتهم أمانيه بأنها كلام فارغ وثرثرة وأوهام..

واستطاعت هذه السخرية أن تملأ قلب (بروس لي) بالتحدي والإصرار، والرغبة القوية في أن يكون رمزًا للقوة، وحصل على أعلى أجر في تاريخ السينما يمكن أن يحصل عليه ممثل..وكان أول من قام بتمثيل أدوار الكاراتيه والكونغوفو وأقوى رجل في فنون القتال.!.

ونظر حوله فوجد أن هناك شيئًا مهمًا بقي عليه أن يفعله، وهو أن يذهب إلى معلمته التي هزأت من طموحه في يوم من الأيام، ليخبرها أنه أصبح كما يريد مهما كانت التحديات!.

إن الكلمات البسيطة المحملة بالأمل والتشجيع لا تكلفنا شيئًا،

وقد تنفع المجتمع وتسعد بها الإنسانية كلها من حيث لا ندري.. وكم من كلمات – مجرد كلمات- حولت كثيرين إلى مهرة ونوابغ، لأنها دعتهم بالتسهيل والتشجيع، وتجنبت التحطيم والتعقيد.. ويضرب لنا (ديل كارينجي) ذلك المثل عن لعبة (البريدج) ولاعبها الشهير (كولير ستون) وهو اسم مألوف أينما توجد هذه اللعبة، وقد ترجمت كتبه إلى العديد من اللغات، وبيعت منها ملايين النسخ..وقد ذكر لـ(كارينجي):» أنه لم يكن ليحترف تلك اللعبة لولا أن له امرأة: أن لديه استعدادًا خاصًا لها، فعندما حضر إلى أمريكا عام ١٩٢٢، حاول الحصول على وظيفة لتدريس الفلسفة وعلم الاجتماع، لم يفلح، وحاول بيع الفحم، ففشل وحاول بيع البن ولكنه فشل أيضًا، ولم يخطر في باله في تلك الأيام أن يدرس البريدج، ولكنه كان يلعب الورق، وكان عنيدًا حتى أن أحدًا لم يكن يرضى بملاعبته..

ثم تقابل مع معلمة حسناء من معلمات (البريدج)، وهي (جوزفين ديللون) فوقع في غرامها وتزوجها، وقد لاحظت كيف يكون مدققًا في ورقها وهي تلاعبه، فأقنعته بأنه عبقري في اللعب» ثم ذكر كارينجي أن (كولير ستون) قال له: إن هذا التشجيع وحده هو الذي دفعه إلى أن يستخدم لعبة البريدج ويجعل منها حرفة»(٣٥).

---

35 كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الآخرين- ديل كارينجي.

آباء مُحطِّمون

لا بأس من تحدي أي إنسان..فربما يكون حاقدًا عليك، أو حاسدًا لك، أو لا يحب أن يرى غيره يرتقي سلم النجاح!.

كل هؤلاء.. من الممكن أن تسير في طريقك غير عابئ بهدمهم.. وتستعين عليهم بالقريبين منك، الذين يساعدونك ويأخذون بيديك حتى تجتاز ما يرهقك، لكن المصيبة الكبرى والداهية التي لا منجاة منها، حينما تأتيك الضربة ممن يفترض أن يكون سندًا لك..وتنزل عليك كلمات اليأس والإحباط من والديك أو إخوتك أو الأقربين منك..وهو نوع من الإحباط صعب المجاهدة والتحدي..

لأن نظراتهم الهادمة، وكلماتهم الخانقة، تلاحقك ليل نهار لا تعطيك الفرصة للتركيز واستجماع قواك، فيعكرون أيامك حتى لا تجد في سمائك طيفًا للأمل.

وصدق من قال:

وإخوانًا حسبتهمو دروعًا

فكانوها ولكن للأعادي

وخلتهمو سهامًا نافذات

فكانوها ولكن في فؤادي

انظر إلى قسوة الآباء، وكثيرًا ما يقسو الأب على ولده، ليكون هادمًا لبوارق الأمل في نفسه..فمنهم من كان يرسل كلماته كاللهب الصاعق على أبنائه، فتحرق نفوسهم، وتكسر قدراتهم.. ولئن كان ولدك فاشلًا متأخرًا ربما هدم مستقبله بيديه، فلا تهدم أنت حياته بلسانك وتأنيبك!.

حاول معه النهوض مرة أخرى، ولا تكن سببًا في انهياره أو انتحاره!.

أعرف فتاة رسبت في عامها الدراسي، فصب عليها أبوها وابلًا من اللعنات والشتائم، هدم كبرياءها وحطم نفسها..فلم تجد المسكينة طريقًا غير طريق الرحيل، فعزمت على الانتحار، وصبت على نفسها مقابل ما صب عليها أبوها وقودًا وأشعلت في جسدها النيران، لتموت ضحية كلمات غاشمة، أضاعت آمالها وأذاقتها معنى الانكسار في الحياة.

ليس على صواب من يظن أن السخرية والتعيير والإشعار بالفشل والرسوب، من الدوافع القوية للنجاح، كما يتصور بعض الواهمين المخدوعين..الذين يرون المعول أداة بناء!.

انظر إلى عثرات ولدك، تأمل مشكلاته، حلل عقباته، حاول أن تنهض به، شجعه تارة وحفزه تارة أخرى، حاول أن تبعث فيه

الثقة ليقوم من كبوته..احذر من لسانك أن يخرج منه ما يشعر بالإحباط والفشل..فربما يخيب ظنك، وتشهد الدنيا من ولدك هذا عبقرية غير مسبوقة..

تمامًا كما خاب ظن والد (داروين) الذي كان يقول له: «أنت لا تُعنى إلا بالصيد والكلاب واقتناص الجرذان، وسوف تكون عارًا على نفسك وعلى عائلتك».. هذه هي الكلمات التي تلقاها (داروين) من أبيه في وقت كان يلوح لأي إنسان يتأمل (داروين) أنها صحيحة، وأن هذا الشاب قد خاب الخيبة التامة، فقد تسكع في دراسات مختلفة، ولكنه لم يستقر على واحدة منها، فقد التحق بكلية الدين ثم تركها، والتحق بكلية الطب ثم تركها، وفي غضون ذلك كان يلعب، أو على الأقل كان يبدو كأنه يلعب، يخرج إلى الحقول ويجمع النباتات، ويصيد الحشرات ويقارن بين الأحياء، ويفكر تفكيرًا سريًا كأنه يتآمر على الكون كله، كي يغيره أو يغير البصيرة البشرية فيه.

والآن وبعد عشرات السنين من هذه الكلمات القاسية التي قالها عنه أبوه، لا يعد (داروين) عارًا على عائلته، بل هو فخر أمته، يتباهى به التاريخ الإنجليزي، وبعد هذا التوبيخ الأبوي: تأمل (داروين) حياته الماضية، ومبلغ ما أتمه من الخدمة في التوجيه الذهني للعالم، وقال:

« أظن أن أبي قد قسا علي بعض القسوة»

وهذا شهير آخر قسا عليه أبوه قسوة عنيفة، إنه الأديب الكبير (جبريال جرسيا ماركيز) الحائز على جائزة نوبل عام ٨٢م

لم يكن والده يرى فيه أي أمل، وكان غير واثق من موهبته، وانطلق يسخر من ولده في مطلع حياته.. وفوق سخرية الوالد، كان الفقر يحاصر طموحه من جهة أخرى.. وما أدراك ما الفقر في قتل المواهب.؟!

إنه سرطان العبقريات الذي يقضي عليها ويمحو بشائرها، وهو ما تعرض له ماركيز، ولكنه قاوم بقدر ما استطاع، لقد عانى الفاقة والحرمان، ومرت به أيام كان يسد رمقه بما يجد في صناديق القمامة من بقايا أطعمة فاسدة، وكان يعجز عن شراء الحليب لطفله الرضيع، واضطر أن يرسل نصف مخطوطة كتابه الذي وضعه في مصاف الأدباء المرموقين فيما بعد (مائة عام من العزلة) لأنه لم يكن يملك ما يكفى من المال لإرسالها للناشر الأرجنتيني..وفيما بعد أرسل الجزء الثاني بالبريد بعد أن رهنت زوجته المدفئة الكهربائية وهى آخر ما تبقى لهما في المنزل بعد أن باع كل ما يملك.

وحين سلك درب الأدب وعرض أعماله..جاءته الضربة الأكثر إيلامًا، حيث قال عنه أشهر ناقد سينمائى: إنه لا يملك أية موهبة

وعليه أن يبحث عن مهنة أخرى.

وبعد هذه الظروف المحبطة، والعثرات المحطمة، التي تمثلت في الفقر تارة، والتيئيس تارة أخرى..لا يسعنا إلا أن ننظر كيف مرت الأيام وكيف أصبح ماركيز؟..هل تحققت نبوءات والده، وهل صدق ذلك الناقد في رأيه عنه؟

لقد أجابتهم الأيام عن كل ذلك، وخيبت آمالهم فيما توقعوه.. فتعالوا بنا نبصر كيف أصبح ماركيز؟!..

لقد صار أشهر المؤلفين في العصر الحديث وأغناهم، إذ كان يتقاضى خمسين ألف دولار عن لقاء لا يتجاوز نصف ساعة، وكان يملك سبعة منازل فاخرة في خمس دول مختلفة.

أما ما حصل عليه من الجوائز والأوسمة فمنها وسام النسر ١٩٨١م، ثم جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢م، ورحل (جابريال) في مدينة مكسيكو بالمكسيك يوم ١٧ أبريل ٢٠١٤م عن عمر يناهز ٨٧ عامًا.

وإذا تأملت كل هذا النجاح الباهر والجوائز العديدة الضخمة التي نالها..وتذكرت ما كان ينعته به أبوه بالأمس، فما عليك إلا الضحك على الأيام التي خانت رجاءه!..»إن الإنسان دائمًا يحتاج إلى أن يجدد حياته من حين لآخر، بإشعال شمعة جديدة من شموع

الأمل في حياته كلما ذابت شموعه الأولى..وبألا يستسلم للإحباط مهما كانت البدايات غير مبشرة ومهما عرقلت الصعوبات والعثرات طريقه، فكل الذين حققوا نجاحهم في الحياة قد فعلوا ذلك..ولم يقولوا أبدا ضاع العمر يا ولدي، ولم يعد هناك وقت لكي نبدأ من جديد، أو لكي نحقق الآمال التي طال انتظارنا لها.. فالإنسان قادر دائمًا على أن يكسب مهارات جديدة في أية مرحلة من العمر يستعين بها على مقاومة السأم واليأس والقنوط»(٣٦).

***

36 المصدر السابق.

الفشل طريق النجاح !

تؤلمنا الأخطاء حين نقع فيها، لكنها بعد سنوات تُكون مجموع أخطائك..وهو ما نسميه: الخبرة..

فـ»يوما بعد يوم يزداد إيماننا بأن التميز لا يأتي دون أن نتجرع مرارة الفشل، يومًا بعد يوم تزداد قناعتنا بأن التعثر يصنع منك متسابقًا أشد بأسا، لو تصفحنا سير الناجحين من حولنا لوجدنا أن كل واحد منهم لديه قصة حبلى بالمعاناة، رافقت بداياته وساهمت في صنع النجاح الذي يعيش فيه، الإخفاقات وقود ودافع للمثابرة، إن الأجنحة التي لا ترفرف لا تطير، فمن أراد أن يمخر عباب السماء فعليه أن يحتمل الألم، هذا الألم هو الذي سيحمله إلى الأعلى.. إننا تعلمنا عندما كنا أطفالًا أننا إذا أردنا المشي، علينا أن ننهض بعد أن نسقط. فمن الأحرى أن نسترجع هذه الذكريات عندما أصبحنا كبارا، وندرك أن هذا السقوط الجميل جعلنا لاحقًا نسير، ونركض، وأحيانا نطير!»(٣٧).

تخرج في عام ١٩٧٢م بتفوق مع مرتبة الشرف الأولى، كان محل إعجاب أغلب أعضاء هيئة التدريس في قسم علم النفس منذ عودته لأحضانه، كانوا يرون فيه عالمًا واعدًا لم يخذلهم، حصل

37 السقوط الجميل – مقال بجريدة الوطن – عبدالله المغلوث تاريخ ٢٥/٦/٢٠١١م.

على الماجستير ثم الدكتوراه بسرعة قياسية عام ١٩٧٥م من جامعة ستانفورد، وحصل لاحقا على خمس شهادات دكتوراه فخرية من جامعات عالمية، ونال ٢١ جائزة علمية من عدة مراكز بحثية ومنظمات دولية، ونشر منذ عام ١٩٧٦ حتى اليوم نحو ٩٥٠ بحثًا علميًا وكتابًا في الإبداع، والذكاء العاطفي، وأنماط التفكير، والفلسفة النفسية، ولديه أكثر من ٥٠ بحثًا تحت الطبع، وتجاوز الدعم المادي الذي حصل عليه من المؤسسات البحثية أكثر ٢٠ مليون دولارًا أمريكيًا، ويعتقد (ستيرنبرج) ٦٢ عامًا، أن (اللكمة) التي وجهها له أستاذه، كانت أكبر دافع له لتحقيق هذه الإنجازات العلمية والثأر ممن وصفه بعدم الموهبة..

لو أنه استسلم ستيرنبرج لسقوطه المبكر، لما عرف التاريخ عالمًا فذًا (كستيرنبرج).

إنها قصة نجاح كبيرة وإنجازات مبهرة تحكي عبقرية صاحبها..

إنه الأمريكي (روبرت ستيرنبرج) الذي نحكي قصته مع الفشل بعد أن عرضنا قيمته ونجاحه الكبير، دفعه عشقه لعلم النفس أن يلتحق بجامعة (ييل) الشهيرة ليحقق ذاته ويشبع نهمه، لكنه اصطدم بحصوله على درجة منخفضة في مبادئ علم النفس، وتعقدت الأمور بينه وبين أستاذه الذي أكد له أنه «لا يملك موهبة حقيقية»، بكى (ستيرنبرج) كثيرًا، وغير تخصصه إلى الرياضيات

لعله ينسى (علم النفس)، ويكتشف نفسه في ميدان آخر، لكن صوتًا في داخله، كان يلح عليه بالعودة إلى تخصصه الذي يعشقه ورد اعتباره من أستاذه، رضخ (روبرت) لعقله الباطن، وعاد لعشقه الأول بعد فصل دراسي مرير، درس مجددًا المادة الأولى التي حصل فيها على درجة (سي) أو (ج) كما في قاموسنا وكانت النتيجة الدرجة الكاملة، الدرجة الكاملة كانت هي نتيجة كل المواد التي أخذها ستيرنبرج في الجامعة لاحقًا.

يقول (تشرشل): «النجاح هو المضي من فشل إلى فشل دون أن يفت ذلك في عضدك»

ويقول (هنري فورد): «عندما يبدو أن كل شيء يعاندك ويعمل ضدك، تذكر أن الطائرة تقلع عكس اتجاه الريح، لا معه»

وينسب لـ(أديسون): «الفاشلون هم أناس لم يدركوا قربهم الشديد من تحقيق النجاح حين يأسوا من المحاولة» ويقول الأمريكي (مايكل جوردان) لاعب كرة السلة الشهير: «لقد فشلت مرات ومرات ومرات متتالية، ولهذا نجحت!»

ويقول: (ابيجيل فان بيرن):»إذا أردت بلوغ مكان فوق الشمس، فعليك أن تتحمل بعض الخدوش والجروح الصغيرة»

ويقول (دينيس ويتلي):»في ظل صيحات المحبطين والمثبطين نرى

هناك من يعد الفشل طريق النجاح ودرجة من درجات الصعود.!» ويقول الدكتور (زويل) وهو يوضح الفرق بيننا وبين الغرب:»إن الغرب ليسوا عباقرة ونحن أغبياء !! هم فقط يدعمون الفاشل حتى ينجح ، أما نحن.. فنحارب الناجح حتى يفشل»

الممثل الأمريكي (جيري ساينفلد)، الذي حقق مسلسله الكوميدي (ساينفلد) نجاحًا تاريخيًا حول العالم خلال عرضه لمدة تسع سنوات ابتداء من عام ١٩٨٩ تعرض في بدايته لموقف كاد ينهي حياته الكوميدية، فعندما صعد إلى المسرح لأول مرة لارتجال بعض (الاسكتشات) الكوميدية التي يحفظها عن ظهر قلب ويفضلها أصدقاؤه انتابته نوبة هلع قاتلة، جعلته يرتجف ويتصبب عرقًا بغزارة، مما دفع الجمهور إلى المطالبة بإنزاله من على المسرح في التو واللحظة، أما أصدقاؤه فكانوا يؤمنون بموهبته وطالبوه بنسيان ما فات والعمل على اعتلاء المسرح لتأكيد موهبته أمام الجمهور، تردد (جيري ساينفلد) كثيرًا، لكنه فعلها، صعد في اليوم التالي إلى المسرح نفسه، خلع وجوه الجمهور الذين لا يعرفهم واستبدلهم بوجوه أصدقائه في مخيلته، وحقق نجاحًا مدويًا استمر حتى الفجر، لا بل إلى اليوم.

والملاكم الشهير (محمد علي كلاي) كان شابًا صغيرًا يعيش في بلد تعج بالعنصرية، وكان يحلم أن يكون بطل العالم في الملاكمة، في

حين كان كثيرون يسخرون منه، وخاض تجربة الملاكمة، ودخل بعض المباريات وضرب أكثر من مرة، ولكنه أعاد المحاولة مرات ومرات وخسر أكثر من مرة.. واستطاع في النهاية أن ينتصر ويفوز، إلى أن وصل به الأمر أن تحدى جورج فورمان الذي كان الجميع يهابه، ويشاع عنه بأن ضربته كانت أقوى من ضربة حصان.

كان محمد خائفًا من اللعب أمامه لكنه تحداه، وكانت العاقبة أن هزم ودخل المستشفى، ونصحه الناس أن ينتهي عن اللعب ولا يمارسه مرة أخرى، لكنه أبى ذلك، واستطاع أن يلعب مرة ثانية، وقرر أن يواجه (فورمان) مرة أخرى، وتحقق له النصر عليه بسبب إصراره وإرادته ومثابرته.

وكان على الأمريكي (إدي أركارو) الصبر والتحمل لفترة طويلة، قبل أن يحقق أحلامه، وهو المولود في ١٩١٦م، اضطر لترك مقاعد الدراسة وسِنّه ١٤ عامًا ليعمل في اسطبلات الخيول، وبعدها بعام بدأ يعمل في مهنة الجوكي أو راكب ظهور خيول السباق، كان أول سباق خيول يخوضه في عام ١٩٣١م دون فوز.

خاض (أركارو) ٢٥٠ سباقا متوالية على مر ٧ شهور دون أن يفوز في سباق خيل واحد، وكذلك دون أن ييأس، واستمر على تفاؤله حتى جاء ١٤ يناير من عام ١٩٣٢م، اليوم الذي حقق أول فوز له في حياته، واستمر من نجاح إلى آخر حتى حفر اسمه

في صفحات التاريخ، كأفضل جوكي في التاريخ الأمريكي وربما العالم، محققا أكثر من ٤ آلاف فوز في سباقات الخيول.

ويروي أحد الكتاب قصة نجاح بعد فشلٍ مُنِيَ به صاحبها، لكنه استطاع القيام من جديد ومواصلة طموحه:

« فجأة خيم الظلام على وجه ابن زميلي، انقطعت ابتسامته التي كانت تضيء صدورنا، لم يعد يتكلم عن فريقه المفضل بحبور كما في السابق، بل لم يعد يتكلم إطلاقا، عندما سألت أباه عن سر اختفاء ابنه الذي نعرفه، أجاب وهو يحاول أن يعثر على سيجارته: إن ابنه حصل على درجة متدنية في الرياضيات، والأسوأ من الدرجة حسب الأب أن ابنه عندما ذهب لمراجعة رئيس قسم الهندسة الميكانيكية ليستأنس برأيه خرج خائبًا، فقد نصحه أن يبحث عن تخصص آخر، ولعله يكون أديبًا، إن دراسة الهندسة الميكانيكية لم تكن مجرد حلم لابن زميلي بل كل شيء في حياته، فهو يرى أنه مهندس منذ أن كان طالبًا في المرحلة المتوسطة، لم يتبق كتاب باللغة عن العربية عن تخصصه لم يقتنه، صار التخصص يلاحقه في يقظته ومنامه، لكن لقاءه برئيس القسم أجهض مستقبله، توقف كل ما حوله في لحظات، حاول والداه أن يخرجاه من حالته المعنوية المتردية دون جدوى، أصر الابن أن يترك الجامعة، لم يعد يحتمل أن يشاهد أستاذ مادته ولا رئيس القسم مرة أخرى، أضرب عن

الدراسة لمدة أربعة أشهر قبل أن يعود إليها أكثر إصرارًا وحماسًا للحصول على درجات مرتفعة، الأسبوع قبل الماضي احتفل ابن زميلي بتخرج ابنه رسميًا وحصوله على درجة البكالوريس في الهندسة الميكانيكية، هنأت والده والفرحة تملأ صدره وصوته، وتذكرنا معًا المرارة التي تجرعها ابنه في البداية والتي كانت الشرارة وراء تفوقه ونجاحه في النهاية».

ويروى عن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتابًا أكثر من ثلاث مرات فلم يفهمه، فيئس منه وتركه، فرأى خنفسة تتسلق جدارًا وتقع، فعد عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تيأس، حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه، والانتهاء إلى حيث أرادت فقال:

لن أرضى أن تكون هذه الخنفسة أثبت منى وأقوى عزيمة، فرجع إلى الكتاب فقرأه حتى فهمه!.إن الخنفسة تحاكي في فعلها إصرار النملة..التي تحمل الإرادة والتصميم، فألهمت يومًا ذلك القائد البطاش (تيمور لنك) الذي كان محبطًا حزينًا بعد هزيمته، حين رآها تصعد على صخرة ملساء ثم تسقط إلى أن نجحت بعد المحاولة السابعة عشرة .. وجاء دوره فحاول مرة أخرى واستطاع أن يعيد حكم أجداده.

وكما قيل: «إن الخلطة السرية لوجبة الفشل، هي أن تتوقف عن المحاولة بعد أول تعثر»..

إنها زلة وليست سقوطًا ؟ !

نشأ (أبراهام لينكولن) في أحد مزارع (هودجن فيل) بولاية (كنتاكي) وفي سن التاسعة رحلت أمه عن الحياة وتزوج أبوه، الذي كان فقيرًا معدمًا لم يستطع تحمل نفقته الدراسية التي قضى منها عامًا، فيخرج (لينكولن) منها ويعمل في أحد المزارع القريبة، كي يساعد والده الفقير..

ورغم هذه العوائق والعمل من أجل تحصيل قوت الأسرة، كان (أبراهام لينكولن) محبًا للتعلم والثقافة، وكان نهمًا في القراءة، يقرأ كل ما يقع تحت يديه من الكتب والمراجع الكبيرة، وتثقف في القانون إلى أن أصبح محاميًا وحظي بعضوية نقابة المحامين.. ودخل معترك السياسة، ووضع منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية هدفًا يسعى إلى تحقيقه.!.

لم يكن (لينكولن) واسع الخيال أو جامح الطموح، وإنما كان يعرف قدراته ويؤمن بها، كما كان حكيمًا بصيرًا سديد الرأي، يدرك تمامًا معنى الحياة، ويعرف ماهية الإنسان، وهو ما أهله للنجاح والظهور، وتحقيق مآربه في الحياة..كان أبرز ما يُميزه هو كيفية تعامله مع الفشل والعثرات.. فقد كان يرى أن الطريقة المثلى أن تبدأ من جديد!! في الوقت الذي ينهار فيه الكثيرون ممن تسود

الدنيا في أعينهم حينما يفشلون، ويظنون أن أقدارهم البئيسة لا يمكن تجاوزها لحالة أفضل وصورة أجدى!.. وإياك أن تظن أيها القارئ أن (أبراهام لينكولن) هو ذلك الرجل الناجح المحظوظ، الذي لم تعرف حياته الفشل يومًا، وكان ينال منها كل ما يريد ويشتهي دون عقبات أو مصاعب؟!

إن العثرات التي مُني بها في طريقه كانت كثيرة، والعقابيل التي اعترضته كانت كبيرة، لكنه أبدًا لم ينظر إليها كما ينظر البعض بأنها السقوط والنهاية.. كانت هناك حياة حافلة بتجارب فاشلة وأحداث حزينة، قبل تحقيق هذا الإنجاز العظيم.

ففي عام ١٨٣١ فشل (لينكولن) في مجال الأعمال.

وفي عام ١٨٣٥ رحلت خطيبته عن عالم الأحياء.

وفي عام ١٨٣٦ يواجه لينكولن انهيارا عصبيا.

وفي عام ١٨٤٣ خاض انتخابات الكونجرس وفشل..

وفي عام ١٨٤٨ يدخل سباق الانتخابات مرة أخرى ويفشل..

وفي عام ١٨٥٥ خاض انتخابات مجلس الشيوخ ويخسر..

وفي عام ١٨٥٦ خاض انتخابات نائب الرئيس وفشل أيضا..

وفي عام ١٨٥٩ خاض انتخابات مجلس الشيوخ مرة أخرى وينهزم..

وفي عام ١٨٦٠ انتخب لينكولن رئيسا للولايات المتحدة

الأمريكية.!. ويتحقق الحلم وينتصر وينجح بعد طول إخفاق.!.

وهكذا أكثر من مرة يعترضه الفشل، لكنه لا يُحبَط، ليقينه أن هذه طبيعة الحياة، ويمكن تجاوزها لأفضل منها، كان يؤمن أن الإخفاق لا يعني النهاية..وأن الحياة مازالت مستمرة تدعو للتجربة مرة ثانية»..وحينما رشح نفسه لانتخابات مجلس الشيوخ عن ولاية (الينوي) خسر الانتخابات أمام المرشح المنافس (دوجلاس) بـ ٤٦ صوتًا مقابل ٥٤ صوتًا لمنافسه، ويوم ظهور النتيجة عاد إلى بيته ماشيًا في الطرق المظلمة، إلا أنه تمالك نفسه وشد جسمه العملاق وهو يقول لنفسه بصوت مسموع: إنها زلة وليست سقوطًا!

مشيرًا بذلك إلى تعرضه للسقوط على الأرض وإلى هزيمته أيضًا أمام منافسه في الانتخابات، وحققت الأيام نبوءته، فلقد ذاع اسمه في البلاد بسبب مظاهراته مع منافسه في هذه الانتخابات التي خسرها وبدأ كثيرون يطالبونه بالترشح للرئاسة، وفاز بترشيح الحزب الجمهوري له لانتخابات الرئاسة، وخاض المعركة بالفعل وكان خصمه الأساس فيها هو (دوجلاس) نفسه الذي هزمه في انتخابات الشيوخ، ولكنه انتصر عليه هذه المرة، وتحقق ما وصف من قبل بأنها كانت زلة، ولم تكن سقوطًا ولا فشلًا نهائيًا.

ويصف لنا أحد الأدباء طبيعة أصحاب النجاح فيقول:

«الناجحون الحقيقيون هم الأشخاص الذين يحتفظون بقدرتهم على الحماس للحياة حتى النهاية، والذين يحددون أهدافهم بوضوح ويسعون وراءها بدأب كما يسعى القط وراء الفأر الذي يطارده..ذلك أن من يعرف ما يريد لا تهزه الصدمات، ولا يفقده الفشل شجاعته وإيمانه بربه ونفسه وقدراته، وإنما يحفزه الفشل إلى تكرار المحاولة مرة بعد مرة أخرى أملًا في بلوغ الأهداف»(٣٨).

ومن أجل هذا استمر (لينكولن) ونجح وحقق أهدافه..حينما توهجت نفسه بالأمل، وشعّت بالتفاؤل..أما اليائسون المحبطون ضعاف النفوس..

فلا حياة لهم مع أول عاصفة تعترضهم فتمزق حاضرهم ومستقبلهم!.

❃❃❃

38 سلامتك من الآه – عبد الوهاب مطاوع.

القوة الحقيقية

أدركت مع الأيام، أن القوة الحقيقية للإنسان، لا تكمن في جسده أو عضلاته أو ضخامته..وإنما تقاس قوته في تماسك نفسه، وصمودها أمام عوادي الزمن ومحن الأيام..وبكل سهولة يستطيع الإنسان أن ينهي حظه في الحياة لو أنه خار لمحنة أو مصاب..وهذا هو الضعف بعينه..

ألا إن الأقوياء الحقيقيين من يقهرون العجز ولا يسمحون لكلماته أن تعرف لهم سبيلًا..» فهناك المكفوفون الذين دخلوا التاريخ ولم يستسلموا للعجز، وهناك القعيد الذي حرك العالم، وهناك الفقير الذي وصل إلى المجد، وهناك المغترب الذي جعل الدنيا كلها موطنًا له وسكنًا، هناك الفاشل الذي حول الفشل إلى نجاح باهر، هناك المتعثر..الذي استطاع أن يصنع الحياة»(٣٩).

فكن قويًا، وتعرف إلى معنى القوة الحقيقية، ودرب نفسك على الثبات والصمود والتماسك أمام المشكلات والعقبات.

وما بين اليأس والرجاء والتماسك والانهيار، يكون الفرج قريبًا من صاحبه، لو أنه تأمل وتريث ونظر في حاله بإمعان، لكن الكثيرين يُعميهم سواد الهموم عن رؤية النجاة وسُبلها..لا تجزع..

---

39 حياة بلا إحباط – محمد السيد.

ابتسم.. تفاءل.. تأمل دومًا في حالك وخاطب خواطرك، واجعل نصب عينيك قول الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ (٢١٦)﴾ [البقرة]

ابحث فيما أصابك من بلاء..أين يختفي فيه مكمن الخير؟! فإذا لم تجد شيئًا فتفاءل، لعل الله تعالى يُوجد لك مخرجًا قريبًا..

هذه قصة طريفة عن المزارع الهولندي (فان كلويفرت) الذي هاجر إلى جنوب أفريقيا للبحث عن حياة أفضل.. وكان قد باع كل ما يملك في هولندا على أمل شراء أرض أفريقية خصبة يحولها إلى مزرعة ضخمة، وبسبب جهله وصغر سنه، دفع كل ماله في أرض جدباء غير صالحة للزراعة.. وليس هذا فحسب بل اكتشف أنها مليئة بالعقارب والأفاعي والكوبرا القاذفة للسم.!.

وبينما هو جالس يندب حظه، خطرت بباله فكرة رائعة وغير متوقعة.. لماذا لا ينسى مسألة الزراعة برمتها ويستفيد من كثرة الأفاعي حوله لإنتاج مضادات السموم الطبيعية؟!.. ولأن الأفاعي موجودة في كل مكان، ولأنه ما من أحد غيره متخصص بهذا المجال، حقق نجاحًا سريعًا وخارقًا بحيث تحولت مزرعته فيما بعد إلى أكبر منتج للقاحات السموم في العالم!.

وهكذا ينقلب الحظ، وتختلف الوقائع والنتائج بمجرد الإعراض

عن العواقب السلبية، والبحث عن مخرج وتغيير وجهة الأهداف وربما الأماكن.

وهي تفيد المحبطين الذين يواجهون ظروفًا مؤلمة وأوضاعًا كئيبة، لا يظنون يومًا جلاءها..قد تغلق بعض أبواب الحياة في وجهك..لكن هذا لا يعني أن الحياة نفسها ترفضك، أو أبوابها جميعًا قد أغلقت.!.

فلعل هناك أبوابًا أخرى تناسبك للدخول منها، فابحث عنها حتى تجدها..ولا تقف حزينًا عابسًا أمام صدمة الباب الأول..

وهو ما حدث لأحد الأثرياء في أمريكا والذي تقدم في بداية حياته ويوم أن كان فقيرًا لشركة (مايكروسوفت) لشغل وظيفة فراش، وبعد إجراء المقابلة والاختبار في تنظيف أرضية المكتب، أخبره مدير التوظيف بأنه قد تمت الموافقة عليه، وسيتم إرسال قائمة بالمهام وتاريخ المباشرة في العمل عبر البريد الإلكتروني.

أجاب الرجل: ولكنني لا أملك جهاز كمبيوتر ولا بريدًا إلكترونيًا!

رد عليه المدير (باستغراب): من لا يملك بريدًا إلكترونيًا فهو غير موجود أصلًا، ومن لا وجود له فلا يحق له العمل، ولا وجود له في مايكروسوفت..

خرج الرجل فاقدًا للأمل في الحصول على وظيفة، ولكنه فكر كثيرًا ماذا عساه أن يعمل وهو لا يملك سوى ١٠ دولارات.

بعد تفكير عميق ذهب الرجل إلى محل الخضار وقام بشراء صندوق من الطماطم ثم اخذ يتنقل في الأحياء السكنية ويمر على المنازل ويبيع حبات الطماطم، نجح في مضاعفة رأس المال وكرر العملية نفسها ثلاث مرات إلى أن عاد إلى منزله في اليوم نفسه وهو يحمل ٦٠ دولار، أدرك الرجل بأنه يمكنه العيش بهذه الطريقة فاخذ يقوم بالعمل نفسه يوميًا يخرج في الصباح الباكر ويرجع ليلًا.

أرباح الرجل بدأت تتضاعف فقام بشراء عربة ثم شاحنة حتى أصبح لديه أسطول من الشاحنات لتوصيل الطلبات للزبائن، بعد خمس سنوات أصبح الرجل من كبار الموردين للأغذية في الولايات المتحدة!.

ولضمان مستقبل أسرته، فكر الرجل في شراء بوليصة تأمين على الحياة فاتصل بأكبر شركات التأمين، وبعد مفاوضات استقر رأيه على بوليصة تناسبه، فطلب منه موظف شركة التأمين، أن يعطيه بريده الإلكتروني.

أجاب الرجل: ولكنني لا أملك بريدًا إلكترونيًا..

رد عليه الموظف (باستغراب): لا تملك بريدًا إلكترونيا ونجحت

ببناء هذه الإمبراطورية الضخمة؟! تخيل لو أن لديك بريدًا إلكترونيا! فأين ستكون اليوم؟

أجاب الرجل بعد تفكير: فرّاش في مايكروسوفت!.

لقد اختلف حظه وتحولت حياته للأفضل حينما ظن أنه أخفق!.

وعلى دربه يأتي هذا الشاب الذي «كانت أمنيته الوحيدة دخول كلية عسكرية معينة.. وتقدم لدخولها عدة مرات دون فائدة (وفي المرة الوحيدة التي تلقى فيها قبولًا مبدئيًا، لم يوفق في تجاوز امتحانات القبول).. ورغم حالة الإحباط التي أصيب بها إلا أنه – مثل المزارع الهولندي – حينما حول وضعه البائس إلى نجاح خارق من خلال تجارة الملابس التي يعرفها جيدًا.. واليوم؛ في حين لا تتجاوز رواتب أقرانه - من العسكريين والمدنيين - بضعة آلاف بالشهر، يدير هو تجارة تقدر بالملايين!.

وقصة تجارة الملابس تماثل قصة اكتشاف وظهور بناطيل الجينز.. ففي عام ١٨٥٠هاجر آلاف الرجال إلى كاليفورنيا بعد اكتشاف كميات كبيرة من الذهب هناك.. وكان من بين هؤلاء خياط ألماني مهاجر يدعى (أوسكار شتراوس) فشل في اكتشاف شيء وانحدرت به الحال لدرجة التضور جوعا، وفي لحظة يأس قرر تمزيق خيمته ذات اللون الأزرق وخاط منها سراويل شديدة

التحمل أطلق عليها اسم «شتراوس جينز»، وبسبب متانتها العالية ومناسبتها لأعمال المناجم أقبل على شرائها معظم العمال فازدهرت تجارته وأصبح أغنى من أي منقب هناك!..

والآن أيها الشاب .. توقف عن ندب حظك السيئ، وقم لتحويل(خيمتك) إلى منجم ذهب»(٤٠).

غضب أحد الآباء غضبًا شديدًا، لأن ولده لم يحصل في الثانوية العامة على مجموع يؤهله لكليات القمة، ودخل ولده تلك الكلية المتواضعة كباقي الطلاب، ولكنه تفوق واستطاع أن يحصل على الدكتوراه، وصار من أساتذة الجامعة الذين يشار إليهم بالبنان..

فهل زال حزن ذلك الوالد أم أنه الآن يستخف بما كان منه؟!

والصورة نفسها تُذكرني بهذا الفلاح الذي وُلدت له أنثى، فظل وجهه مسودًا وهو كظيم، وشاء الله تعالى.. ومع الأيام أن يتعلم الدرس فيندم على أحزان الماضي والسخط على ما منحه الله، لقد كبر وشاخ ومرض، وبدلًا من أن يكون الصبيان والرجال في جواره يساعدونه ويقفون معه في محنته، لم يجد سندًا له في عجزه غير تلك التي استقبلها بالحزن والعبوس حينما جاءت إلى الدنيا.. وصار يُردد: إنها تعدل أبنائي جميعًا، بل كأنني لم أنجب إلا هي!.

40 من مقال للكاتب فهد الأحمدي- جريدة الرياض 7 يناير 8002م - العدد 14441.

وهكذا يقصر علمنا عن إدراك ما فيه خيرنا، تمامًا كما قصر إدراك (حليمة السعدية) حينما حملت رضيعا يتيمًا إلى البادية لم تجد غيره، وخجلت إن هي رجعت دون رضيع، فدفعها الإحراج أن تحمل هذا اليتيم الذي لا أب له ترجو مكافأته..

إنها لم تنل ما نال صويحباتها، ولم تجد بدًا من قبول هذا الذي تنكر له الجميع ليتمه..فقبلته مضطرة، وحلت البركة في دارها وحيها وقومها، وسرى ذكرها في جوف التاريخ، حينما سرى لبنها في جوف الرضيع المبارك ﷺ!.

إن الأقدار تحمل لنا كل خير، ولكننا لا نعلم ولا نبصر هذه المصائر القادمة، التي تريد منا أن نتعلم، فنتعامل مع المواقف بهدوء وثبات، فالواقع الذي يؤلمك قد يُخبئ لك سعادة ويحمل لك في طياته ما يفرحك.

في غمرة الحياة تحدث أشياء تضايقنا ولا ترضينا، تُغضبنا ولا تُبهجنا، تكدر صفاء عيشنا وتمحو البسمة من وجوهنا، ولكنها رغم ذلك.. قد تحمل لنا في طياتها مالا نعلمه من الخير والبر والسلامة، ويصير الإنسان بعد مضي الأيام يتعجب من حاله، ويخجل مما كان عليه، إذ كيف قابل بالحزن والأسى سبب فرحه وسروره؟!

كيف أساء به الظن وقابل وروده بعبوس؟!

إن الحياة تعلمنا دروسًا كثيرة، وأولها أن نرضى بقضاء الله، وأنه لا يحمد على مكروه سواه، وأن المصيبة مهما عظمت، فإن رياح الفرج قد تهب من سمائها!.

إن الغلاف الأسود لا يعني سواد الكتاب..ولكنه غشاء قاتم يخفي وراءه بياض الصفحات!.

(والاس جونسون) ذلك الشاب الأمريكي الذي بدأ مسيرة حياته العملية بالالتحاق بورشة كبيرة لنشر الأخشاب..التحق بها في مقتبل حياته وقضى فيها أحلى سنوات عمره.. استغل قوته وشبابه وأظهر بها كفاءةً ونجاحًا كبيرًا، وكان قويًا قادرًا على الأعمال الخشنة، يعمل بجد ويبذل أقصى ما في وسعه، وصار من أفضل العمال فيها.

توالت نجاحات هذا الشاب، وصار القاصي والداني يتعجبون من قدرته الفذة التي جعلت الجميع يثنون عليه ويمتدحونه، ويتمنون لو أنهم لديهم مثل قدراته العجيبة هذه..

وكانت اللحظة الفارقة التي غيرت مجرى حياته، حين بلغ سن الأربعين حيث كان في أوج مجده وكمال قوته، وصار له شأن يُذكر في هذه الورشة التي قضى فيها سنوات طويلة من عمره.. إذ فوجئ

(والاس) برئيسه في العمل يُخبره أنه مطرود من الورشة..وعليه أن يُغادرها نهائيًا بلا عودة، ودون أن يُبدى أسبابًا، أو يُعلمه لماذا اتخذ هذا القرار؟.. هل خاف رئيسه على مكانته، وخشي أن يصبح والاس فى موقعه يومًا ما؟!..وخاصة أن والاس كان يحظى بحب الجميع واحترامهم..ربما!

استجاب لأمر رئيسه، ولم يكن يملك غير ذلك، ولملم كل أشيائه، وحزم أمتعته وخرج من الورشة حزينًا.. اسودت الدنيا أمام عينيه.. صار بلا هدف.. بلا أمل..بدأت الأفكار تدور في ذهنه.. أخذ يتذكر تلك اللحظات التي قضاها.. تحسر على كل هذه السنوات الطويلة التي قضاها في ورشة الأخشاب.. هل ضاع كل هذا الجهد؟ هل تبخرت كل الآمال في لحظة؟!

أصابه الإحباط واليأس والضجر..أحس كما قال: وكأن الأرض في تلك اللحظة، قد ابتعلتني وغُصت في أعماقها المظلمة الحالكة.

لقد أُغلق في وجهه باب الرزق الوحيد الذي كان يعتمد عليه ويعول منه أسرته، وكانت قمة الإحباط والأسى لديه أن يتذكر أن هذه الورشة هي مورد الرزق الوحيد لديه ولدى زوجته، إنه لا يدرى ماذا سيفعل؟ وإلى أين سيتجه؟ وكيف سيدبر أمره؟

قرر أن يذهب إلى البيت ويخبر زوجته بما حدث ويُحاول التفكير

بهدوء حتى يجد مخرجًا من هذا المأزق الذي تعرض له..وبالفعل ذهب إلى بيته وأخبر زوجته بكل ما حدث، فقالت له في حيرة وحسرة: ماذا سنفعل يا والاس؟

فقال لها بعد لحظات من التفكير: سأرهن البيت الصغير الذي نعيش فيه وسأعمل في مهنة البناء.

ولم يُضيع والاس وقتًا كثيرًا، وبالفعل قرر بعزم وإصرار أن يتغلب على محنته، وأن يقف على قدميه سريعًا ويواصل سيره.. وبدأ مشروعه الأول، وكان عبارة عن بناء منزلين صغيرين بذل في بناءهما جهدًا جهيدًا وقدم كل ما يقدر عليه من مجهود ووضع خلاصة خبراته فيهما.. وأظهر نجاحًا فائقًا في أول بداية له.

ومن هنا كانت الانطلاقة..ثم توالت المشاريع الصغيرة وكثرت، وأصبح مُتخصصًا في بناء المنازل الصغيرة، ولم يلبث إلا أن اشتُهر أمره وصار معروفًا بين أهل ضاحيته وذاع صيته في كل الأرجاء..

وبعد مرور خمسة أعوام فقط، صار مشهورًا جدًا بعد النجاحات المتواصلة والجهد المتتابع وأصبح مليونيرًا معروفًا..

نعم إنه (والاس جونسون) الرجل الذي أنشأ وبنى سلسلة فنادق « هوليداى إن »... وأنشأ عددًا لا يُعد ولا يُحصى من الفنادق وبيوت الاستشفاء حول العالم.

يقول هذا الرجل في مذكراته الشخصية:

«لو علمت الآن.. أين يقيم رئيس العمل الذي طردني، لشكرته شكرًا عميقًا لأجل ما صنعه لي، فعندما حدث هذا الموقف الصعب تألمت جدًا؟ أما الآن فقد فهمت أن الله شاء أن يغلق في وجهي بابًا، ليفتح أمامي طريقًا أفضل لي ولأسرتي».

لا تحسبوه شرًا لكم

وأزيد ما سلف حديثًا فأقول : إن الخير الوفير قد يرتدي ثوب الشر خداعًا فيهولنا أمره ..وما تلبث رياح الأيام أن تخلع عنه ما تظاهر به لتستقر حقيقته واضحة مبهجة.!

أما قلوبنا.. فما عليها إلا أن تكون هادئة مطمئنة ..فما أصابنا لم يكن ليخطئنا وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا.. وأعود لأقرر: أن المنحة قد تولد من رحم المحنة.. وأن الفزع يسابق الإيمان في استقراء بوارق الأمل والسعادة في ظلمة الهموم الغاشمة.الله تعالى في أمر القتال:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) [البقرة]

ويذكر المفسرون: «إن القتال إنما كان مكروها للنفوس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف، وإزهاق الأرواح والإنسان ميال بطبعه إلى الحياة، وأيضًا لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل، والحيلولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد، ومشتقات تتلوها مشقات، ومع هذا إذا ما نظرنا إلى عاقبته ونتائجه، فهي

العز في الدنيا والسعادة في الآخرة، وقد قال ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا»(٤١).

ويفيدنا الإمام (ابن القيم في) كتابه الفوائد بتأمله للآية الكريمة فيقول: «في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد؛ فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة، لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها مالا يعلمه العبد، وأوجب له ذلك أمورا منها أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الابتداء؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهى وإن هويته نفسه ومالت إليه، وإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب»(٤٢).

وفي الحاشية اللطيفة التي وضعها الشيخ (عبد الفتاح أبو غدة) رحمه الله على رسالة المسترشدين للحارث بن أسد المحاسبي، ذكر حادثة عجيبة أخبره بها أحد الضباط العسكريين الصادقين، الذين كانوا في الجيش العثماني في الحرب العامّة الأولى، فقال له: «إنهم استعدوا مرةً لمعركة يتوقعونها مع الأعداء، وأخذ كل

41 أخرجه الطبراني بإسناد حسن عن أبي بكر رضي الله عنه.
42 الفوائد لابن قيم الجوزية- دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 3931/ 3791، ص 731.

ضابط وجندي منهم موقعه، وحفر حفرة وحصنها على ما قدّر ما استطاع، فمر القائد بهم ليشاهد تحصناتهم ومواقعهم، فأعجبه موقع واحد منهم بتحصنه وتمكنه، فقال للذي فيه : تحوّل عنه، وأقام فيه واحدًا من أحبائه وأعزائه.

فتحول صاحبه عنه مكرهًا ساخطًا، ولما دارت رحى المعركة، وصب العدو نيران مدافعه، جاءت قذيفة كبيرة فنزلت في الموضع الذي تحول منه صاحبه، وذهبت بعزيز القائد من أول ساعة، وسَلم ذاك وعاش إلى آماد بعيدة، فسبحان الذي لا يُغلَب قضاؤه وحفظه».

وكان الإمام العابد المجاهد (بديع الزمان سعيد النورسي) تحدث له كثيرًا من الكرامات التي تتعجب لها كما تعجب لها من حوله، وهنا نحكي واحدة منها ونتعجب لها كما تعجب من حوله ..لكن جاء نفيه لها أن تكون كرامة وإنما كانت أمرًا ملحًا فرض عليه هذا التصرف.

يقول أحد تلاميذه والمرافقين له فقال:» عندما كنا ننقل من سجن (قسطموني) إلى سجن (دنيزلي)، كان الوالي (نوزاد دوغان) وأعوانه من رجال الأمن في استقبالنا يترصدوننا في محطة القطار، وكأنما كانوا ينتظرون إنزال العقاب على الأستاذ حالما يرونه متلبسًا بجريمة مشهودة وهي لبس العمامة، وعدم لبس القبعة.

ولكن الأستاذ في هذه الأثناء حل لفافة رأسه ثم ركب القطار، فتعجب الوالي وأعوانه من هذا العمل كثيرًا، وصاروا يتساءلون فيما بينهم :

كيف علم بأننا كنا نريد القبض عليه متلبسًا بهذه الجريمة المشهودة؟!.. وهكذا نجا الأستاذ بعمله هذا من شر متوقع كانوا قد دبروا له من قبل، ولما سئل الأستاذ عن ذلك أجاب:

لم تكن كرامة بل كان انتصار برغوث على وال!.

أي عندما ركب القطار دخل برغوث في لفافة رأسه (عمامته) فضايقه ذلك مما اضطره إلى حل اللفافة حالًا.. إن عبث البرغوث وإن كان مملًا إلا أنه بهذا العبث وفر عليه جناية كانت في انتظاره يدبرها له أعداؤه في السر والكتمان.

وقد يكون في الخير شر! فأسرة الأديب والمؤرخ الكبير (أحمد أمين) كانت من الأسر التي فرت من الضرائب الباهظة وجباتها الظالمين شأنهم في ذلك شأن كثير من الأسر في ذلك الوقت فالضرائب لم تكن منظمة ولا عادلة ..ومن لم يدفع تباع بهائمه وأثاث بيته ويضرب بالكرباج ويعذب عذابًا أليمًا.. وأمام هذه المحنة والصورة المؤلمة وما تبعثه من الأسى الكبير إلا أن (أحمد أمين) يعتبرها خيرًا له، ويعدها من ألاعيب القدر الذي هيأه لما

أصبح عليه فيقول:» لولا ذلك لنشأت فلاحًا مع الفلاحين أزرع وأقلع، ولكن تتوالد الأحداث توالدًا عجيبًا، فقد ينتج أعظم خير من أعظم شر، كما ينتج أعظم شر من أعظم خير، ولا تستبين الأمور حتى يتم هذا التوالد ويظهر على مسرح الكون»(٤٣).

وصدق (أحمد أمين) فقد ينتج أعظم شر من أعظم خير.! وقد رأيت مثل هذا في سيرة الكاتبة الإنجليزية الشهيرة (أجاثا كريستي) التي روت في مذكراتها عن أمها قصتها المؤلمة فقد سقط أبوها الضابط عن حصانه فأصيب إصابات بالغة وتوفي متأثرًا بجراحه، وترك وراءه أرملة شابة في السابعة والعشرين من العمر وأربعة أطفال صغار، وكيف عرضت عليها شقيقتها المقيمة في شمال إنجلترا والمتزوجة من رجل أمريكي ثري، أن تضم إليها أحد أطفالها لترفع عنها بعض أعبائها فاختارت الأرملة الحزينة البنت الوحيدة من بين أبنائها لكي تنتقل إلى كفالة خالتها وتكون تحت رعايتها تنفق عليها وتربيها.

وبعد عشرات السنين تكتب (أجاثا كريستي) هذه الحادثة في مذكراتها وتقول: إنه على الرغم من أن دوافع الجدة الأرملة لاختيار أمها للانتقال إلى حضانة خالتها الثرية دون إخوتها الذكور كانت واضحة، وهي أن الذكور يستطيعون تدبير حياتهم

43 حياتي لأحمد أمين.

والاعتماد على أنفسهم بأسرع مما تفعل الفتيات، إلا أن ابنتها – أم أجاثا – قد فسرت ذلك كطفلة بأن أمها إنما تهتم في الواقع بالذكور وتفضلهم عليها، لهذا فقد احتفظت بهم في حضانتها وسلمتها هي وحدها إلى الخالة الثرية، وغادرت الطفلة بيتها في جرسي إلى بيت خالتها في شمال إنجلترا وفي أعماقها ألم شديد لإحساسها القاتل بأنها « غير مرغوب فيها « من جانب أمها.

وعاشت طفولة تعيسة في بيت خالتها، رغم التعليم الأفضل والحياة الأرقى، وراحت تبكي كل ليلة في فراشها وتدهورت صحيًا حتى جاءتها خالتها بطبيب عجوز فحصها، وتحدث إليها طويلًا ثم قال لخالتها بحزم : إن الصغيرة تعاني من مرض واحد فقط هو مرض « الحنين إلى الوطن « أي إلى الأسرة التي نشأت فيها، وإلى أمها وأشقائها وبيتها الخاص وذكرياتها فيه !

وتعجبت الخالة الثرية لذلك كثيرًا فالصغيرة هادئة ومهذبة ولا تشكو من شيء، وهي تحبها وترعاها وكذلك يفعل زوجها الأمريكي العجوز، فما سبب هذا الذبول والانكسار؟.

وقد واصلت الطفلة حياتها رغم ذلك في بيت خالتها حتى كبرت وتزوجت من ابن خالتها الأمريكي وأنجبت منه عدة أطفال كان من بينهم من قدّر لها أن تصبح أشهر كاتبة روايات بوليسية على مر

التاريخ، ومع ذلك فقد ظلت الأم كما قالت ابنتها» تحمل في نفسها « لأمها الاتهام الصامت بأنها قد تخلّت عنها دون إخوتها الذكور حتى ماتت وهي فوق الثمانين !

لقد أرادت الأم بابنتها خيرًا، لكن من جهة أخرى أمرضتها وأشعرتها بالكآبة وتركت في نفسها جرحًا لم يندمل مع الأيام حتى تخطت الثمانين.

تستطيع النفس أن تتحمل هذا الشر الذي يعقبه الخير..لكنها تكون أكثر معاناة وصدمة من هذا الذي تراه وتظنه خيرًا فإذا به مطية للشر والهلاك..وجميعنا يعرف ويسمع عن طاعون الكوليرا المدمر الذي ضرب مصر وراح ضحيته خمسون ألفًا من مواطنيها، لقد حصد أرواح الناس كبيرهم وصغيرهم، وكان ذلك بداية من عام ١٩٠٢م.

ولكن هل تعلم كيف انتشر هذا الطاعون بمصر؟

لقد كان نتيجة حب الخير والرغبة في توزيع البركة..تبدأ القصة بعودة أحد حجاج قرية (موشا) من أعمال أسيوط من البلاد المقدسة بعد تأديته لفريضة الحج، وكان الرجل قد أحضر معه زجاجة من ماء زمزم، وعندما توافد عليه طلاب البركة،وأراد ألا يحرم منهم أحدًا، ألقى الزجاجة في أحد آبار القرية، وكانت

الزجاجة قد تلوثت بمكروب الكوليرا، ومن ثم انطلق الداء القاتل من هذه البئر إلى أنحاء القطر وبخاصة الصعيد الأوسط.

إن نيته كانت حسنة، إذ ظن أنه يوزع عليهم بركة زمزم بالعدل والإنصاف، فلا يعطي أحدا ويمنع آخرين أو يميز طرفًا ويترك آخر، ولكنها كانت فعلة مدمرة.

وقد أثارت الفاجعة قريحة شوقي أمير الشعراء فنظم قصيدته وأشار فيها للمأساة بقوله:

لهفي على مهج غوال غالها
خافي الدبيب محجب الأظفار
خمسون ألفًا في المدائن صادهم
شرك الردى في ليلة ونهار
ذهبوا فليت ذهابهم لعظيمة
مرموقة في العصر، أو لفخار
فالموت تحت ظلال موشا رائع
كالموت في ظل القنا الخطار

ومما تأسى له أسرتنا ..أن جدتي لأبي رحمها الله، كانت واحدة من ضحايا هذا الطاعون المميت..وكان أبي يقص علينا كيف كانت معاناتها وألمها في مرضها العصيب الذي لاقته بصبر وإيمان، وكيف كان يراها وهو صغير لا يملك أن يصنع لها شيئًا؟ ولا يستطيع أن

يخفف عنها ألمها حتى ماتت ورجاها من الشهداء.

ويااليت هذا الرجل الكريم المفضال ما أقدم على فعل هذا الخير الذي جر على البلاد والعباد بلاءً ساحقًا..ولكنها الأقدار.

وفي ميدان الرزق قد تكون فقيرًا تطمح نفسك للغنى وجمع الثروات والعقارات والأراضي الشاسعات، فإذا أتاك ما تمنيت نسيت وغفلت ولم تشكر ربك على ما وهبك.. وقد تكون غنيًا فإذا أصابك الفقر والإفلاس صرت لعنة على الدنيا ومن فيها، تشقي نفسك وتشقي من حولك، فهي إذن أقدار الله تعالي يدبرها بحكمته وعلمه..

«إن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم إني عليم خبير»(٤٤).

فكل أمرٍ صرِف عنك فاعلم أنّ لله حكمةً في صرفه عنك، وأيّ شيء قدِّر لك فاعلم أنّ لله حكمة في تقديره لك.

44 أخرجه الطبراني عن أنس، ورواه بإسناده ومتنه في معالم التنزيل ج4 ص 48، ط دار المعرفة 7041.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧) [الشورى]

قال ابن كثير: أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر، كما جاء في الحديث المروي: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه.»

« كم من عبد يُسلط الله عليه البلاء بالهم والغم والنكد؛ لأن الله يعلم أنه لو كان في عافية لطغى وبغى، فيلطف الله به من حيث لا يشعر، ويقاد إلى الجنة بالسلاسل، بالهموم، بالغموم، بالنكبات، بالفجائع»(٤٥).

وقد قيل: «ليسَ المهمّ أن يكثرَ المال ويتّسِع الغنى، المهمّ أن يجعلَ الله في قلبك قناعةً ورضًا بِقَسْم الله، وأن تطمئنَّ نفسك بذلك، فكم من مالٍ أشغل أهلَه عمّا يجِب عليهم، وصدَّهم حتى عن مصالحِ أنفسهم ومصالح أولادهم، وكم من مالٍ أشقى أهلَه، فحملهم على الطغيان والأشَر والبطر، وأفقدهم قوّة الإيمان، وجعلهم يشتغلون بالحطام الفاني عمّا فيه خيرُهم وصلاحهم في دينهم ودنياهم».

---

45 رسالة إلى مضطر – محمد المختار الشنقيطي

لا تحبط نفسك!

يقول بشار بن برده وهو يواجه خصومه الذين عيروه بعماه:

وعيرني الأعداء والعيب فيهم

وليس بعار أن يقال ضرير

إذا أبصر المرء المروءة والتقى

فإن عمى العينين ليس يضير

رأيت العمى أجرًا وذخرًا وعصمة

وإني إلى تلك الثلاث فقير

وهذه الحالة المتفائلة الراضية، كانت على خلاف حالة أخرى رأى صاحبها أن ذهاب عينيه يعني ذهاب الحياة..

إنه صالح بن عبد القدوس في قوله:

عزاءك أيها العين السكوبُ

ودمعك إنها نوب تنوبُ

وكنتِ كريمتي وسراج وجهي

وكانت لي بك الدنيا تطيب

فإن أك قد ثكلتك في حياتي

وفارقني بك الإلف الحبيب

فكل قرينة لا بد يومًا

سيشعب إلفها عنها شعوب

على الدنيا السلام فما لشيخ
ضرير العين في الدنيا نصيب
يموت المرء وهو بعدُ حيًا
ويخلف ظنه الأمل الكذوب
يمَنيني الطبيب شفاء عيني
وما غير الإله لها طبيب
إذا ما مات بعضك فابك بعضًا
فإن البعض من بعض قريب

إن المصيبة واحدة..ولكن استقبالها وتلقيها يختلف من شخص لآخر!.. فبشار.. حينما فقد عينيه، رُزقت نفسه قوة ويقينًا على تحمل البلاء، وأدرك بأن الحياة لن تتوقف!. وأن لديه مواهب أخرى لا يمكن أن يهدمها بفقد واحدة، أما (صالح بن عبد القدوس)، فإن نفسه الجريحة لم تتحمل المصيبة، ورأت أن العمى والموت سيان.. وأنه لا قيمة للحياة بذهاب العين، وهكذا النفوس..منها يكون الأمل، ومنها يكون اليأس..منها تكون الحياة، ومنها يكون الموت!.

لا تعول على من حولك في استجلاب السعادة، فأنت وحدك إذا رزقت الهدوء والثبات تستطيع الاهتداء إليها راضيًا مسرورًا.

تستطيع أن تحول المصائب إلى مكاسب، والمحن إلى منح، والشقاء إلى هناء..بيدك أن تسير بين الأشواك.. وأن تحقق الكثير مما كنت تراه عسيرًا.. فقط..رب نفسك على الثقة في قدراتها.. علمها أن تكون قوية عند الشدائد.. ألهمها الهدوء في وجه العاصفة.. حتى تستطيع البحث والتفكير.. فتهتدي إلى خيوط النور وآمال الخروج وسط العتمة الضيقة.

«ليس كل امرئ يُؤتى القدرة على تحويل قسمته المكروهة إلى حظ مستحب ذي جدوى، فإن عشاق السخط، ومدمني الشكوى أفشل الناس في إشراب حياتهم معنى السعادة إذا جفت منها، أو بتعبير أصح إذا لم تجىء وفق ما يشتهون.

أما أصحاب اليقين وأولو العزم من الرجال، فهم يلقون الحياة بما في أنفسهم من رحابة، قبل أن تلقاهم بما فيها من عنت.

وكما يفرز الجسم عصارة معينة لمقاومة الجراثيم الهاجمة، يفرز هؤلاء معانٍ خاصة تمتزج بأحوال الحياة وأغيارها، فتعطيها موضوعًا وعنوانًا جديدين.

واسمع إلى ابن تيمية رحمه الله وهو يقول مستهينًا بتنكيل خصومة: «إن سجني خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة»(٤٦).

46 جدد حياتك- الشيخ محمد الغزالي.

و النوازل على مرارتها قد تهيج عبير المواهب فتملأ الدنيا بعطرها الفواح..وهناك أناس نزلت بهم المحن، فغمست مشاعرهم في بوتقة الإبداع، فكان الجمال وكان الإبهار، بل كانت أكاليل الحسن التي توجوا بها وجودهم في الحياة..

يُسجن (سيد قطب) رحمه الله ويحكم عليه بالإعدام، وما تزيده المأساة إلا أملًا ألهب مشاعره فأبدع لنا في ظلال القرآن، الذي أمتع العلماء والمفكرين وأعجز الشراح والمفسرين.

وما زلت أذكر الشيخ الشعراوي رحمه الله في درسه، وهو في حالة من الهيام والاعتبار حينما يستشهد به ويقول: «قال صاحب الظلال عليه رحمة الله!».

وكان شيخنا (حسن أيوب) نور الله قبره، يقرأه ويتعجب ويقول في نفسه: كيف فهم هذا الفهم، وكيف عرف هذا المعنى؟!، ثم يتوجه إلى الله بالدعاء قائلًا: اللهم علمني كما علمته، وفهمني كما فهمته!..ولكنها صنيعة المحن.!.

لقد أجهدت نفسي في ذم المحبطين وصورت للقارئ ما يجترونه بفعالهم على الناس والمجتمع من هدم وتحطيم..وفي معرض تأملي لمواقفهم، تبين لي أن أبشع أنواع المحبطين وأكثرهم قبحًا.. أولائك الذين يحبطون أنفسهم، ويصدرون إليها التخاذل والانتكاس..

فماذا تفعل إذن لو كان الإحباط والتيئيس نابعًا من نفسك..نفسك أنت، ولم يصدره أحد إليك؟

هناك محترفون في إحباط أنفسهم، يهلكهم القلق والخوف، وتكيد لهم الوساوس حتى تقتل فيهم كل أمل أو طموح، «وأمثال هؤلاء لا يجزعون من أحزان تصيبهم فحسب، بل يجزعون من أحزان يتوقعونها، ويفترضون أن المستقبل قد يرميهم بها، وكم يجمح بهم الخيال، فيملأ حياتهم بأشباح الموت والدمار، ويوهمهم أنهم بين الحين والحين معرضون لهجوم من هنا وغدر من هناك!

والرجل الضعيف قد يفزعه المصاب ويشتت أفكاره، فبدلًا من أن يختصر متاعبه بمجابهة الواقع والاستعداد لقبوله، يسترسل مع الأحزان التي تضاعف كآبته ولا تغير شيئًا»(٤٧).

وهذه قصة تاجر اعتاد أن يعذب نفسه بهذه الأفكار فيقول:

«ماذا لو تصادم القطار الذي ينقل البضاعة؟ ماذا لو انهار جسر في اللحظة التي يمر القطار فيها؟..نعم إن البضاعة مؤمن عليها، ولكنه يخشى إن لم تصل الفاكهة في الوقت المحدد أن يفقد عملاءه، ولقد أجهد نفسه من فرط القلق، حتى قيل إليه أنه أصيب بقرحة في المعدة، فذهب إلى الطبيب، فأكد له الطبيب أنه سليم معافى، إلا من توتر أعصابه..قال (مستر جرانت):لقد أحسست عندما قال

47 المرجع السابق.

الطبيب هذا كأنما خرجت من الظلمات إلى النور، وأخذت أسأل نفسي؟ كم عربة من عربات البضاعة استخدمت في خلال العام المنصرم؟

وكان الجواب: نحو خمسة وعشرين ألف عربة، وعدت أسأل نفسي: كم من هذه العربات تحطم لسبب من الأسباب؟

وكان الجواب:خمس عربات..حينئذ قلت لنفسي:خمس عربات من خمسة وعشرين ألف عربة! أتدري ما معنى هذا؟

معناه أن معدل نسبة الخسارة هو عربة واحدة من كل خمسة آلاف عربة، فعلام القلق إذن؟!»(٤٨).

إن معظم ما يواجه الإنسان في حياته اليومية من مفارقات ومواقف، يستطيع إذا شاء أن يحزن لها ويكتئب..ويستطيع كذلك أن يضحك منها ويتعالى فوقها، وهو يكرر بذلك مثال الدلوين الشهير التي تحكي قصتهما: «أن دلوين كانا مربوطين بحبل ومعلقين على بكرة فوق بئر، فنزل أحدهما فارغًا وهو يتراقص كأنه يضحك متفائلًا، ويصعد الآخر ممتلئًا ويفيض منه الماء كأنه يبكي، والتقى الدلوان في منتصف الطريق، فسأل الدلو الراقص زميله الباكي:

48 دع القلق وابدأ الحياة ديل كارينجي.

لماذا تبكي؟

فأجابه وكيف لا أبكي وأنا أحمل الماء الثقيل بصعوبة وأصعد إلى أعلى، فيعدني صاحبي إلى ظلام البئر من جديد!

ثم سأل الدلو الباكي زميله: وأنت لماذا تتراقص؟

فأجابه: وكيف لا أتراقص وأنا أنزل إلى قاع البئر فأمتلأ بالماء العذب الصافي، وأصعد لأعلى فأستمتع بالضوء والشمس من جديد!

وهكذا نحن جميعًا..منا من يكرر مثال الدلو الراقص، ومنا من يكرر مثال الدلو الباكي المتشائم»(٤٩).

«إن التشاؤم ينشأ عن ضعف النشاط وضعف القوة العصبية، ووهن الرقابة العقلية في الإنسان، فيسمح لنفسه بأن تسبح في جو مظلم من الأوهام حتى يصبح عقله متلبدًا بغيوم لا حقيقة لها، ودخانٍ لا أصل له، وهي غيوم التطير ودخان التشاؤم.

أما الشخصية الحية القوية فإنها تتمسك بالتفاؤل وتلتزم الناحية السارة، يقودها الأمل ويحييها الرجاء، وتفكر في النجاح أكثر من الخيبة، وفي التقدم أكثر من التأخر، وتميل إلى جانب الثقة أكثر من الميل إلى جانب التردد، وتثق بما تقول وما تفعل ولديها كل علاج،

49 أعط الصباح فرصة – عبد الوهاب مطاوع.

وهي منبع النشاط والقوة»(٥٠).

هناك إيمان بأن سعادتك وتفاؤلك في الحياة ينبعان من نفسك، إن تولدت إليها بعض المهارات التي تمكنها من التعامل مع ما تواجه من مضايقات وسخافات، وهي حقيقة نفسية عرفها الحكماء قديمًا وفسرها علماء النفس حديثًا.. ففي الزمن القديم تروى حكاية (هيروقليطس) و(ديموفريدس) حينما كان كل منهما ينظر إلى سخافات الناس بنظرة تغاير نظرة صاحبه..

هيروقليطس كان متفائلًا ومن ثم كانت نظرته لأخطاء الناس فيه ومضايقاتهم وسخافاتهم له.. مجرد تفاهة لا يستحق إلا الضحك من أصحابها، أما الثاني فكان يجزع ويحزن ويكتئب..

«وحينما ظهرت مدرسة الدافعية في أمريكا وانتشرت كتبها، وهي كتب يحاول مؤلفوها أن يحسنوا حياة الإنسان ويحركوا دوافع الحياة والتقدم في دخيلته، ويعلموه كيف يحتفظ بشمسه الداخلية ساطعة طوال العمر، وكيف يستثمر حياته ووقته وقدراته أفضل استثمار..ويستمتع بجمال الأشياء والعلاقات الإنسانية..وكيف يحسن من طريقة تفاعله مع الحياة، ويزيد من جرعة الأمل والتفاؤل في وجدانه.. وقد لاقت هذه المصنفات رواجًا بين القراء الشباب والكهول على حد سواء..وصار لمؤلفيها جمهورًا وأتباعًا

50 الشخصية – لمحمد عطية الإبراشي.

يقرأون كتبهم ويشهدون محاضراتهم ويطبقون إرشاداتهم لتحسين مستوى تفاعلهم مع الحياة ويستمعون إلى تعليماتهم بصفة يومية..

وليس من الغريب أن تجد رجلا في السبعين من عمره يستمع إلى شريط لأحد مؤلفي هذه الكتب لكي يتبع إرشاداته حول ما ينبغي عليه أن يفعله، إذا زار مثلًا ابنه المتزوج في بيته وبين أسرته الصغيرة، أو إذا هجرته صديقته وتركته للوحدة والفراغ! فالجميع كبارًا وصغارًا سواء أمام الحاجة إلى تعلم فن الحياة السعيدة..وأمام الحاجة لمن يرشدهم إلى كيفية اكتشاف أنفسهم ومهاراتهم الاجتماعية، وكيفية تأجيج دوافعهم الذاتية للاستمتاع بالحياة»(٥١).

يقول الأديب الفرنسي الراحل (ألبيركامي):

«إنه من بين كل العلوم والفنون لم يجد فنًا أصعب في تعلمه من فن الحياة»

51 أعط الصباح فرصة – عبد الوهاب مطاوع – بتصرف.

اجعل من النقد محطة للانطلاق

قف واستمع وابتسم..أظهر قناعتك ورضاك بكل ما يقال لك..

انظر لناقدك كما لو كان شخصًا ينحي عنك ما لحق بثوبك من القذى..لا شك أنك ستحبه وتقدره وتشكر صنيعه.!.

فماذا تقابل من يدفع القذى عن نفسك وذاتك..لا من ثيابك؟!

فرق كبير بين من ينقدك ومن يحطمك.!.

النقد شيء جيد.. ويعده البعض تصحيح مسار، ومحطة ينطلقون منها لاستئناف مسيرتهم دون شوائب وعيوب..

بل هناك من يفرح به، حتى يُصلح مالا يراه في نفسه، وقد دعا عمر ﵁ لمن أهدى إليه عيوبه فقال: «رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي».

لقد جعل نقده له هدية منه، والهدية لا تهدى إلا لعزيز أو حبيب!. وهذه الروح العالية، لا يستسيغها الكثيرون، فقبول النقد يحتاج إلى تدريب، كما أن قبوله ليس ضعفًا أو فقدانًا للثقة.. بل هو الوعي والذكاء لمن يتخذه سبيلًا للكمال..أما إن تكون مغرورًا فترفض ما يقال لك وتنصح به، فإن الغرور يشوه النفوس، حتى وإن كان أصحابها عباقرة عظام..

وقديمًا كان الإسكندر المقدوني من هؤلاء العظماء الذين ظهر نبوغهم في شبابهم..

كان عقلية باهرة ماهرة..ذكية متميزة..يملك الكثير من أدوات القيادة الناجحة، ويحمل في رأسه فكرة توحيد العالم كله في دولة واحدة.. وهذه الفكرة هي الأساس الذي انطلق منه في معاركه، ليربط بين الشرق والغرب.. إن همته جسورة، ففي وقت ضئيل حقق نجاحًا عظيمًا وسيطر على العالم إلى أن مات في سن الثالثة والثلاثين..لكن مهما كانت العبقرية والنبوغ، فإن الإنسان لا يخلو من عيوب..وقد كان عيب الإسكندر كبيرًا وقادحًا، وربما لم يكن موجودًا فيه أو من خلاله.. وإنما أكسبه إياه ما حقق من نجاح وإنجاز، لقد كان يسعد بالتفاف المنافقين والمداهنين حوله.. الذين يزينون له ما تتمناه نفسه من معسول الكلام ومديحه..أما النقد فكان شيئًا مرًا عليه لا يطيقه حتى وإن كان من أقرب الناس إليه.!.

وكان الغضب يتربع على جنانه، إن وجه إليه نقد يمس نفسه أو يشير إلى عيب فيها!.

فيرتكب ما يندم عليه فيما بعد، وقد كان ندم الدنيا وحسرتها حينما صارحه أعز الناس من أصدقائه بما خالف إطراء المادحين ونفاقهم، إنها قصة مشهودة ذكرها المؤرخون، وكتب عنها الأديب

الكبير الدكتور (عبد الوهاب عزام) باشا فقال:

«بعد أن استولى الإسكندر على مصر والشام وآسيا الصغرى وفارس..ووصل إلى مدينة سمرقند في جمهورية أوزباكستان الآن، وهناك وقف ليرتاح في هذه المدينة وليريح جيوشه، وذات ليلة أقام مأدبة كبرى حضرها قواده الكبار، وكان أقربهم إليه صديقه القائد كليتوس الذي كان محاربًا شجاعًا، والذي كان له فضل إنقاذ الإسكندر من محاولة لاغتياله في إحدى المعارك، حيث استطاع في آخر لحظة أن يقتل جنديًا أراد أن يطعن الإسكندر من الخلف.. وفي المأدبة التي أقامها الإسكندر دارت الخمر برأسه ورؤوس الذين حوله، وأخذ الجميع يمدحون الإسكندر إلى حد النفاق، ووصل النفاق ببعضهم إلى أن يقولوا له:» إنك أحسن من أبيك فيليب المقدوني « وكان فيليب بطلًا محبوبًا من اليونانيين وصاحب فضل عليهم، وتقبل الإسكندر نفاق المحيطين به، وقال هو أيضًا أنه أحسن من أبيه، وأفضل منه وأعظم شأنًا.

وهناك قال كليتوس صديق الإسكندر وأحد قواده الشجعان والمنقذ للإسكندر من الإغتيال:»ما لهؤلاء المادحين لك ينزلون من أقدار السابقين ليرفعوا عليها مجد الحاضرين؟

إن فيليب كان عظيمًا، وليست مآثره أقل من مآثر ابنه – أي الإسكندر– وإنما استطعت أن تعلو وتصول عليها أيها الملك، بما

ورثته عن أبيك من ملك ممهد وجيش مدرب»

وهاج الحاضرون ضد كليتوس واستنكروا منه أن يجادل الاسكندر ويعترض على آرائه، أما الاسكندر فقد اشتعل غضبًا ضد صديقه وأخذ يسبه ويلعنه، ولكن كليتوس لم يتراجع، فصاح في وجه الاسكندر قائلًا وهو يمد يديه إليه: اذكر أيها الملك أن هذه اليد هي التي أنقذت حياتك يوم المعركة، واستمع لصوت الحق الذي أقوله لك، أو تجنب مرة أخرى أن تدعو الأحرار إلى مأدبتك، وعليك في هذه الحالة ألا تجعل هؤلاء الأحرار في صحبتك، اكتفاءً بمن يصحبك من عبيدك.

وجن جنون الاسكندر، وأصبح غير قادر على أن يسيطر على غضبه، وانقض كالصاعقة وانتزع حربة من أحد الجنود وغرسها في صدر كليتوس صديقه القديم»!

و استسلم الاسكندر العظيم لغضبه وقضى على صديقه الحميم، لأنه لم يحتمل منه كلمة نقد شجاعة، فماذا حدث بعد ذلك؟

وجد الاسكندر صديقه غارقًا في دمه، وقد فارق الحياة، وهنا يأتينا وصف الدكتور (عزام) ليصور حالة الإسكندر البائسة بعد مقتل صديقه فيقول:

«قد خرج من البهو يعدو إلى فراشه، فارتمى عليه ثلاثة أيام

لا يأكل ولا يشرب، يبكي بدموع عزت في أيام المعارك الصعبة والمحن الشديدة، وكلما جفف دمعه تجسد له صديقه قتيلًا بيده، وأخذ الاسكندر يلعن نفسه ويهتف كالمجنون باسم صديقه كليتوس ثم يقول: بل يصرخ:ويلي! أنا الغادر الخائن! لقد جزيت كليتوس شرًا..أنقذ حياتي وقتلته، قال لي قولًا كريمًا عن أبي فغضبت ولم أستطع السيطرة على غضبي..إنني لست بعد اليوم جديرًا بالحياة»!

« ويجتمع حوله أصحابه يعزونه، ويبررون له ما قام به، فلا يزداد إلا حنقًا وندمًا واكتئابًا وأسفًا ويقول له المنافقون: إن كليتوس يستحق ما جرى له، وإنه ليس جديرًا بأن يدفن بل لابد أن يترك في العراء لتأكله الطيور الجارحة، فيثور الاسكندر ويقول: بل آمركم بدفنه كما يدفن الأبطال.

«إسكندر العظيم لم يعظم عليه مطلب، ولا بعدت همته غاية، ولا ثبت في طريقه دولة، ولا وهن قلبه من سلم ولا حرب، ولكن هذا الفاتح القاهر، والملك صاحب السلطان والقدرة، لم يحتمل واحدة من وخزات الضمير، فصار كالطفل يبكي ويتوجع، وكاد يقتل نفسه فرارًا من الندم»(٥٢).

ولا أعرف كيف غاب عن هذا القائد الألمعي الذي تتحاكى به

52 راجع كتاب تحت المصباح لرجاء النقاش.

الدنيا، أن من أبرز سمات القيادة والإدارة، تقبل آراء الآخرين واستيعاب نقدهم ووجهات نظرهم، حتى وإن كانت ضد رغباتهم وأمانيهم!.

إن الإسكندر في خضم موجات الغضب العارمة، يصرخ بأعلى صوته ويقول: حبيبي لماذا قتلتك؟!

ولكنه الندم الذي لا مفر منه، حينما تغيب الحكمة والبصيرة، وتتملك على النفس حب الذات والاستعلاء والتعامي عن الحقائق.. أما القيادة المسلمة فكان لها شأن آخر، وخلق آخر..

إنها أخلاق النبوة، والتربية المحمدية، التي يمثلها النموذج العمري في أروع ما قص التاريخ عن بشر:

- أصابت امرأة وأخطأ عمر.!.
- الحمد لله الذي جعل من أمة محمد من يقوّم عمر بسيفه.!.
- دعوه.. فلا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها.!.
- رحم الله امرأً أهدى إلي عيوبي.!.

إن الكبار دومًا لا يرفضون النقد ، ولا يغترون ولا يعرفون معنى الكبر، لأنهم غايتهم في المعرفة والكمال يسعون إليها مهما كانت الطرق وعرة ومزعجة، وقد كان سقراط يقول : أعرف شيئًا واحدًا هو أنني لا أعرف شيئًا!

وكان أرسليوس يقول: لست أدري ولست أدري أنني لا أدري !

وسئل أبو حنيفة يومًا :هذا الذي تفتي به أهو الحق الذي لا شك فيه ؟ فقال متحيرًا : والله لا أدري ..لعله الباطل الذي لا شك فيه.

وسئل الشافعي مرة في الفقه فسكت ، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال والله لا أجيب حتى أعرف هل الفضل في سكوتي أم في جوابي !

***

حينما يتجاهل غرورنا عيون الآخرين!

إن النقد شيء والتحطيم شيء آخر..ومن الفقه والبصيرة أن تُميز بين الأمرين، فلا ترفض رأي الآخرين فيك بحجة أنهم مثبطون محبطون..فالنقد ضرورة حياتية، نُبصر منه عيوبنا ونقائصنا، فنسعى إلى البُرء والاستشفاء منها.

والنفس المريضة هي التي لا تُبصر عُيوبها، وتنظر لذاتها دومًا بعين الكمال، ولا تقبل أي نقد يوجه لها..و تهوى المدح والإطراء.. وتضيق بالنقد، وتأنف ممن يُذكرها بشيء من نقائصها.

وأمثال من يمتلكون هذه النفس..صادفتهم في عالم القلم، إن أحدهم يُحب أن يسمع ليل نهار من يمتدحه في أسلوبه وعباراته وعرضه ومفرداته..ويصير هذا المادح أحب الناس إلى قلبه، بينما يحظى بالبغض والنفور ممن يقدم على نقده وتبصيره بخلل في الصياغة أو ضعف في العبارة..إن إشاراتك وملاحظاتك تصدمه.. فلا يجد غير غروره ليواجهها به، فيتخيل أنك تحسده أو تحقد عليه، أو أنك لا تحب له التفوق والتميز!.

عايشت هذه التجربة مع أحدهم، كان مبتدئًا لا يحسن الكتابة، ولا يعرف كثيرًا من فنون المقال وحرفية الصياغة، إنه يُحب أن يكون كاتبًا، وكان كثيرًا ما يبدي إعجابه بما أكتب، وحينما يَقرأ

يكون تعليقه على بعض ما أخطه: (نفسي أكتب كده..نفسي أملك المفردات دي)

ومرت الأيام.. وبدأ يكتب، فشجعته ونشرت له بعض ما كَتب، حتى يكون دافعًا يولد فيه الثقة بالنفس، ولم أشأ أن أنقده في البداية، حتى لا يتسرب إليه شيء من إحباط، ولاحظته في كتاباته، فوجدته يتحدث في أمراض النفوس وآفاتها وتنمية القدرات والطاقات، ويهوى الاستشهاد بأسماء المفكرين الغربيين والزج بهم في فقراته، ويظن أن هذا علامة الفكر وشارة الثقافة، حتى إنه لا يرى هذا الميدان إلا بعيون غربية، مع أن أغلب ما يتحدث عنه قد عالجه الإسلام بتراثه ورجاله بالقدر الوفير، فلم العزوف إذن عن تراثنا وإغفاله.. إن التنوع مطلوب.. وذكر تجارب الآخرين، عمل يُفيد المعرفة الإنسانية، ويمتع النفس المثقفة.. ولكن تجاهل هذا التراث العظيم خطأ كبير وغفلة مفرطة، وهو ما لفت انتباهه إليه حتى تكون كتاباته شاملة ملمة، ولكني لم أكن أعلم أن هذا التوجيه البريء البسيط، سيلهب دخائله كسهم مسموم فاجأه بين وابل الإطراءات والمدائح التي تنهال عليه من معجبين لا يعرفون ولا يفقهون، وأكثرهم أنصاف متعلمين، لا يذكر أحدهم من نفسه أنه أمسك في حياته بكتاب ليقرأه أو مقالةٍ يتعلم منها.!.وحينما ناقشته، صارحني أن رأيي لا يُعجبه ولا يَقبله، وكانت ملامح

وجهه متعجرفة خالية من كل ذوق.

علام هذا الغرور، وأنت مازلت في بداية الطريق؟! ومع من؟!

مع من كانوا بالأمس يشجعونك، وكنت تحلم أن تمتلك ما يمتلكون.!.

كيف يكون حالك إذن لو صرت كاتبًا مشهورًا يعرفك الناس ويشيرون إليك بالبنان؟!

أما أنا يا عزيزي فقد تعلمت مبكرًا، أن الكبر يضر أول ما يضر بصاحبه، ويَجلب له الخَسارة، ويُفوت عَليه فُرص النجاح والتوفيق.. وكم يكون محظوظًا ذلك الذي يَجد من يُوجه إليه نقدًا، أو يبصره بعيوبه وسلبياته التي لا يراها من نفسه..حتى يُعالجها ويتلاشاها كخطوة فاعلة نحو الكمال المنشود.

وهو المعنى الذي أدركه أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه، حينما سارع بالدعاء لمن نصحه وأرشده ونقده، بل ونعته بأخيه، واعتبر هذا النقد هدية منه.!.

فقال:»أحب إخواني من أهدى إلي عيوبي«

لماذا لا نتمثل فقه عمر رضي الله عنه..وننظر للأمور نظرة تعد النقد مَكسبًا مُفيدًا، ..أي أنك أنت المستفيد الأول..وكم يكون واقعيًا أن يدرك

الإنسان أنه غير كامل، وأن به كثيرًا من العيوب، منها ما يراه ويعلمه، ومنها مالا يعلمه.

والمرء لا يرى من نفسه ما يراه الآخرون، ومن ثم.. كان بالضرورة أن نجعل من عيون الآخرين شموعًا تُضيء لنا ما جهلنا في أعماق نفوسنا..إن النقد هو الطريق الأمثل لمعرفة كل الأذواق، ومن ثم إرضاؤها، وتحصيل ما تتكيف معه الرؤى المتباينة..إنها حقائق في طباع الإنسان، وعدم إيمانك بها نقص وتحد للطبيعة، تمامًا كمن ينطح الصخر ولا ينال إلا شج رأسه!.

ولكاتبنا الألمعي الفريد نقول: إن ما فعلته ليس من فعل الأذكياء، ولا من أخلاق الكتاب الكبار، الذين بهرت أقلامهم الدنيا، وهم يعترفون بالفضل لنقد الآخرين!.

ولعل الأستاذ (نجيب محفوظ) يتناول هذا الموضوع ويشير للسلوك السوي الذي أجدى بنا أن نقابل به كل من ينتقدنا، ويوجه لنا رأيًا لا يعجبنا ولا تقبله نُفوسنا، فيقول:

«أهتم بالنقد وأدرسه جيدًا لا سيما ما يكتب منه عني، سواء كان معي أو ضدي..لا فرق، وأعكف على درس ما يوجهه إلي من نقاط، وآخذه بموضوعية وطيب خاطر، أي إنني لا أرفضه، ولا أبادل صاحبه عداء بعداء، بل أكن له احترامًا وتقديرًا خاصين،

لأنه اجتهد وثابر، وحاول أن يقدم رؤية ما، لا يهمني بعد ذلك أن جاءت لصالحي أو رافضة لعملي، شريطة ألا يأتي بذيئًا مترخصًا»

ويقول: «إن العديد من المقالات كتبت ضد أعمالي، -بل توجد في ذلك كتب- وكلما قابلني نقد مضاد، قابلته بعزيمة مضادة أقوى منه، فقررت بإرادة من حديد أن أقرأها قراءة موضوعية، كأنها من شخص لآخر، وأن أستفيد منها ما يمكن الاستفادة منها، وصممت أن لا تسوء العلاقة بيني وبين ناقد ما، فالناقد قد يقوم بواجبه، والدخول معه في معركة يتعبه ويصعب مهمته..فأنا صديق لنقادي، وهي مسألة تحتاج إلى جهاد طويل مع النفس.. إن أي نقد في الدنيا –ثق في هذا- لن يرفع إنسانًا أو يخفضه درجة عما يستحق، ليس هناك إنسان لا يسوؤه ما يوجه إليه من نقد.. لكن العبرة بالموقف الذي يتخذه من هذا الناقد، وإلا كان فاقدًا للإحساس..

من الخطأ أن يبهرنا النجاح، ويتوج رؤوسنا بالغرور..وإلا فمن ينقذنا من اليأس ساعة الإخفاق»(٥٣).

وهي نفس النصيحة التي نصح بها (ثروت أباظة) حينما جاءه مغضبًا محنقًا يسب ويلعن أحد النقاد الذين تناولوا روايته بنقد شديد لم يعجبه فإذا هو يقول له في هدوء:»هون عليك.. أتريد أن تكتب ولا تسمع

53 راجع أنا نجيب محفوظ – عبد العزيز إبراهيم.

إلا مديحًا..إننا لو أرضينا نصف قرائنا لبلغنا أقصى غايات النجاح»
وكان الأستاذ (أحمد أمين) شديد الخوف على سمعته ، ويتألم أشد الألم من كلمة تنشر إذا مست خلقه، ولكنه كان كما أخبر عن نفسه واسع الصدر جدًا فيما يمس أراءه وأفكاره ، وليس يحزنه نقد كتبه ولا نقد آرائه ، بل يرتاح لهذا ويغتبط به إذا اقتصر على حدود الرأي والفكر ، ولم يتعد إلى حدود الخلق.

إن لينكولن كان يقول: إذا أدرتم أبصاركم في الوطن ورأيتم لي فيه عملًا جليلًا فاذكروا الذين كانوا يخالفونني في الرأي ويعارضونني، لقد كانوا من ورائي سياطًا تلهبني ومن أمامي أضواء تنير لي الطريق» وهذا التعامل الهادئ مع النقد، جعل صاحبه يصعد للقمة، ووهبه القدرة التي أرضى بها كل الأذواق عن إنتاجه وأدبه، من خلال ما وجه إليه من نقد وملاحظات، وظفها بطريقة إيجابية بناءة..فهل يا ترى، يستطيع المغرورون أن ينجحوا ويتميزوا، بعيدًا عن عيون الآخرين؟!
وكان الأستاذ الكبير (علي الطنطاوي) له فلسفته الخاصة في النقد ، إذ كان يقول:

« أرى أن الذي يمدحني بمقالاتي يحقرني لأنه لا يعلم أنها درهم من خزائن نفسي المفعمة بالذهب ، فهو يقول لي: إن الدرهم كبير منك لأنك فقير . ولكن الذي ينقد مقالاتي ويتنقّصها يقول لي:

إنك غني فالدرهم قليل منك، إن هذه المقالة حقيرة لأنك أنت عظيم.

لقد تعلمت هذه المسألة من عهد قريب فصرت أحب النقد، وكنت أجهلها من قبل فأميل إلى الثناء والتقريظ.»(٥٤)

فرق كبير بين النصيحة والتعقيد.!.

فكما أمدح فيك صلابتك وصمودك في وجه من يهدمك ويحبطك..أعيب عليك رفضك للنصيحة وصدك عنها، وعدم قبولها، بل تكاد لا تميز بين المحبطين والناصحين..وأن تضع الطرفين في خندق واحد!.

ومهما كنا أذكياء موهوبين، ففي حياتنا كثير من العيوب التي لا يمكن أن تراها أعيننا، ولا تبصرها إلا عيون من حولنا، وهي الأعين التي لا غنى لنا عنها حتى نُبصر الطريق الصحيح!.

نعم ليس معنى أنك تقاوم اليأس وترفضه، أن تتعامى عن عيوبك، وترفض نصح الناصحين لك حين يوجهونك..

قال ﷺ: (المؤمن مرآة أخيه)(٥٥).

وقال أحد الأدباء:

---

54 من حديث النفس- علي الطنطاوي

55 البخاري في الأدب المفرد 932.

«ما أعظمك إذا عرفت حدود قدراتك، وما أضعفك وأغربك إذا عميت عنها وغرقت في أوهامك إلى أن تصدمك صيحة منكرة»ولكي نتفادى هذا الزلزال المرتقب في حياتنا..لابد أن نبحث عن أنفسنا وحقائقنا في عقول الآخرين وأعينهم، ولا نبتئس إذا كان التقدير لا يعجبنا، وكان على خلاف ما كنا نظن من أنفسنا، فالرجوع عن الخطأ أفضل من التمادي فيه..

لقد تعلمت في حياتي أن لا أهمل نقد الآخرين، وأن أرى نفسي في بعض الأحيان بعين غيري، وكثيرًا ما ارتددت للحق بنصيحة الناصحين، حينما كانت عيني تعمى عن رؤيته.

بل كثيرًا ما عرفت من نفسي أشياء لم أهتد إليها إلا حينما لفتني إليها الآخرون.. فأبقيت ما أبقيت وأصلحت ما أصلحت.

كما لا تظن أن التمييز بين الناصح الموجه وبين البائس المحبط أمر صعب عسير لا يمكن الفصل فيه..إن الأمر بسيط جدًا تُدركه في عين مُحدثك..في نبرات صوته..في نظرات عينيه..في جبينه، في أسلوب حديثه..وأخيرًا من خلال درايتك ومعرفتك به..

استدرجت إلى حديث مشحون مع أحد أعداء الحرية، فوصف كتاباتي وأطروحاتي بأنها هراء وعبث..وأنا أدرك من نفسي أنها لا تلتفت لأمثال هؤلاء في شيء، ولا تقيم لآرائهم وزنا أو قيمة،

لأنهم يكابرون في الحق ويتبعون أهواءهم، ومن الطبيعي أن تكون أحاديثي أبغض أحاديث الدنيا إليه، لأنها تذكره بالتي لا يكره في الدنيا شيئًا مثلها!.

ولا يتصادم هذا مع قول العرب:

«الحق ما شهدت به الأعداء»

أو قول الحكيم الفرنسي (لاروسفوكو):

«إن آراء أعدائنا فينا أقرب إلى الصواب من آرائنا في أنفسنا»

لأن المعنى المقصود هنا هو ما يشهد به الأعداء من فضل أو عدل أو مواهب وقدرات.

ولعلي هنا أستحضر رد (أبلز) الرسام الشهير الذي كلما رسم صورة عرضها بحيث يراها المارة من الناس ثم يختبئ ليسمع آراءهم فيها..وفي يوم من الأيام وضع صورة واختبأ ورآها فمر بها إسكاف، وتأملها ثم قال::إن سير الحذاء أوطأ مما يلزم، فسمع (أبلز) نقده وأصلح السير، وفي اليوم التالي مر بها الإسكاف نفسه، فرأي سير الحذاء قد أصلح، فأخذته الجرأة وراح ينتقد الساق.!.

وهنا برز له (أبلز) من مكمنه وقال له: مكانك يا عزيزي..إن نقد الإسكاف يجب ألا يجاوز الحذاء!.

من حق العبيد أن يؤيدوا الاستبداد، وينحنوا انحناءة الأذلاء لأسيادهم من المستبدين المتسلطين، حتى يشبعوا نفوسهم التواقة

للعبودية لمن يدهسونهم بأحذيتهم..أما أن يتهكم أحدهم فينتقد الأفكار والآراء بلا علم أو ثقافة، فإنه يجشم نفسه عناء كبيرًا، ويكلفها مالا تطيق!.

❋❋❋

محبطون أم حاسدون ؟

ليسوا محبطين ولا حاسدين، وإنما الاثنين معًا، وهذه هي المصيبة.!.

في مواقف عديدة لا يتحدث الُمحبِطِون عن طريق بصيرتهم التي يظنون أنها تكشف الغيب والمجهول من مستقبلك..وإنما يتحدثون من قلوبهم السوداء، التي يقبع فيها الحقد الكاره لنجاحك.. المغتاظ لنبوغك..

وهذا النوع من المحبطين يكون دفعك لهم أشد وأقوى..لأنهم تفوقوا على غيرهم بالكره والبغض!.

ولا تظن أنهم يخفون عليك..كلا فهؤلاء تستطيع بسهولة أن تشعر بهم وتكشف خبيئتهم، من أعينهم ومواقفهم وتعاملهم.. فهناك أناس أنت حبيبهم وقرينهم مادمت مثلهم أو أقل منهم.. أما أن تعلو عليهم فهو الإيذان بعدائك وهجرك!.

والحسد من الآفات الخطيرة التي نالت كثيرًا من العظماء والنوابغ والناجحين في حياتهم.. فكما رفعهم نبوغهم للسماء، فإنه أثار عليهم في الوقت نفسه أنفسًا حاقدة تكره النجاح وتريد لأصحابه أن يعيشوا في القاع.

وما من عمل ناجح في الحياة إلا وتكتنفه محن وشدائد ، فالحاسدون في الدنيا كُثر والنفوس المريضة تملأ جنبات الحياة وتعربد في عرصات الدنيا وتنفث سمومها الناقعات.

وكما قيل: «كلما ارتفع الإنسان تكاثرت حوله الغيوم والمحن»

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله:

«كم من عبقريات مرغتها في الوحل خصومات خسيسة!.

إن الحال في كل زمان تحتاج إلى مداد سريعة.

من المساندة أو العزاء لتعيد إلى الموهوبين ثقتهم بأنفسهم، وتشجعهم على المضي في طريقهم دون يأس أو إعياء.

وذلك لكثرة ما يصيبهم من تعويق المثبطين وإيذاء الناقمين والشامتين.

أجل..إنهم في حاجة لأن يقال لهم: لا تأسوا، فإن ما تتوجسون من نقد أو تجاهل، هو كفاء ما أوتيتم من طاقة ورسوخ».

ويجسد لنا أبو الأسود الدؤلي هذا الحقد المستعر في نفوس الحاسدين فيقول:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه

فالقوم أعداءٌ له وخصومُ

وترى اللبيبَ محسدًا لم يجترم
شتمَ الرّجال وعرضهُ مشتوم

وهؤلاء لا يرضيهم منك إلا أن تتنازل عن تميزك، وتنسى نجاحك وترتد عما كنت تعمل من أعمال رائعة..

إنهم يحاكون بني إسرائيل في تصرفهم، فقد وصف الله حالهم بقوله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠) [البقرة]

نعم..هذا هو الشيء الوحيد الذي يرضيهم!.

ونجاحك يكشف لك كثيرًا مما خفي عليك من حقيقة النفوس المحيطة بك.. فأحاديث الحاقدين تريد أن تُثنيك عن طريق لا يحبون أن يروك فيه، ولا يرغبون أن تنال مالا يستطيعون نيله.. واستكمال مشوار النجاح يتطلب النجاح في اختبار آخر، وهو الصمود والمقاومة لهؤلاء..حتى تتجاوز رسائلهم السلبية، وتوجيهاتهم المحبطة، التي لا يبغون بها إلا التشويش على غايتك في النجاح..

«إن الجالس على الأرضِ لا يسقطُ، والناسُ لا يرفسون كلبًا ميتًا، لكنهم يغضبون عليك لأنك فُقْتَهمْ صلاحًا، أو علمًا، أو أدبًا، أو مالًا، فأنت عندهُم مُذنبٌ لا توبة لك حتى تترك مواهبك ونِعَمَ

الله عليك، وتنخلع من كلِّ صفاتِ الحمدِ، وتنسلخ من كلِّ معاني النَبلِ، وتبقى بليدًا غبيًّا، صفرًا محطَّمًا، مكدودًا، هذا ما يريدونهُ بالضبطِ. إذًا فاصمد لكلامِ هؤلاءِ ونقدهمْ وتشويههِمْ وتحقيرِهمْ (اثبتْ أُحُدٌ) وكنْ كالصخرةِ الصامتةِ المهيبةِ تتكسرُ عليها حبّاتُ البردِ لتثبت وجودها وقُدرتها على البقاءِ. إنك إنْ أصغيت لكلامِ هؤلاءِ وتفاعلت به حققت أمنيتهُم الغالية في تعكيرِ حياتِك وتكديرِ عمرك، ألا فاصفح الصَّفْح الجميل، ألا فأعرضْ عنهمْ ولا تكُ في ضيقٍ مما يمكرون. إن نقدهمُ السخيف ترجمةٌ محترمةٌ لك، وبقدر وزنِك يكُون النقدُ الآثمُ المفتعلُ»(٥٦).

وهذا الداء المستشري قد ينال أقرب الناس إليك..فهؤلاء إخوة يوسف حسدوه وحنقوا عليه لقربه من أبيهم، ولم يتورع أحدهم في التفكير بقتله والقضاء عليه.!.

ونعهد الحسد أسير عملية نفسية، وعراكًا تموج به الصدور..أما أن يتحول لمسلك إجرامي عدائي، فإن صاحبه قد أكل الحقد عقله وتفكيره..ومن قبلهما أكل دينه..فإذا لم يوجد حظ من التقوى يرد هذا الهوى الجامح الجائر، فلن يرده شيء..وقد قرأت أن بعض الطلاب حسدوا زميلًا لهم كان متفوقًا، فدفعهم حسدهم أن يسحروه عن طريق بعض الحواة، حتى تدهورت حالته الصحية،

56 لا تحزن – عائض القرني.

ومرض مرضًا شديدًا لم يعرف الأطباء له تشخيصًا أو دواءً، انقطع عن الدراسة ولازم البيت وأصبح في حالة وجود ولا وجود.

ولكنهم اكتفوا بمحوه وإبعاده عن تلك المكانة التي لا يحبون أن يروه فيها..

وفي هذا الإطار يذكر لنا الإمام الشهيد (حسن البنا) رحمه الله في (مذكرات الدعوة والداعية) تعرضه لهذا النوع من الحقد..الحقد على النجاح..الذي كاد أن يسبب له كارثة كبيرة لولا لطف الله به، فقد دخل دار العلوم وتفوق في امتحاناتها ومنحته المدرسة مكافأة مادية لذلك قدرها جنيه في الشهر وبينما هو في نهاية العام وفي أثناء الامتحان الأخير وبعد مُضِي يومين منه تقريبًا وقعت له حادثة كادت أن تكون كارثة، ولكن الله تبارك وتعالى جعلها خيرًا وبركة وسببًا لانتقال الأسرة كلها من المحمودية إلى القاهرة.

يقول: «ذلك أن أحد إخواننا الزملاء في الفصل، والسكان معنا في البيت، والغريب معنا في الموطن كذلك، عز عليه أن أتقدم عليه في الامتحان مع أنه أكبر سنا وقد قضى في دور العلم سنين عددا، ويرى نفسه أحق بالأولية والتقدم، فكيف يسمح لهذا الناشئ أن يتقدمه؟ استولى عليه هذا الخاطر ففكر في حيلة يعيقني بها عن الامتحان، فلم يجد إلا أن ينتهز فرصة نومنا جميعًا، ويصب زجاجة من (صبغة اليود) المركزة على وجهي وعنقي وأنا نائم، وقد

استيقظت بعد ذلك فزعًا، وتظاهر بالنوم، ولم أتبينه في الظلام، ولكني قمت من فوري إلى دورة المياه، فغسلت وجهي من هذا الماء الكاوي، وسمعت أذان الفجر من مسجد (صرغتمش) بالصليبة فنزلت مسرعًا إلى الصلاة، وعدت فنمت قليلا لشدة التعب من المذاكرة واستيقظت في الصباح فرأيت آثار هذا الاعتداء، وكان هو قد خرج مبكرًا، فقال أحد الزملاء: إنه رأى معه زجاجة الصبغة فعلًا، وبسؤاله اعترف، وذكر العلة السابقة، فقام عليه زملاؤنا في السكن وأوجعوه ضربا، وقذفوا بأمتعته في الشارع، وطردوه من المنزل، وتشدد بعضهم في تبليغ النيابة أو إدارة المدرسة ولقد قمت بذلك فعلًا، لولا أنه خطر لي أنني قد نجوت، وهذه نعمة من الله وفضل يجب أن يقابل بالشكر، وليس الشكر إلا العفو والصفح:(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ..(٤٠) [الشورى]، فتركت الأمر لله تبارك وتعالى ولم أحرك فيه ساكنًا.

ولكن الخبر قد وصل إلى البلد، وانتهى الامتحان، وسافرنا، وظهرت النتيجة وكنت من المتقدمين والحمد لله، فكنت الثالث في الفرقة، ولكن السيدة الوالدة أبت إباء شديدًا إلا أحد أمرين: إما أن أنقطع عن العلم وأعود للوظيفة، وإما أن تنتقل هي معي إلى القاهرة»(٥٧).

57 مذكرات الدعوة والداعية – الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

وإذا كان شوبنهاور يقول بأن: «أقصى أماني الحاسد زوال نعمة المقصود»، فإن هؤلاء تأججت البغضاء في قلوبهم حتى أرادوا أن يزيلوا المحسود نفسه بدلًا من نعمته».

في تحقيق نشرته جريدة الرياض السعودية تحت عنوان: (أعداء النجاح.. بارعون في التحطيم وفن الإحباط)!(٥٨) ذكر صورًا حياتية لأناس تعرضوا لحالات من الإحباط مقرونة بالحسد والحقد..فتقول إحدى المشاركات في التحقيق:

«لدي جارة كل تصرفاتها غريبة تعاني من حياة غير مستقرة، وعندما تأتي لزيارتي تنتقدني بشدة وتعيب مظهري وأنني لست كبقية النساء فهن أجمل مني وأكثر اهتمامًا بمنازلهن، بالرغم أنني أجد نفسي غير ما تقول تمامًا، فأنا معلمة وزوجي كذلك، ولدي خادمة، ونعيش حياة أجدها رائعة بالرغم أننا لم نرزق بعد مرور خمس سنوات بأطفال.. وتضيف: تحبطني عباراتها فأصبحت رهينة كلماتها، فهي ترسل سهامها بأسلوب منمق «لا غبار عليه» أخبرت زوجي بأمرها فأمرني بعدم استقبالها مرة أخرى في بيتي فهي امرأة حاقدة لا تحب أن تجد غيرها أفضل منها».

وتُعلق أخرى بقولها: «منذ ثماني عشرة سنة كنت أشق طريقي لإنهاء دراستي بكل صعوبة، خاصة أنني تزوجت بالمرحلة

58 جريدة الرياض – بتاريخ الأحد – ٠٢ فبراير ٢٠١١م – العدد ١٨٥٥١.

المتوسطة من ابن عمي، وهو جاهل حتى بالقراءة والكتابة، لا يحب رؤية كتابٍ بين يدي، ويغضب كثيرًا من ذلك، ألزمه والدي بإتمام تعليمي بعقد القران، وكنت أحمل أبنائي من الصباح إلى منزل أهلي سيرًا على الأقدام، ومن ثم أواصل مسيرتي إلى المدرسة وأعود لأقوم بأعباء منزلي وأطفالي، فأعمل جاهدة بأن لا أشعره بانشغالي عنه فلم أقصر في حقه، وبرغم ذلك كان يتضايق من رؤيتي وأنا أقرأ لوالدته أو لوالده «وصفة الدواء»، ودائمًا ما يُصر على عمل ولائم وأنا في فترة الاختبارات، ولكن كان الله بعوني، ولم أرض بغير التفوق، وضع زوجي كثيرًا من العقبات في طريقي، ولكني اجتزتها بلا مشكلات بيني وبينه، وتخيلوا بعد تعب السنين وفي سنتي الأخيرة من الجامعة افتعل مشكلة كبيرة وخيرني بين أبنائي وإتمام تعليمي، إنه قرار مصيري اتخذته ضد نفسي وطموحي».

ويقول طبيب: «توفي والدي وأنا بالمرحلة المتوسطة وكان رحمه الله دائمًا ما يناديني « بالدكتور خالد» التصقت هذه الكلمة بفكري وقلبي مصممًا على ما ابتغاه لي والدي متحديًا ظروفًا قاهرةً فقد عشت في منزل جدي لأمي والذي يضم ثلاثة وعشرين فردًا، وواجهت الكثير من الإحباطات والكلمات الجارحة للتقليل والاستهزاء، وكانت كل كلمة تأتيني تدفعني لمزيد من الطموح والتحدي ولو علموا بذلك، لأبدلوها بكلمات ثناء، فمعظم من في

البيت هم من أخوة أمي من الأب، ولكنهم مقاربين لي في السن، ومستواهم الاجتماعي أفضل بكثير مما أنا فيه، فيكفيني سندًا بعد الله والدتي التي شغلت دور الأم والأب، ودائمًا ما تشجعني وتبعث روح الأمل داخلي، ولله الحمد والمنة، فأنا الآن أول طبيب يتخرج على مستوى عائلتنا الكبيرة، وهم يفخرون بي أمام الآخرين ولو استمعت لكلماتهم لما وصلت لما أنا فيه الآن».

وتعلق (غادة) قائلةً: «التحقت بإحدى الأكاديميات رغم معارضة إخوتي لذلك العمل، ولكن وجود والدي كان دائمًا يدفعني للأمام فيؤازرني ويشد من همتي، مضيفةً أنها درست صيدلة والجميع يعلم مدى صعوبة هذا القسم وأهميته، وكنت متحمسة لأبعد الحدود فأنا أطمح لوظيفة مرموقة تناسب مؤهلي العلمي، وفي نهاية عامي الأخير، وفي آخر شهر من التدريب، ودعني والدي ورحل إلى بارئه لأكون تحت رحمة أخوتي الذين لم تؤثر فيهم توسلاتي ودموعي وتعب السنين، وحرموني من ثمره نجاحي وخدمة وطني.

وتحكي (أم خالد) تجربتها مع تربية أبنائها وتعليمهم للوصول بهم إلى أعلى المراتب العلمية على الرغم من أميتها هي وزوجها، فتقول: «تزوجت قبل أربعين سنة، في وسط لم يكن فيه أي شخص متعلم، وكان يُنظر إلى التعليم على أنه أمر لا فائدة منه، وأنه مجرد لعب

وتعب لا يأتي بفائدة، وكان كل من حولي يسخر مني ويستهزئ بي عند الذهاب ببناتي للمدرسة والتي كانت بعيدة بعض الشيء عن بيتي، بينما تذهب النساء الأخريات لرعي الأغنام، وعند عودتي لهن أتفاجأ بقولهن لو تركتيهن «لرعي الأغنام» لكان أفضل لهن، واشترط من حولي: إن تخرجت إحدى بناتي فسيعطينني عشرة آلاف ريال، وهناك من قال: ألف ريال، ولكني تحديت كل ما واجهني، والحمد لله.. فالآن بناتي متخرجات إحداهن دكتورة جامعية، والأخرى معلمة، والصغيرة منهن تعمل ممرضة وتطمح لإكمال الدكتوراه، وأنا سعيدة بهن حولي، وبإنجازاتهن المتميزة، فلهن شأن كبير بين أفراد عائلتنا، وتختتم «أم خالد» حديثها بقولها:لم أسجل لي نشاطًا شخصيًا، ولكني أعتبر كل نجاح لبناتي هو نجاح لي أنا، وقدرتي على قهر الصعاب رغم التحديات التي عشتها في وقت لم يكن فيه التعليم سهل المنال».

***

رسول الأمل

إن المثبطين والمحبطين بلاء الأوطان ورزية الشعوب، وعلة المجتمعات، وداء خبيث يهدد بقاءنا، ويكدر عيشنا.. وكم وددت لو أن قوانين الأمم قد جعلت لأمثالهم عقوبة، كعقوبة السباب والقذف..ولعمري.. فإنها أشد وأنكى، فمن يسب النفوس ويهينها.. ليس كمن يهدمها!.

نريد بهذه السطور أن نُغير نظرة المجتمع لا إلى البائسين..وإنما إلى هؤلاء المُثبطِين المُحبطِين، فنظهر جريمتهم في حق الناس، وحق المجتمع، وحق المستقبل..ونجعلهم أناسًا غير مرغوب في بؤسهم.

وكم خانت الأقدار أمثالهم..فرأينا كيف استطاع كثير من ضحاياهم أن ينهضوا ويُحققوا ما كانوا يرونه مستحيلاً..بل رأينا كيف تحول إحباطهم لأوهام بالية كاذبة، كلما استرجعوها خجلوا من أنفسهم..وأقروا بظلمهم!. وكلما استرجعها اليائسون ازدادوا أملًا وإصرارًا.

ونحن أمام الرسول العظيم ﷺ وفي الأزمات التي مر بها، والدواهي التي عاينها، كان يتحلى بالأمل، ويدفع اليأس، ويحث على اليقين والاطمئنان بنصر الله.

ففي الهجرة النبوية يتتبع المشركون أثره ﷺ وصاحبه، يريدون

قتله ووأد دعوته..فيلجأ لغار ثور، حتى يضرب لنا أروع مثال عرفته الدنيا في الأمل والتفاؤل، وسط الهلاك المحقق والبطش المحدق.

يقول له صاحبه خوفًا عليه ووجلًا على دعوته: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فيرد عليه المطمئن الواثق بكلماته الثابتة المؤمنة حتى يبعث في نفسه الأمل والتفاؤل: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!

و جاء النصر المبين من بين هذا الهلاك المحيط!. تمامًا كما يسطع ضوء النجم في عتمة الليل ودياجير الظلام!.

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) [التوبة].

إن الرسول العظيم ﷺ رد الإحباط والمحبطين، وأجهز على هذه الروح الانهزامية السوداوية في نفوس أصحابه، ففي معركة مؤتة رجع الجيش من نزاله مع الروم منسحبًا بقيادة (خالد بن الوليد) رضي الله عنه، فاستقبلهم صبيان المدينة وهم يقولون: يا فرار يا فرار.!.

ولكن الرسول ﷺ يدافع عنهم ويحميهم من هذه الكلمات

المحبطة الأليمة، ويقول: بل هم الكرار إن شاء الله..

وفي غزوة الأحزاب قامت الدنيا كلها ضده ﷺ تريد الإجهاز عليه، والقضاء على دعوته الناهضة..فها هي قريش جاءت بقضها وقضيضها، بغضبها وغرورها، فجمعت له الأحلاف والأحزاب، تريد أن تجعل من المدينة قبورًا له ولأصحابه، ليكونوا أحدوثة العرب، ومأثرة تفتخر بها قريش عبر الزمن..

وما هي إلا أيام أو ساعات حتى يطبقون على المدينة، فيذبحون رجالها ويسبون نساءها وأطفالها، أذلة صاغرين، وعبيدًا مستباحين، وهكذا كانت تُبيّت قريش وتتحين لحظة التنفيذ، فتحيل أمانيها لواقع ملموس..

« لقد أمسى المسلمون وأصبحوا فإذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرق ليلًا أو نهارًا، وبين الحين والحين يتطلع المدافعون هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع؟ وكان المشركون يدورون حول المدينة غضابًا يتحسسون نقطة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم، ويقطعوا أوصال هذا الدين الثائر»(٥٩).

ووصف الله تعالى حالةَ المؤمنين بقوله:

---

59 فقه السيرة- الشيخ الغزالي

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب].

«وفي صيغة المضارع معنى التعجيب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان..

فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر، دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لما رأوا من قوة الأحزاب وضيق الحصار أو خافوا طول مدة الحرب وفناء الأنفس، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جراءة للمشركين على المسلمين، أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها، والمؤمن وإن كان يثق بوعد ربه لكنه لا يأمن غضبه من جراء تقصيره، ويخشى أن يكون النصر مرجأً إلى زمن آخر، فإن ما في علم الله وحكمته لا يحاط به..

والمراد بزلزلة المؤمنين..شدة الانزعاج والذعر لأن أحزاب العدو تفوقهم عددًا وعدة» (٦٠).

وفي قلب هذه المحنة الكبيرة المخيفة، ومن رحم هذا الخوف المفزع، يقف ﷺ قويًا صلبًا مشبعًا بالأمل والتفاؤل بين سهام اليأس والقنوط.. وقف ليحبط الإحباط، ويزرع الثقة والأمل في

60 التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور

نفوس أصحابه، فإذا به يمسك بالمعول ويصيح عاليًا:

«الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام.. الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس..الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن»

فأي إيمان هذا وأية ثقة..؟!

كان يحمل به ﷺ أن يُصَبِرِ أصحابه على مصابهم، أو أن يحثهم على الثبات حتى يأتي الفرج، أو يواسيهم على ما ينتظرهم من قدر مجهول، فيخفف عنهم ألم الاضطراب والقلق، وحالة الفزع التي توشك أن تأكل أرواحهم.!.

لكنه ﷺ كان بكلماته أعلى من المحنة وأكبر مما يحذرون ويخافون..

وقل لي بالله عليك.. هل يستقر في النفوس بعدما سمعت هذه البشريات المذهلة، أي وجل مما يشاهدون حولهم من تآمر وعدوان؟!

أو هل يكون في قلوبهم خوف من هذه الفئات الضئيلة الهزيلة التي تواجههم وتكيد لهم، وهم يسمعون بآذانهم أنهم سيقهرون فارس والروم، ويغلبون الدنيا كلها بدعوتهم الرفيعة؟!

لقد وقف أحد المنافقين الذين يمثلون كتيبة الإحباط، والتي لا تخلو منها المجتمعات، ولا تبرأ من عناصرها الدعوات

والنهضات.. وقف ليقول: «محمد يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، وإن أحدنا لا يأمن أن يذهب لقضاء حاجته»

ويقول غيره: «يخبركم محمد أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا»..

وتقول جموعهم فيما حكي الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) [الأحزاب].

ولكن أمواج اليأس تلاشت كلها هباء منثورًا أمام النتائج الكبرى والبشريات الواعدة التي نبأ بها رسول الله ﷺ، وما لبث الزمان أن حقق موعودها، ورأى العالم كله صدق ما أخبر به الصادق المصدوق!.

ونعود مع دائرة الزمن، لنرى الأعداء يرتدّون عن المدينة منهزمين خاسرين، فيهزأ بهم العرب، وتسخر منهم القبائل..أما المؤمنون.. فأدركوا بيقين أن قريشًا لم تهزم وحدها..وإنما هزمت قبلها بواعث اليأس والإحباط في نفوسهم، ليسيروا بعدها في الدنيا متسربلين بالأمل منتصرين بالتفاؤل!.

إن الأمل والتفاؤل وروح التحدي والثقة بالنفس، هي المعالم الكبرى والسمات الأصيلة التي بنى عليها الإسلام مجده وتاريخه

ودولته وحضارته..لقد أنزل الله تعالى على المسلمين هذا البيان العظيم، يقرأونه ليل نهار، ويرددونه في السكون والحركة، في المنشط والمكره، في السلم والحرب:(قال تعالى كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) [البقرة].

وإذا كان غير المسلمين لا تنشرح صدورهم لخوض المعارك إلا بالتفوق على خصومهم عددًا وعدة..فإن المسلمين لم تكن قلوبهم تلتفت لهذا النوع من الاطمئنان، لأن اطمئنانها الأول كان بالله وحده، فهو السلاح الذي لا يُقهر، والمقياس الأول لكسب الصراع، ومن هذا اليقين تحديدًا، علمهم ربنا سبحانه وتعالى درسًا كبيرًا لا يُنسى ولا ينمحي، وسجل أحداثه في القرآن الكريم حتى تكون شاهدًا على طول الزمان، وموعظة تردنا إلى الحق إن غرتنا القوة يومًا ما..

قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) [التوبة].

وعلى قسوة الدرس وفداحة التكلفة..إلا أنه صار نبراسًا ولفتة يستحضرها المسلمون في كل حروبهم..إلى أن ظهروا على الدنيا

كلها، وارتفع لواؤهم خفاقا على العالمين.

ومن هذا اليقين أزيلت كل مشاعر الإحباط، وخواطر اليأس في نفوس المسلمين..فيقف أحد الجنود، وقد حاول طيف الإحباط أن يتسرب إلى وجدانه فيقول:

«ما أكثر الروم وأقل المسلمين!، فيسارع إليه (خالد بن الوليد) بما آمن به وصدقه: بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين!، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالهزيمة.

كما أراد القائد المسلم أن يدفع وهم التفوق العددي من عقول أعدائه فقال لهم:

جئتكم برجال يحبون الموت كما تحبون الحياة!.

وما أروع مؤتة.. تلك المعركة التي يتحاكى بها التاريخ..إذ كيف لثلاثة آلاف مقاتل أن يصمدوا في وجه مائتي ألف.؟!

بأي إيمان ومنطق يدخل هؤلاء معركة لا تتكافأ فيها القوى إلى هذا الحد الرهيب؟!

إنه منطق الإيمان بالله، الذي تهون أمامه كل قوة، ويُغلبُ بسيفه كل عدد.!.

حتى يصدق فيهم قول رائدهم..رجال يحبون الموت..وهو

الوصف الذي لم يكن ترهيبًا ولا مبالغة، بقدر ما كان حقيقة عاينها أعداء الإسلام.

إن الروح المعنوية لها أثرها القوي لدى أصحابها..وقوة العقيدة تخلق طاقة هائلة لدى الجيوش المقاتلة، أشد مما توجده القوة المادية، فعتاد الإيمان وذخيرة الأخلاق، أجدى في تحقيق النصر من العدد والعتاد.

***

الرجاء في حياة الأنبياء

إن القرآن الكريم يحشد دروسه الهائلة حتى يغرس في المسلم خلق الأمل..فيصير المؤمن في قلب الأحزان واحة باسمة مطمئنة..

وربنا الرحيم يزكي في آياته هذا السلوك لكل متبصر متأمل.. حتى يدرك المؤمن أن الأمل والتفاؤل ضرورة لا تنفك عنها حياته.

يتجلى هذا في قصص الأنبياء العظام عليهم السلام، الذين خلد القرآن ذكرهم وذكراهم، وجعل من مواقفهم العظيمة دروسًا لنا نهتدي بها ونتعلم منها.

فيعقوب عليه السلام يفقد ولده المحبب إلى نفسه، ثم يفقد بصره حزنًا عليه، ثم يفقد شقيقه الثاني من بعده، ولكنه أمام هذه النوازل المتتابعات، لم يفقد إيمانه بالأمل في رجوع كل شيء، لم يفقد ثقته بربه الكريم، القادر على كل شيء، وهو يردد على الدنيا حوله: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) [يوسف].

ويتشبع قلبه بالأمل، فيحث أبناءه أن يبحثوا عن أخيهم في كل مكان، ولا ييأسوا في وجوده والعثور عليه:(يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) [يوسف].

وفي قلب الألم وعذاب العلة، لم يفقد أيوب عليه السلام أمله في الشفاء فيدعو ربه سبحانه : ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤) [الأنبياء].

ثم يمتدح الله تعالى فيه هذا الصبر الكبير: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) [ص].

ونبي الله يونس عليه السلام يبتلعه الحوت وينظر إلى نفسه فإذا هو في جوفه لا يرى إلا الظلمة الحالكة، التي تبعث على التسليم بالضياع والهلاك..لكن الأمل في جوفه كان أكبر أكبر مما في جوف الحوت من ظلام، فناجى ربه واستنجد بخالقه أن يرده إلى الحياة مرة ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) [الأنبياء].

ويبلغ أبو الأنبياء إبراهيم من العمر مبلغه، فإذا هو شيخ هرم كبير، لكن هَرمه لم يمنع أمله في أن يهب الله له غلامًا من الصالحين:

«رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ» [الصافات].

ويستجيب الله تعالى لطلبه ويلبي له أمله فتبشره الملائكة الذين استضافهم بغلام عليم إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) [الحجر].

وعلى دربه محاكيًا كان نبي الله زكريا عليه السلام: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) [مريم].

وكان جواب السماء:(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) [مريم].

ويُعلنها موسى عليه السلام في وجه البائسين اليائسين الذين أحاط بهم الهلاك، وحاصرهم الموت، وفقدوا الأمل في النجاة والحياة، فلم يجدوا غير كلمات الإحباط لتعبر عن حالهم، ومكنون نفوسهم، إنهم جميعًا يرددون يائسين مرعوبين: إنا لمدركون!.

لكن موسى في يقينه العظيم، يردع هذه الظنون، ويطيح بأشباح الخوف التي تكاد أن تهلكهم قبل أن يصيبهم بطش فرعون، فيعلن ثقته العظيمة بربه: كلا إن معي ربي سيهدين!.

«كلا، في شدة وتوكيد، كلا لن نكون مدركين، كلا لن نكون هالكين، كلا لن نكون مفتونين، كلا لن نكون ضائعين (قَالَ كَلَّا

إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) [الشعراء].

بهذا الجزم والتأكيد واليقين.

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون:

فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ (٦٣) [الشعراء].

ولا يتمهل السياق ليقول إنه ضرب بعصاه البحر. فهذا مفهوم. إنما يعجل بالنتيجة:

«فانفلق. فكان كل فرق كالطود العظيم»(٦١).

لم يكن موسى عليه السلام يعرف كيف يكون المخرج من هذا البلاء والهلاك التي تؤكد العين والحال وقوعه..لكنه كان مؤمنًا موقنًا أن الله أقوى من كل شيء، وأنه لن يتركه أو يخذله..هكذا يعلمنا القرآن ويلهمنا مشهد بني إسرائيل وانهيارهم أمام ثقة موسى ويقينه..إنه مهما أحكمت البلايا قبضتها عليك، وتلبس بك مصابها..فلا تفقد الأمل أبدًا في الخلاص، ولتردد مع هذا المؤمن الواثق قوله:

إن مسنا الضر أو ضاقت بنا الحيل
فلن يخيب لنا في ربنا أمل

61 في ظلال القرآن لسيد قطب.

وإن أناخت بنا البلى فإن لنا
ربا يحولها عنا فتنتقل
الله في كل خطب حسبنا وكفى
إليه نرفع شكوانا ونبتهل

إن القرآن ذم اليأس وامتهن القنوط، وبين في آياته الهادية، أنهما ليسا من صفات المؤمنين..

قال تعالى: (إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) [يوسف].

(قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) [الحجر].

***

همة تقهر المستحيل

أصحاب الهمم العالية هم من يتحدون العوائق، ويقهرون المستحيل، ولا يعرف قاموسهم معنى كلمته..إنهم يهوون المخاطرة والمغامرة، ويستلذون امتطاء الصعاب والأهوال.!.

تحتشد الهمة العالية بكل طاقاتها، إذا وجد الداعي الذي يُثير كوامنها..فإذا أثيرت..دخلت الميدان قوية جسورة، ولا تلبث إلا أن تنتصر..وتحقق العظائم!.

سئل (نابليون)..كيف استطعت أن تولد الثقة في نفوس أمراء جيشك؟!

فأجاب: كنت أرد على ثلاث بثلاث

من قال: لا أقدر.. قلت له: حاول

من قال: لا أعرف.. قلت له: تعلم

من قال: مستحيل.. قلت له: جرب.

في رائعة (الأيام) لطه حسين، يحكي بدايته مع الجامعة وانصرافه عن الأزهر ، حين شعر بأنها تلبي آماله وترضي طموحاته ..كان يستمع لمحاضراتها ، ويصحبه زملاؤه لقاعاتها ، وأخطأ مرة هو وصديقه فدخلا محاضرة عن الأدب الفرنسي وهما لا يعرفان عن الفرنسية شيئًا ، فلم يستوعبا مما قال المحاضر إلا كلمة واحدة هي

(لافونتين)، وهو الشاعر الفرنسي الشهير ، وظل (طه حسين) وصديقه ساعتين كاملتين وهما في قمة الغيظ والضيق حتى انتهت المحاضرة وأُطلق سراحهما ، فسميا هذه القاعة فيما بعد باسم (سجن لافونتين) وتحدد بعد هذه الحادثة مصير السجينين، فأما صديق طه فسببت له الحادثة عقدة نفسية هجر بعدها الجامعة كلها ..! أما (طه حسين) وهو طاحب الإرادة القوية ، والهمة العالية ، فخرج من المحاضرة وهو عازم على ألا يعود إلى هذا السجن مرة أخرى ، ولكن ليس بالفرار كما فعل صديقه ، وإنما بتعلم الفرنسية وإجادتها الحديث بها.

وتعلم مبادئها الأولى، وواصل الطريق فيها حتى نال الدكتوراه من السربون، بل الأكثر من هذا أن تزوج فرنسية وهي (سوزان) التي وقفت بجواره وساعدته وزللت له كثيرًا من الصعاب في رحلة نبوغه، حتى صار عميد الأدب العربي!.

ودائمًا ما تجد هذا النجاح المعجز من نصيب أصحاب الهمم الكبيرة، الذين يخوضون معتركهم مع المستحيل حتى يسلم لهم قياده، وتلين لهم قناته..وما حدث لعميد الأدب العربي في قهر اللغة، حدث للمؤرخ والأديب المحقق الدكتور (أحمد أمين) ففي أحد مقاهي القاهرة كان يجلس مع صديقه أحمد بك أمين، الذي كان يحمل الاسم نفسه، وكان من كبار رجال التعليم، وكان

مؤرخنا الكبير في ذلك الوقت شابًا أزهريًا تخرج في مدرسة القضاء الشرعي وعمل معيدًا بها، وكان يدرس علم الأخلاق على طلبتها معتمدًا على مذكرات ترجمها عن الإنجليزية عميد المدرسة، لأنه لا علم له بأية لغة.

وبينما يحدثه صديقه (أحمد بك أمين) أشار له: أنه قد عثر على كتاب عن التاريخ والفقه الإسلامي، ونظام الحكم في الإسلام باللغة الإنجليزية لمستشرق أمريكي اسمه (ماكدونالد)، وهو كتاب فيه إنصاف للإسلام، شعر (أحمد أمين) أن هناك عالم يجهله، وأنه يفوته الكثير والكثير من هذه الجهالة المفرطة باللغة، لقد استثار الحديث مشاعره، وتجددت أزمته مع نفسه وهو يرى زملاءه يعدون محاضراتهم بأنفسهم ويستفيدون من المراجع الأجنبية التي يقرأونها بكل سهولة، فاستفزه الموضوع، وقال لأحمد بك أمين: هل تستطيع أن تذهب معي الآن إلى المدرسة (يرليتز) لأرتب دروسًا لي في الإنجليزية؟ فقبل وأقسم على نفسه أن يتعلم وأن يقرأ هذا الكتاب بلغته التي كُتب بها وذهبا إلى المدرسة ورتبا دروسًا ثلاثة بمائة وخمسين قرشًا في الشهر، واشترى الكتاب الأول، وتولت تعليمه سيدة إنجليزية يظهر عليها أنها فقيرة الحال، وبذل في ذلك مجهودًا شاقًا فكان يقرأ في البيت، ويحفظ في الطريق ويذاكر إذا كان مراقبًا في الامتحان، أو مشرفًا على حصة ألعاب رياضية، ثم وفق

بعد ذلك إلى سيدة إنجليزية أخرى كان لها أعظم الأثر في نفسه، وكانت مس (بور) سيدة في نحو الخامسة والخمسين من عمرها، ضخمة الجسم مستديرة الوجه، يوحي منظرها بالقوة والسيطرة، بسيطة في ملبسها وزينتها، مثقفة ثقافة واسعة، تجيد الإنجليزية والفرنسية والألمانية، عرفت الدنيا من الكتب ومن الواقع، أقامت في فرنسا وألمانيا، وأمريكا، فكملت تجاربها واتسع أفقها، حضرت إلى مصر ووافقها جوها فأقامت فيها ولم يكن لها من المال ما يكفيها للإقامة طويلًا، ابتدأ أمين يدرس معها الجزء الثالث من سلسلة كتب (بيرليتز)، يقرأ فيه وتفسر هي له ما غمض عليه وتصلح له ما يُخطئ فيه، ثم يضع الكتاب ويحدثها وتحدثه في أي موضوع آخر يعرض لهما، ويستمرا على ذلك نحو الساعتين يتكلم كثيرًا وتتكلم قليلًا، ثم كانت تدعو بعض أصحابها الإنجليز من رجال ونساء إلى الشاي، وتدعوه معهم ليتحدث إليهم ويتحدثوا إليه، فيسمع لهجاتهم ويتعود سمعه نطقهم، ويصغي إلى آرائهم وأفكارهم ويقف على تقاليدهم، كما أرسلته إلى سيدة إنجليزية صديقة لها كبيرة مريضة، ليلزمها ويتحدث إليها، وتوثقت الصلة بينهما حتى صار وكأنه أحد أفراد أسرتها، كما كانت لا تُعني به من ناحية اللغة الإنجليزية وآدابها فحسب، بل كانت تشرف على سلوكه وأخلاقه»

يقول عنها في مذكراته:

«لازمتها أربع سنوات استفدت خلالها كثيرًا من عقلها وفنها! فماذا كنت لو لم أجتز هذه المرحلة؟ لقد كنت ذا عين واحدة، فأصبحت ذا عينين، عربية وأوروبية، وكنت أعيش في الماضي، فصرت أعيش في الماضي والحاضر، فأنا مدين في إنتاجي الضعيف في الترجمة والتأليف والكتابة لهذه المرحلة بالذات بعد مراحلي الأولى»(٦٢).

وبهذه الحماسة التي تأججت شرارتها على المقهى، تفتح لأحمد أمين عالمًا آخر، أفاد منه إفادة بالغة، وعرف كثيرًا مما لم يكن يعرف، وكان له أثره في تكوينه الثقافي والمعرفي.

ومحنة اللغة التي اجتازها كل من (طه حسين) و(أحمد أمين) قد سبقهما إلى اجتيازها الإمام (محمد عبده)، بعد أن كانت أمامه عائقًا كبيرًا يصعب اجتيازه، فقد عاد من المنفى وعين قاضيًا بالمحاكم، ووجد نفسه في موقف مشابه، فهو بين قضاة يجيدون الفرنسية ويتفاخرون بقراءاتهم في القانون الفرنسي وشروحه، فلم يرض لنفسه أن يكون أقل منهم رغم أنه كان قد يئس من تعلم الفرنسية خلال إقامته في باريس مع أستاذه جمال الدين الأفغاني، ولم يقل لنفسه: لقد حاولت وفشلت، وإنما استدعى معلمًا لتعليمه الفرنسية وسهر الليالي يحفظ قواعدها وتعبيراتها وخلال فترة

62 حياتي لأحمد أمين- ط مكتبة الأسرة.

قصيرة أجادها وأصبح يُسافر كل سنة إلى جينيف وباريس ليستمع إلى المحاضرات العامة في جامعاتيهما.

***

الفرار من الأقدار!

مهما حاولت الفرار من قدرك فإنه مصيبك، لأن الله تعالى كتبه عليك وقدره لك.. وقد تفر منه وأنت ذاهب إليه بقدميك من حيث لا تدرى.!.كثيرًا ما كنت أسمع من الوعاظ على منابرهم وهم يروون قصة ملك الموت مع أحد وزراء سليمان عليه السلام، فقد ذكر أحمد في الزهد وابن شيبة في مصنفه أن وزيرًا جليل القدر كان عند داود عليه السلام، فلما مات داود صار وزيرًا عند ولده سليمان، فكان سليمان عليه السلام جالسًا في يوم من الأيام في مجلسه ساعة الضحى وعنده هذا الوزير، فدخل عليه رجل فسلّم عليه وجعل هذا الرجل يحادث سليمان ويحدّ النظر إلى هذا الوزير، ففزع الوزير منه، فلما خرج الرجل قام الوزير وسأل سليمان وقال: يا نبي الله! من هذا الرجل الذي خرج من عندك؟ قد والله أفزعني منظره؟

فقال سليمان: هذا ملك الموت يتصور بصورة رجل ويدخل عليَّ، ففزع الوزير وبكى وقال: يا نبي الله أسألك بالله أن تأمر الريح فتحملني إلى أبعد مكان إلى الهند، فأمر سليمان الريح فحملته، فلما كان من الغد دخل ملك الموت على سليمان يُسلم عليه كما كان يفعل، فقال له سليمان: قد أفزعت صاحبي بالأمس فلماذا كنت تحد النظر إليه؟!

فقال ملك الموت: يا نبي الله إني دخلت عليك في الضحى، وقد أمرني الله أن أقبض روحه بعد الظهر في الهند، فعجبت أنه عندك، قال سليمان: فماذا فعلت؟ فقال ملك الموت: ذهبت إلى المكان الذي أمرني بقبض روحه فيه فوجدته ينتظرني، فقبضت روحه؟

القصة تنبئنا.. أن الفرار من الأقدار محال..

وإذا لم يكن من الفرار بد..فاعلم أنك تفر إليها وليس منها!.

ويحضرني قول أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) ﵁ حينما خرج ذاهبًا إلى بلاد الشام، وكان معه بعض الصحابة، وفي الطريق علم أن مرض الطاعون قد انتشر في الشام وقتل كثيرًا من الناس، فقرر الرجوع، ومنع من معه من دخول الشام، فقال له الصحابي الجليل أبو عبيدة بن الجراح ﵁: أفرارًا من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فرد عليه أمير المؤمنين: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! ثم أضاف قائلًا: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله؛ أرأيت لو أن لك إبلا هبطت واديًا له جهتان: إحداهما خصيبة (أي بها زرع وحشائش تصلح لأن ترعى فيها الإبل)، والأخرى جديبة (أي لا زرع فيها، ولا تصلح لأن ترعى فيها الإبل)، أليس لو رعيت في الخصيبة رعيتها بقدر الله، ولو رعيت في الجديبة رعيتها بقدر الله؟(٦٣).

---

63 البخاري.

وهذا المعنى ما وجدته في قصة المصلح العبقري الذي فر في صباه من العلم وحلقاته، ليصير فيما بعد إمام الدنيا وسيد العلماء!.

لقد وجد في حياته من أحبطه وعقده من التعليم والدرس..فلم يطق صبرًا، ولم يتحمل هذا الجو المشحون بالصعوبة والغموض والتقعر، فعزم على الفرار من هذا الطريق، والتمرد عليه وتحويل حياته وجهة أخرى..لكنه لم يكن منه.. وإنما كان إليه!.

في تلك البيئة الفقيرة المعتمة التي تشتد على أصحابها بؤسًا وشقاءً..استطاع هذا العبقري الفذ أن يخرج إلى الدنيا حاملًا بواعث النهضة ومعالم التنوير..وبقدر هذه الألمعية الفريدة والنبوغ المتوهج، فإن كثيرًا من العقبات واجهت طريقه إلى مستقبله الموعود، وكثيرًا من عوامل الإحباط أثنته عن بغيته، سواء من داخل نفسه أم من غيره، لكن الأقدار قالت كلمتها، وكانت على موعد مع هذا العملاق الكبير!

إنه الأستاذ الإمام (محمد عبده) الذي قال عنه موقظ الشرق (جمال الدين الأفغاني) حينما نفي من مصر: «تركت فيكم محمد عبده وفيه الكفاية لمصر»

وقال: «تركت فيكم محمد عبده وهو أعز لمصر من أسطول»

وتندهش حينما تعلم أن هذا الرجل الذي صوره (جمال الدين)

بأنه أعز لبلاده من أسطول، ونعته شيخنا (الغزالي) بالرجل الضخم.. كان في صباه كارهًا للعلم مبغضًا لأهله، فارًا من القراءة نافرًا من الكتب.!.

إلى أن قيض الله تعالى في طريقه، من أزال هذه الوحشة من قلبه، ومحا من طريقه شوائب الإحباط، وحبب إليه العلم والقراءة التي كان يلعنها ويلعن المشتغلين بها.!.

لولا هذا الرجل في حياة الإمام (محمد عبده) لخسرت مصر كثيرًا من معالم النهضة التي مرت بها، ولخسر كثير من المصلحين والرواد، من توجيه هذا الرائد الكبير والمصلح الحكيم.

وقد تأسى حينما تعلم أن هذه القيمة الكبيرة وهذا العَلَمُ الفذ، كان مقدرًا له أن يكون فلاحًا مثل إخوته الكبار.. يزرع الأرض ويحرثها، لولا أن لمس أبوه نبوغه المبكر، وذكاءه الذي شهد له به كل من لقيه وجلس إليه..لقد رأى والده أن يهبه للعلم، رغم ما كان يقاسيه من ويلات العوز والحاجة، ولكنه عزم على قهر الفقر الذي يحول بينه وبين ما يرجوه في ولده..

وشب (محمد عبده) لا ليكون عالمًا أو مصلحًا ومجددًا دينيًا فحسب، وإنما خرج كذلك ليكون زعيمًا وطنيًا له دوره المشهود في النهضة الوطنية الحديثة، إن لم يكن رائدها..

وفي حياته نرى أدواره السياسية والفكرية المتعددة التي جعلته بتعبير بعض الباحثين: بمثابة الأب الروحي لكل الذين نفذوا خطوات إصلاحية في المجتمع المصري من بعده..

أما كفاحه ونضاله فقد كان حلقات متواصلة تشهد بزعامة وطنية فريدة، لقد سجن ونفي مع العرابيين، وقاوم سياسة الاحتلال البريطاني في وادي النيل، وندد بالاتفاق الودي المعقود بين إنجلترا وفرنسا على حساب الشعوب العربية، وعارض مطامع الخديو عباس، وفضح بعض ما اعتبره مساوئ حكم (محمد علي)، ودعا إلى إنشاء مؤسسات المجتمع المدني، وإلى إنشاء الجامعة المصرية، وبذل الجهد في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية، وسعى إلى إصلاح الأزهر، ودأب على إيقاظ الوعي القومي الصحيح المتمثل في أداء الواجب نحو الأمة والاعتزاز بكرامة الإنسانية، وبذل جهده ووقته في سبيل بعث الروح الإسلامية الأصيلة، مناديًا بتحرير الفكر من قيد التقليد، وتطهير الإسلام من أوهام العوام، وتصفية العقيدة من شوائب الجهالة.

تعلم محمد عبده القراءة والكتابة في منزل أبيه، ولما حفظ القرآن حمله والده حتى يجوده في المسجد الأحمدي، وكان ذلك في عام ١٢٧٩هـ وبعدها بسنتين جلس في دروس العلم وبدأ بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في مسجد الأحمدي بطنطا، وقضى سنة

ونصفًا لا يفهم شيئًا لرداءة طريقة التعليم، لأن المدرسين كانوا يلقون عليهم اصطلاحات نحوية وفقهية لا يفهمها هو ولا غيره من الطلاب، كما لا يجشمون أنفسهم عناء تفهيمها لهم..حتى دب إليه اليأس من النجاح وهرب من الدروس، لدى أخواله مدة ثلاثة أشهر، ثم عثر عليه أخوه بعدها فأخذه عنوة إلى المسجد الأحمدي، وأراد أن يُكرهه على طلب العلم، ولكنه تغلب على أخيه وأراد الرجوع إلى بلدته (محلة نصر) حتى يعمل في زراعة الأرض كبقية أقاربه.!.ورجع فعلًا بنية ألا يعود للعلم وطريقه مرة أخرى وتزوج عام ١٢٨٢هـ.

ولم يمهله أبوه بعد زواجه بأربعين يومًا حتى ألزمه بالذهاب مرة أخرى لطلب العلم، وظن محمد عبده أن علاقته بالتعليم وطلبه قد ولت، وأن مصيره تحدد ليكون فلاحًا في الأرض، ولكن الوالد البصير لم تخمد في نفسه الرغبة القوية في أن يرى ولده عالمًا من العلماء، وبعد احتجاج وممانعة، لم يجد (محمد عبده) مخرجًا من طاعة والده، الذي أحضر له فرسًا مع أحد أقاربه ليشيعه إلى محطة القطار بإيتاي البارود ليذهب إلى طنطا، ولكن هواجس التمرد تيقظت في نفس الفتى الشاب، فجارى قريبه بحجة الحر الشديد، وأعلمه أنه سيذهب إلى محطة القطار من صباح الغد، وتركه وذهب إلى (كنيسة أورين) وهي القرية التي يسكن بها أخواله..

وبقي في هذه القرية خمسة عشر يومًا..تحولت فيها حياته وتبدلت فيها رغبته واهتمامه..فماذا حدث من أمره؟!

مع أحد أخواله وهو الشيخ درويش، من رجالات الصوفية، ولديه علم كثير، فهو يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث، ويجيد حفظ القرآن وفهمه..استطاع هذا الشيخ أن يغير مسار ذلك الشاب اللاهي الكاره للعلم والمبغض لطريقه..فقد جاءه صبيحة الليلة التي باتها في الكنيسة، وبيده كتاب يحتوي على رسائل الشيخ (محمد المدني) شيخه في التصوف، والذي أخذ عنه العلم والطريقة الشاذلية، وطلب الشيخ درويش من (محمد عبده) أن يقرأ له بحجة أنه ضعيف البصر..لكن (محمد عبده) الذي أصابته عقدة القراءة والعلم دفع طلبه بشدة، وأخذه الغضب، فلعن القراءة ومن يشتغل بها، فوضع الكتاب بين يديه، فإذا به يرميه بعيدًا عنه.!.

لم يغضب الشيخ من سلوك الفتى الشاب، وابتسم له وأخذه بشيء من الحلم، ولم يزل به حتى أخذ الكتاب وقرأ منه بضعة أسطر، واندفع الشيخ يفسر له معاني ما قرأ..وجاءه صحبة من الشبان يدعونه إلى اللعب بالسلاح وركوب الخيل والسباحة في النهر، فرمى الكتاب وذهب معهم.. ثم جاءه الشيخ درويش بعد العصر بالكتاب نفسه، وألح عليه أن يقرأ له شيئًا منه، فقرأ ثم تركه مرة أخرى وذهب للعب، وفي اليوم الثاني فعل مثل ما فعل،

أما اليوم الثالث فقد ظل (محمد عبده) يقرأ له في الكتاب والشيخ يشرح له ما خفي عليه من معانيه لمدة ثلاث ساعات لم يمل فيها.

ويبدو أن روحانية الكتاب وبركة مؤلفه، قد لمست شغاف قلبه، ووجد فيه ألفةً لم يألفها من قبل مع غيره من الكتب، فطلب منه أن يُبقي الكتاب لديه، ومضى يقرأ فيه، وكلما وجد عبارة لم يفهم معناها وضع عليها علامة حتى يسأله عنها، إلى أن جاء وقت الظهر، حتى وجد في نفسه عزوفًا كبيرًا عن اللعب.!.

وكان الكتاب عبارة عن رسائل تحتوي على بعض معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق، وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا.. ولما جاء عصر ذلك اليوم سأل الشيخ عما لم يفهمه، فأبان له المعاني الخافية، وتبدى السرور في نفس الشيخ درويش، فرحًا مما وجد لدى الفتى الشارد من تغير الحال والرغبة في المطالعة والفهم.!.

ولم يمر اليوم الخامس حتى كان أبغض شيء إليه ما كان يحبه، وأحب شيء إليه ما كان يبغضه من مطالعة وفهم، كما كره صورة أترابه من الشباب الذين كانوا يدعونه للمرح ويزهدونه في عشرة الشيخ، بل على حد تعبيره، كان يفر منهم فرار السليم من الأجرب!.

وفي اليوم السابع أراد الفتى أن يتعرف أكثر على حياة الشيخ، ويسير على طريقته الصوفية، فسأله ما هي طريقتكم فقال له: طريقتنا الإسلام، فقلت: أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين؟

قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب.!. ويصف الأستاذ الإمام تأثره بهذه الكلمات فيقول:

«هذه الكلمات كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم..متاع تلك الدعاوى الباطلة، والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون، وإن كنا في غمرة ساهية.

سألته ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال: لا ورد لنا سوى القرآن، تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع من الفهم والتدبر، قلت: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئًا؟ قال: أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل، وإذا خلوت فاذكر الله، على طريقة بينها لي، وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن، فلم تمض عليَّ بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقًا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرًا، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرًا ... وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد،

وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد إمامًا يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد.. هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي، وهو الشيخ (درويش خضر) من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان غاب من غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أوِدع في فطرتي.

وفي اليوم الخامس عشر، مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني أن والدتي ذهبت إلى طنطا لتراني، فعلمت أنها ستقول لوالدي: إنني لا أزال في بلدة الكنيسة، فأصبحت مبكرًا إلى طنطا خوفًا من عتاب الوالد واشتداده في اللوم؛ لأنني لو كنت أقمت له ألف دليل على أنني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع»(٦٤).

وانطلق الأستاذ الإمام بعدها إلى طنطا، ومن طنطا إلى الأزهر، واستمرت علاقته بالشيخ درويش الذي كان يشجعه على تعلم المنطق والحساب ويقول له: إن طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان!

٦٤ عبقري الإصلاح محمد عبده - عباس محمود العقاد.

وعبر هذه العلاقة الفريدة، والطريقة الحسنة الجميلة، ترى كيف استطاع الشيخ درويش أن يُهيئ هذا الفتى الكاره للعلم ودروسه.. ليأخذه رويًا رويًا حتى تعلق قلبه بالفهم والشرح..ولولا هذا التشجيع من الشيخ، لما تمهدت نفسه لقبول العلم والسفر للدراسة بالمعهد الأحمدي والأزهر..حتى وإن أكرهه أبوه، فسوف يذهب إلى تلقي العلم، ولكن عقله وقلبه سيظلان مغلقين عن استيعاب أي شيء يلقى عليه.. إن العقدة التي أصابته من القراءة والكتب، كانت شيئًا مخيفًا، حتى أنه أصبح لا يطيق ذكرهما أو سماع شيء عنهما.. بل صار يلعن العالمين والمتعلمين والقراءة والقارئين.. وحينما أعطاه الشيخ درويش كتابه رماه من يده وأعرض عنه..

لكن الشيخ درويش ببصيرة الصوفي الحصيف الخبير بأسرار القلوب، استطاع أن يصل إلى قلبه، ويأسره بالرقائق الرفيعة، وبالمحاولة تلو الأخرى، تمكن من تغيير هواه، لينفتح قلبه على عالم كان قد استعصى عليه من قبل، حتى صار كما قال الأستاذ العقاد: عبقري الإصلاح والهداية!.

***

من القصار إلى الرشيد!

رحل أبوه عن الدنيا وتركه يتيمًا وحيدًا ليس له إلا أمه المسكينة التي جعلت منه أملها في العيش وكسب القوت.!.

أرادت الأم أن يتحمل هذا الصبي مهنة تدر عليه وعليها ما يكفيهما ويصونهما في الحياة..وليس سبيل لهذا إلا أن تذهب به ليتعلم مهنة في صباه..فكانت تذهب به إلى القصار(٦٥) ليعاونه ويتشرب مهنته..

ولكن الفتى الناشئ، كان له هوى آخر ورغبة مختلفة..إنه يحب العلم والعلماء ويهوى دروسهم، ..فكان يفر من القصار ويحضر مجالس (أبي حنيفة النعمان) وكانو أبو حنيفة يعنى به لما يرى من حرصه على العلم، وتأتي الأم مهرولة وراءه حتى ترده إلى القصار.. ويكرر الهروب مرة أخرى، وتكرر الأم رده..ولما ملت منه ذهبت لأبي حنيفة وقالت له: هذا غلام يتيم وليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي..فدعه يكسب دانقًا(٦٦) كل يوم يعود به على نفسه.. فقال لها أبو حنيفة: إني أرى في ابنك عقلًا فدعيه يطلب العلم..وما يدريك لعله يأتي يوم فيأكل الفالوذج بدهن الفستق(٦٧).

65 القصار : هو المبيض للثياب وهو الذي يهيئ النسيج بعد نسجه ببله ودقه بالقصيرة وهي خشبة.

66 الدَّانِقُ : سُدسُ الدرهم.

67 وهي أكلة في ذلك الزمان لا يأكلها إلا الخلفاء والوجهاء لندرتها وغلو ثمنها.

نعم دعيه يطلب العلم..

من يقول هذا هو إمام المسلمين (أبو حنيفة) صاحب العقل الجبار والفكر الوقاد، والبصر النافذ ولا يمكن للأم أبدًا أن تخرج هذه الكلمات من مثل أبي حنيفة، ولا تجد صدىً في وجدانها، وهي التي تبحث عن مصير في هذا الدنيا لغلامها اليتيم..بل لا يمكن أبدًا لهذه الكلمات أن يسمعها غلام صغير من فم هذا الإمام الكبير، دون أن يجد الهمة العالية في نفسه تحصيل علمه والأخذ عنه والاجتهاد في درسه.

ولم يقف أمر هذا المشجع الكريم عند حد الكلام فحسب..بل تعداه ليشجعه بالمال أيضًا، فمد أبا يوسف وأمه بماله حتى يُعينهم على الحياة، ويوفر لهذا الغلام حياة طيبة يستطيع معها أن يتقوى على طلب العلم.

يقول أبو يوسف:» فجعلت أتعاهد مجلس أبي حنيفة، وفي أول يوم أتيته جلس معي حتى انصرف الناس، فدفع لي صرة فيها مائة درهم، وقال لي: الزم الحلقة وإذا نفذت هذه فأعلمني، فلزمت مجلسه فلما مضت مدة يسيرة دفع لي صرة أخرى فيها مائة درهم، ثم كان يتعاهدني فما ترك لي خلة فنفعني الله بعلمه، حتى تقلدت القضاء زمن الخليفة الأموي، ثم في زمن هارون صار لقبي قاضي القضاة، لأني كنت أرسل القضاة إلى الأقاليم، وكنت أجالس

الرشيد فبينما أنا ذات يوم عنده، إذ أوتي بطعام فقال لي:كل من هذا يا أبا يوسف، فإنه لا يصنع لنا في كل وقت قلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: هذا الفالوذج بدهن الفستق!

فتبسمت: فقال الرشيد: مالك تبتسم؟

فقلت: لا شيء أبقى الله أمير المؤمنين

وألح علي وقال تخبرني. فقصصت عليه القصة فقال:

إن العلم ليرفع وينفع في الدنيا والآخرة

ثم قال: رحم الله أبا حنيفة لقد كان ينظر بعين عقله لا بعين رأسه»(٦٨).

كم من النوابغ تأكل الحياة نبوغهم، لأنهم لم يجدوا من يرعاهم ويوفر لهم لقمتهم، فتفترسهم الحياة بهمومها وأتراحها..وتصهرهم بأتونها بحثًا عن القوت والرزق..إنه معترك الحياة الذي وجد فيه أبويوسف من يُعينه عليه ويصد عنه لسعه وعاصفته..وأنقذ أبوحنيفة هذا الفتى النابه، لينفع به الدنيا والدين..

ولكن قل لي بالله عليك..ماذا لو لم يكن هناك مثل هذا الإمام الإنسان..ماذا ساعتها سيكون مصير أبي يوسف..؟! لاشك أنه سيكون قصارًا لا يسمع به أحد، ولا يُذكر من أمره خبر.

---

68 القصة ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد.

أو لعله يلقى في طريقه مثبطًا مقنطًا في ثوب ناصح أمين، يردعه عن رغبته، ويحثه على حرفة القصارة حتى يحصل منها قوته ويأكل بها عيشه..وكان من الممكن أن ينجح ذلك المثبط في إثناء الفتى عن أمله ورغبته لو أنه لعب على وتر آخر، وألهب في فؤاده عاطفته نحو أمه الفقيرة الضعيفة، التي تنتظر منه المال والكسب..لكن الله تعالى أراد به وبأمه الخير..في رعاية الإمام الرحيم.

وتمر الأيام ولا يزال أبو حنيفة يمدح أبا يوسف ويلمح نبوغه، ويحبب إليه العلم والفقه، وفي يوم ما مرض (أبو يوسف) حتى كاد أن يهلك، فذُكر ذلك للإمام أبي حنيفة، فأمر طلابه أن يصحبوه حتى يعودوا أبا يوسف فلما دخل عليه أبو حنيفة ورأى ما به من مرض شديد، قال لما خرج من عنده: إني كنت أرجو لهذا الشاب أن يكون له شأن عظيم في العلم، فذهب أحد أقران الشاب وذكر له مقولة الإمام فيه، وبعد فترة من الوقت شفي أبو يوسف..

فخرج يمشي ذاهبًا إلى حلقة أبي حنيفة فلقيه رجل بالطريق فقال له: إن الإمام أبا حنيفة قال عنه كلامًا طيبًا، فدار في نفسه أنه أصبح عالمًا، فقرر أن يجعل له حلقة خاصة في المسجد نفسه الذي فيه شيخه أبو حنيفة، فرأى الشيخ من بعيد أبا يوسف ولم يعرفه، إذ يظنه ما زال مريضًا، فقال:هل نزل علينا شيخ، فقال تلامذته: لا، فقال: إذا من ذاك الشيخ الذي يجلس هناك، فأخبروه أنه تلميذه

أبو يوسف قد شُفي..فقرر الإمام أبوحنيفة أن يرد غروره و يُبين له أنه مازال طالب علم، فأرسل أحد طلابه للجلوس في حلقته وأن يطرح عليه مسألة أملاها له..

فقال التلميذ لأبي يوسف: ما قولك في رجل أعطى ثوبه لخياط لتقصيره فلما رجع الرجل ليأخذ ثوبه قال صاحب الخياط: إنه لم يأخذ منه الثوب، ثم أحضر رجالًا واكتشفوا وجود الثوب لديه، وقد قام بتقصيره بالفعل... هل يعطي الرجل أجرة الثوب للخياط أم لا؟

فقال: أبو يوسف نعم يعطيه لأنه قصره، فقال له التلميذ: ولكنه كان ينوي سرقته، قال: أبو يوسف إذا لا يعطيه أجرًا فقال له: التلميذ لقد أخطأت.

وبذكائه قال أبو يوسف للتلميذ: من أرسلك، فقال: الإمام أبو حنيفة، فذهب أبو يوسف لشيخه وقال له: يا شيخ أريد أن أسألك في مسالة، وحكى له المسألة نفسها فتجاهله الإمام ثم عاد وكرر سؤاله.

فأجابه الإمام: إن كان الخياط قص الثوب على طول الرجل، فهو لم يكن ينوي سرقته قبل تقصيره، وإن كان قد قصر الثوب على مقاس الخياط نفسه فقد كان ينوي سرقته قبل تقصيره.

وبهذا الأسلوب الرفيق اللين، أوصل الإمام رسالته لتلميذه، حتى يستمر في طريقه الصحيح ولا يتعجل الثمرة قبل أوانها، فهو مازال طالبًا للعلم، أما الدرس فلا يتقلده إلا من كملت عدته.. وقد نجد بعضًا من الأساتذة والمعلمين من يصيبه الحنق والغضب والحقد على تلاميذه، لو رأى من بعضهم بوادر تفوق أو ذكاء، وربما بعض الغرور.. فيتحامل عليهم ويعمل على هدمهم وتعقيدهم، ولو كان بيديه لمحاهم جملة من طريق العلم..لكن أبا حنيفة كان إمامًا جليلًا راقيًا.. ولم يكن مريض النفس خرب الإيمان..بل كان هو نفسه ثمرة من ثمار التشجيع، فقد كان أبوه تاجرًا كبيرًا وكان يعمل معه ويساعده وهو صبي، فيحاور التجار الكبار، ويتعلم أصول التجارة وأسرارها، حتى لفت نظر أحد الفقهاء فقال له: عليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء فإني أرى فيك يقظة وفطنة، ومنذ ذلك اليوم وهب أبو حنيفة نفسه للعلم واتصل بالعلماء ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم في حياته.

***

نصيحة جارحة لكنها دافعة

يقولون: «الشعور بالإحباط هو الإحباط الحقيقي..فما الإحباط إلا شعور»

وهذا الشعور له وجهتان في حياة الناس..أو كما يقال سلاح ذو حدين، فبعض الناس يتخذه طريقًا مختصرًا للضياع والنهاية، وبعضهم يجعل منه نقطة الانطلاق في حياته، فيحول هزيمته إلى نصر، وظلامه إلى نور، وضعفه إلى قوة.

وحينما تستعرض قصة أحد الناجحين، تحمد له تفوقه وإنجازاته.. لكن الشعور يختلف حينما تستعرض قصة محبط دفعه الإحباط للنجاح..إن سهم الإحباط سُلط عليه، ولكنه تفاداه وأفلت منه، واستطاع السير إلى هدفه المنشود.

الأديب الكبير والفيلسوف الراحل (زكى نجيب محمود) كان من الذين واجهوا كلمات المحبطين وتثبيطهم.. فلم تكن مسيرته نحو النجاح والتفوق إلا بسبب كلمة محبطة، سمعها من صديق والده فأججت مشاعره وجرفته إلى ميدان التحدي.. كان في المرحلة الابتدائية يعانى من ضعف الإبصار معاناةً شديدة، وفي يوم من الأيام جاء صديق والده لزيارتهم، وتحدث معه الوالد حول مشكلة ولده وضعف إبصاره، فما كان من الصديق إلا

أن نصحه: بأن يكف عن تعليم ولده في المدارس، لأن ضعف إبصاره، سيحرمه من التعيين ذات يوم من وظائف الحكومة التي هي الهدف الوحيد للتعليم، فإذا كان الطريق إليها مستحيلًا، فلماذا العناء إذا في الدراسة، ولماذا يجهد نفسه في تعليمه والإنفاق عليه؟!، الأولى له أن يوفر ماله لشيء آخر.

كان الفتى يدور حولهما ويستمع حديثهما وهم يتناولون أمره، وكان من ضمن ما سمع، هذه الكلمات القاسية المؤلمة، التي جرحت مشاعره وهزت إحساسه، ولكنها في الوقت نفسه لم تجلب له الإحباط واليأس أوالأسى على علته وحاله، إنها جاءت بنتيجة مغايرة..ودفعته دفعًا لمستقبل كبير، وحركت في دخائله مارد التحدي.. فبعد خمسين عامًا في ميدان الثقافة والفكر، استطاع (زكى نجيب محمود) أن يُثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات والأعمال الفلسفية والأدبية.

يروي لنا هذه الحادثة في كتابه الرائع (قصة نفس) عن هذه النصيحة، وكيف تركت هذه النصيحة في نفسه هذا الأثر الذي غير مسار حياته..فيقول:

«فإذا بهذه النصيحة تؤلمني أشد الألم، وبدلًا من أن تكون سببًا في إحباطي وتثبيط عزيمتي فإذا بها تصبح حافزًا لي على مضاعفة القراءة، لكي أثير الغيظ في نفس قائلها حتى أصبحت القراءة من

حياتي بمثابة الروح من الجسد»

وظل الفيلسوف الكبير يقرأ ويدرس ويتفوق حتى دخل الجامعة، وابتعث إلى بريطانيا، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة، وذاع صيته وكثرت إبداعاته وكتبه، وأصبح فيلسوفا كبيرًا.

وبقدر ما نحمد هذه الروح المقاتلة التي تحدت الإحباط، فإننا لا ينبغي أن نجعلها حالة عامة، ونبني عليها كثيرًا..فليس كل الأبناء والفتيات يسير في وجدانهم وسلوكهم ما سار في نفس الدكتور (زكي نجيب محمود)..فالبعض يتصور أن جرح مشاعر الصغار، وتعييرهم بالفشل يولد فيهم العزيمة والغيرة، ويستحضر همتهم للنبوغ والتفوق!.

❊❊❊

فتاة تعلمنا الإرادة

كانت في سن السادسة ومعها شقيقها الأكبر (محمد) طالب بالمدارس الثانوية ويكبرها بعشر سنين..ألف مجالسة أخته، وجعلها ونيسًا له في مراجعة دروسه ومطالعاته، وكان يقرأ لها كتب الأدب القديمة، أما هي.. فكانت تهتم بذلك وتفهم ما يقوله، بل كانت تحفظ منها ما كُلف هو بحفظه في المدرسة وتسبقه في ذلك، وعشقت القراءة وأحبت المطالعة، فقرأت كثيرًا من الكتب والروايات، مثل كتاب (ألف ليلة وليلة)، وقصة (عنترة بن شداد)، كما قرأت أشعار (عمر بن أبي ربيعة)، و(مجنون ليلى)، و(عائشة التيمورية)، وعنّ لها بعد ذلك أن تكتب قصصًا وتقرض الشعر، فأحضرت كراسة ودونت فيها ما جادت به قريحتها من خواطر وأشعار.

ويومًا ما، دخل عليها شقيقها ومعه ابن عم والدتها (مصطفى أفندي عبد الرازق) فأمسك أخوها محمد كراستها وأخذ يقرأ ما فيها، ووقعت عينه على بعض ما كتبت أخته من أبيات، فإذا به يرمي الكراسة على الأرض، ويرسل ضحكة عالية ويقول في دعابة وسخرية: مالك والكتابة؟ إن هذه اللام لا تجر عربة فقط، وإنما تجر حمارًا أيضًا..يشير إلى خطأ نحوي في بعض الأبيات،

ودُهشت لما يقوله أخوها، وخجلت من تهكمه على كتابتها، وكاد الخجل يقتلها لولا أن عاجلها مصطفى أفندي بموقف يخالف موقف الساخر الضاحك..لقد تناول الكراسة وقرأ ما فيها..وقال لها في شيء كثير من التشجيع: (ولا يهمك كلامه.. واعلمي أنك لو تعلمتي فلن يستطيع أحد منا أن يجاريك في الكتابة)!.

ثم أرسل لها كُتب النحو لتتعلم منها قواعده..فأخذتها وفهمتها وطبقتها، ولكن تلك الكلمات التي نطق بها مصطفى أفندى، لم تمر على خاطرها مرور الكرام، وإنما كان لها معها شأن آخر.

ففي كتابها الجسور (تاريخي بقلمي) تشير إلى هذا الأمل الكبير الذي أطلقته في نفسها هذه الكلمات فتقول:

«واتجه فكري في ذلك الوقت إلى تحقيق ما قاله ذلك القريب، والالتفات إلى التعليم وترك قراءة القصص والروايات»

وكانت هذه الكلمات بداية الانطلاق لعملاق الإرادة في نفس هذه الفتاة الأبية..هذا العملاق الذي ولد مبكرًا ولم ينتظر حتى تكبر ليستعرض قدراته.!.

إنها (نبوية موسى) رائدة تعليم الفتيات في مصر، وأول فتاة مصرية تنال شهادة البكالوريا عام ١٩٠٧م، والتي جعلت من التعليم قضية عمرها، وكافحت في سبيله في كل مراحل حياتها،

لأنها كانت تراه الطريق الوحيد لبناء نهضة يعز بها وطنها، وينال مكانته اللائقة.

لقد بهرتنا نبوية موسى، وعلمتنا معنى الإرادة والتصميم عبر مواقفها المشرفة، تلميذة ومعلمة وناظرة وامرأة مصرية، لقد كانت حياتها مليئة بعقبات كبيرة..لكنها تبددت كلها أمام الإصرار والثقة والنجاح، والرغبة القوية في صنع مستقبل مبهر براق.

لقد تحدت كثيرين حولها من أجل مستقبلها، وواجهت في سبيل ذلك موروثات اجتماعية خاطئة، ضربت بجذورها في عقول الناس في ذلك الوقت، فحينما أرادت وهي في سن (الثالثة عشر) أن تلتحق بالمدرسة السنية، قامت الدنيا ولم تقعد، وواجهت هجومًا مستعرًا من جميع أفراد عائلتها وأقربائها..تقول:» ولما كاشفت والدتي برغبتي بذلك.. اعتبرته خروجًا عن قواعد الأدب والحياء ومروقًا من التربية والدين، وأخذت تقص الحكاية على أقاربها كأنها أحدوثة، وكان يساعدها على ذلك كل من سمع تلك الرغبة الجامحة..صممت على الرفض..وصممت أنا على تنفيذ رغبتي مهما بلغ الأمر«(٦٩).

واضطرت لإخفاء تلك الرغبة عن أمها مؤقتًا، وحاولت دخول المدرسة السنية دون علمها..فإذا نجحت وقبلتها المدرسة، كان لها

69 تاريخي بقلمي – نبوية موسى.

معها شأن آخر.!.

تكتمت الأمر وشرعت في تنفيذه سرًا، فسرقت ختم والدتها، وذهبت إلى المدرسة، وكتبت طلب التقديم وختمتها بختم والدتها، وتعجب سكرتير المدرسة والمعلمون من جرأتها في تقديمها لنفسها وهي في هذا السن!.

ويبدو أن أخاها محمد برغم صداقته لها وإشراكها معه في القراءة والاطلاع، إلا أنه كان كثير السخرية منها ومن طموحها، ولعله يكون معذورًا في ذلك.. فلا العقل ولا المجتمع ساعتها، يتصوران ما ستكون عليه أخته في مستقبلها!.

تقول: «حاولت أن أتعلم ألف باء اللغة الإنجليزية، مستعينة بالوقت القليل الذي أختلسه من أخي متحملة تمنعه وسخريته مني».. وتمر الأيام، وتجتاز نبوية امتحان القبول وتقبل بالمدرسة حتى أنها باعت بعض حليها لتدفع المصروفات، وجاءت ساعة المواجهة، فحينما علمت أمها بالأمر قالت لها: إذا ذهبتي للمدرسة، فلا علاقة لي بك، ولكن (نبوية) لوحت لها بالمعاش الذي كان يصرف لها فتراجعت الأم، أما أخوها فقال لها: إن دخلتي المدرسة فلن أعرفك، فابتسمت وقالت: لقد نقص من أقاربي إذن واحد، لا ضير في ذلك! فغضب وانصرف.

ولعل القارئ يتعجب من هذه الجرأة الغريبة لفتاة في مثل هذا السن، وفي مثل هذا الوقت الذي كانت فيه الفتاة ممنوعة من كثير مما هي عليه اليوم!..ذلك لأنها تربت منذ صغرها بأسلوب مختلف عن مثيلاتها من الفتيات، وهي تشرح لنا ذلك فتقول:» لعل حريتنا في صغرنا هي التي قوت إرادتنا وجعلتنا أي أنا وأخي نبتعد عن اللهو، ونكد ونعمل فيما نريد، وهذه هي التربية الاستقلالية التي نص عليها علماء التربية على ما أعتقد، ولم تقم بها والدتي لعلم بما ستجنيه منها، ولكنها دفعها الجهل والخوف علينا إلى معاملتنا تلك المعاملة اللينة«(٧٠).

وأمام هذه العقبات.. هل حققت الفتاة ما ترجوه، وما طمح إليه خيالها؟، لقد صارت نبوية موسى في طريق تعليمها، ومرت بكثير من العوائق..لكنها كانت قوية بإرادتها وعزيمتها..فلم يحل بينها وبين أملها عقبة أو مستحيل.!.

وأمام هذا النجاح الكبير.. لابد أن نتساءل، من الذي صنع هذا الإنجاز، وتسبب في نهوض هذه الرائدة الكبيرة التي أفادت أمتها ووطنها؟

ربما يكون تصميمها، أوإرادتها القوية التي أشرت إليها.. وربما يكون حبها الجارف للعلم والتعليم، وربما تكون روح التحدي

70 المصدر السابق.

والعناد الكامن في نفسها..ربما يكون شيئًا من ذلك، لكننا أبدًا لا يمكن أن نغفل دور تلك الكلمات التي داعبت خيالها وطُبعت في وجدانها، ووجهتها إلى عالم آخر..إنها كلمات (مصطفى أفندي عبد الرازق) الذي شجعها وبث فيها الأمل في الوقت الذي داهمتها فيه ضحكات ساخرة.

وبعد نجاحها وتخرجها من مدرسة السنية، تعينت معلمة في مدرسة عباس الأميرية، بمرتب ستة جنيهات، بينما كان مرتب خريجي المعلمين العليا من الرجال اثنى عشر جنيهًا شهريًا، فساءها أن تكون على النصف من الرجال، وأن تعاملها الحكومة وزميلاتها هذه المعاملة، وخاصة أنها تعمل ما يعمله الرجل وتدرس ما يدرسونه.. لماذا إذن تميزهم الوزارة وتعلي أجورهم؟

وعلى ذلك.. قدمت طلبًا للوزارة بالمساواة في المرتب..فكان رد الوزارة:إنها وزميلاتها لم يحصلن على شهادة البكالوريا، ومرحلة الثقافة العامة، فحدثت نفسها:إذا كان هذا هو الفرق، وعليه يكون التمييز، فلماذا لا أتقدم لنيل البكالوريا، حتى لا يكون للوزارة عذر في عدم المساواة.؟!

واطلعت على منهج البكالوريا، وملأت استمارة دخول الامتحان في موعده المحدد، وأرسلتها لوزارة المعارف، وهنا..ثارت ثائرة الرجال، فضجت الدنيا لهذه الحادثة، وتندر رجال الوزارة من

الواقعة، وصارت حديثهم في الغدوة والرواح، واستعظموا على فتاة تعلمت في مدرسة ثانوية، أن تدخل امتحان البكالوريا.. وليت الأمر اقتصر على حديث هؤلاء مع أنفسهم، وإنما جاءها مستر (دنلوب) يومًا في مدرسة عباس، وفي يده استمارتها التي قدمتها وهو يضحك..ودار بينهما هذا الحوار المُحبط، والذي قابلته (نبوية) بكل جلد وصمود.!.

قال لها مستر دنلوب: « يبدو لي أنك لم تقرئي منهج البكالوريا، لو أنك قرأتي ذلك المنهج لما أقدمتي على إرسال طلبك هذا.. قلت: كلا لقد قرأته، وكدت أنتهي من دراسته، قال: إنك واهمة فاستمعي لنصحي، واسحبي هذا الطلب ولا ترسليه مرة أخرى، اللهم إلا إذا وعدتني بأنك ستنجحين، قلت: وهل وعدك أحد ممن تقدموا لهذا الامتحان بنجاحه فيه قبل دخوله؟، قال: ولكنك تلميذتي ويهمني أمرك، قلت: إن الكل تلاميذك يا سيدي ولابد أن يهمك أمرهم بمقدار ما يهمك أمري، قال: إذن فاعلمي بأنك إذا رسبت فستنحط منزلتك في نظري، قلت: إني والحمد لله فوق الخادمات مباشرة، ولا تستطيع أنت ولا غيرك أن تعتبرني خادمة، إني أقف اليوم على الأرض وليس في وسعك أن تحفر تحت أقدامي، فمكانتي في التوظيف لا تحتمل النقصان، قال: إنك عنيدة، ولكني أكرر لك النصح في أن تسحبي طلبك هذا وأن لا ترسليه إلى

الوزارة، ثم خرج دون أن يترك لي وقتًا للإجابة على ما قال، وما كاد يصل إلى الوزارة حتى كان طلبي في إثره!!»(٧١).

أما الطلبة المتقدمون للبكالوريا، فلم يعد لهم حديث إلا عن زميلتهم من الجنس اللطيف، وأخذوا يتقولون عليها بالنكات والأحاديث المحبطة، فيقول بعضهم متهكمًا: بأنها من جميلات الجنس اللطيف وما تقدمت للامتحان إلا لتظهر دلالها وجمالها، ومنهم من أقسم على ضربها عند فشلها وسقوطها في الامتحان، وكانوا يقولون إن سقوطها محتم لا شك فيه، واتهمها الكثيرون بأنها دخلت الامتحان لتظهر جمالها وتبرجها، لأنهم كانوا يتخيلونها فتاة لعوبًا متبرجة..

لم تنته كلمات الإحباط وسهامه عند هذا الحد، حتى تبعتها في لجنة الامتحان..

وشاءت الظروف أن يكون من ضمن المراقبين لها، ناظرة مدرسة السنية، التي كان بينها وبين نبوية موسى شقاق وعناد..فكانت كلما دخلت وخرجت عليها في الامتحان تحييها بعبارات التأنيب والسخرية وتقول لها: إنك مغرورة، ولا شك أنك سترسبين، أو تقول لها: ما الذي حملك على التقديم وتكليفنا بإعداد لجنة خاصة بك؟

71 المصدر السابق.

ولكن نبوية لم تعبأ لكلماتها، وابتعدت عنها حتى لا تصدم بها.. ومر الامتحان وظهرت النتيجة وكانت من الناجحين، وتحقق رجاؤها وأمنيتها، ووجدت الوزارة نفسها مرغمة بقبول طلبها ومنحها المرتب نفسه الذي تعطيه للرجال (١٢ جنيهًا)، وصارت على الدرجات نفسها في وظائفهم.

***

هيلين . . وثلاثية العجز

(هيلين كيلر) معجزة من معجزات الحياة، وأحد الأمثلة البشرية في تحقيق الذات والنجاح رغم العوائق الكثيرة، بل إنها حدث فريد في دنيا الناس قلما أن يتكرر، ورغم ندرته، فإنه شاهد قائم على قدرة بعض البشر على قهر ما يواجههم من عقبات، فهيلين كيلر العمياء والصماء والخرساء قاهرة المستحيل.. التي تغلبت على هذه الثلاثية الكئيبة..واستطاعت أن تقاوم هذه الموجة العتية من العجز الكاسح، وتعيش حياة زاخرة بالعمل والثقافة والعطاء.

ولدت في ريف (إيفين جرين) بولاية (ألاباما) الأمريكية عام ١٨٨٠م، وببلوغها سن تسعة عشر شهرًا أصيبت بالحمى القرمزية والتهاب السحايا الذي تركها عاجزة عن رؤية ما حولها، وعن سماع كلمات العطف والحنان، وحتى عن قول ما تشعر به وما تريده.

عاشت السنوات الأولى من عمرها في وضعٍ مأساوي يصعب فيه التواصل بينها وبين عائلتها التي عاملتها بالكثير من الحنان والشفقة، واستقدم لها والدها وهي في السابعة من عمرها معلمة من معهد (يركينز) للمكفوفين، إنها (آن سوليفان) المعلمة التي استطاعت أن تحقق في (هيلين) إنجازًا كبيرًا أذهل إدراك الحياة!.

كانت (آن سوليفان) صاحبة تجربة مع العجز، فقد فقدت بصرها ثم استعادته بشكل جزئي، بعد عملية جراحية، وقررت إثر ذلك أن تكرس حياتها لمساعدة فاقدي نعمة البصر، وبمجرد وصولها إلى منزل (هيلين)، لم تعجب بالطريقة التي تُعامل بها الأم ابنتها وحنانها الزائد لها، لأنها كانت تؤمن أن الإنسان مهما كان لديه من عاهات فإنه يستطيع أن يتعلم ويصبح إنسانًا عاديًا، حاولت (آن) تعليم اللغة لـ(هيلين) ولكنها تمردت عليها وأصابتها وكسرت أسنانها، فقد كانت هيلين عدوانية شرسة الطباع تحتاج إلى ترويض وكانت كثيرًا ما تتشاجر مع سوليفان

حتى قالت لها والدة هيلين يومًا: هل فرض علينا أن نشهد هذه المشاجرات الفظيعة كل يوم؟

فردت عليها سوليفان: دعيني أقول الصدق يا سيدة كيلر .. منذ سنوات وأنتم تسمحون لهيلين بأن تفعل ما تشاء في كل الأمور.. أما الآن فينبغي عليها أن تتعلم كيف تطيعني وإلا لن أستطيع أن أعلمها..وينبغي أن تكفي أنت والسيد كيلر عن التدخل، وإلا فلن أصل لأية نتيجة مع هيلين..وطلبت فصلها عن العائلة لبضعة أسابيع في بيت آخر، واستطاعت أن تعلمها الكتابة والقراءة حتى قالت لها والدتها: لقد صنعت المعجزات مع هيلين.

ولكن (آن) كانت صارمة لم تيأس، وبدأت في التواصل معها عن طريق الحروف في كفها وتعليمها الإحساس بالأشياء عن طريق كتابة الكف، وبعد مرور عام تعلمت هيلين ٩٠٠ كلمة، وقد كشفت سريعًا عن قدرات مدهشة بالتعلم، وصارت تجيد القراءة بطريقة برايل، وتعلمت قراءة الأبجدية الخاصة بالمكفوفين، وصارت تتصل بالآخرين عن طريقها، وأجادت الطباعة على الآلة الكاتبة المصممة بحروف برايل نفسها.

وفي العاشرة من عمرها، أبدت رغبتها على تعلم الكلام والنطق، فاستجابت المعلمة لطلبها بعد أن لاحظت تمكنها من فهم الأصوات وتمييزها عن طريق لمس حنجرة المعلمة، وتحسس الذبذبات الصوتية بواسطة اللمس.

التحقت هيلين بكلية (رادكليف) ثم بجامعة هارفرد، وكانت أول فتاة تعاني من ثلاث عاهات تلتحق بالجامعة، وكانت معلمتها آن تجلس إلى جوارها وتنقل بإصبعها كل ما يقوله الأساتذة في المحاضرات، وتخرجت من الجامعة عام ١٩٠٤م وحصلت على بكالوريوس علوم في سن الرابعة والعشرين، وتمكنت من الاطلاع على العديد من الكتب، وكتابة المؤلفات والمقالات الخاصة بها.

تمكنت هيلين وهي المحرومة من البصر والنطق والسمع، أن تدرس الحساب، والجغرافيا، والفلسفة، وعلمي الحيوان والنبات،

وأن تتقن الفرنسية والألمانية، واللاتينية واليونانية، إلى جانب الإنجليزية، ثم أصبحت تحاضر في الجامعة، وتكتب للصحف، مع إجادتها لركوب الخيل، والسباحة، والتجديف، وقيادة القوارب الشراعية والدراجات، إلى جانب اهتمامها بالمعوقين وسفرها الدائم من أجل جمع التبرعات لهم، وكانت تجهد عينيها بالقراءة لتنقل لها كل ما تقرأه.

واستمرت علاقة آن بهيلين ٤٩ عامًا، واستطاعت أن تثبت قدرة الإنسان على تحدي المستحيل وكسر العوائق، والوقوف في وجه المصاعب مهما كانت ومهما عظمت، شريطة أن تتوفر له ظروف معينة تعينه على ذلك، ولما سئلت:(آن سوليفان) مرة: كيف بدأت هيلين تتعلم؟ قالت:» كانت تقف معي في أحد الأيام بجوار مضخة المياه عند باب المنزل الخارجي، عندما كان أحد المارة يستخرج الماء ويملأ الدلو الذي يحمله، وأمسكت يد هيلين ووضعتها تحت الماء المتدفق، وبينما الماء البارد يتساقط فيبلل يدها تهجيت على يديها الأخرى حروف كلمة ماء water، ونظرت إلى عينيها فوجدتهما تلمعان ببريق عجيب، لقد نفذت الإشارات الجديدة الى أعماقها، وفجأة انحنت هيلين الصغيرة ولمست الأرض بأصابع يدها وعرفت كلمت أرض Earth بالطريقة نفسها.. وعندما أقبل المساء، كانت قد تعلمت مائة كلمة«

تقول هيليلن نفسها عن ذلك اليوم الذي عرفت فيه كلمة الماء: » أحسست حينها وكأنني أمام شعلة منيرة، فهمت أخيرًا سر اللغة، وأن لكل شيء اسمًا أردت أن أعرف كل شيء يحيط بي «

أحبت هيلين معلمتها سوليفان كثيرًا، وكانت تقدر شخصيتها وما صنعته من إنجاز مشهود في نفسها فتقول: «كانت كلماتي القليلة قد تبددت، وكان عقلي مغلولًا في الظلام، وجسمي النامي تحكمه دوافع حيوانية، ولم تكن الصدفة هي التي حررت عقلي من قيوده، بل إن ذلك يعود إلى مدرسة موهوبة هي «آن سوليفان» التي لم تكن من طراز المدرسات العاديات، وإنما كانت امرأة شابة ذات حيوية ولها خيال منطلق يتلمس تحقيق أحلام كبيرة لكائن أعمى وأصم، لينقله من حياة السكون إلى الحياة الحقيقية، ويجعله نافعًا وإنسانًا فريدًا».

ألفت هيلين ١٨ كتابًا أشهرها: قصة حياتي – العالم الذي أعيش فيه– أغنية الجدار الحجري– الخروج من الظلام– الحب والسلام، كما ترجمت كتبها إلى خمسين لغة.

وأصبحت كاتبة مشهورة واهتمت بذوي الإعاقة، وتعاونت مع (المؤسسة الأمريكية لمساعدة العميان)، كما نادت بحق المرأة في الاقتراع وكانت إحدى الداعيات إلى السلام، والتقت هيلين بالعديد من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، بداية بالرئيس

غروفر كليفلاند وانتهاء بالرئيس ليندون جونسون، بالإضافة إلى الصداقات التي كانت تربطها بالعديد من الشخصيات المشهورة، أمثال ألكسندر غراهام بيل، وتشارلي شابلن، ومارك توين.

هكذا صارت هيلين التي تصف محنتها ورحلتها بكلمات معبرة بسيطة فتقول:

«كان كثير من الناس يؤكدون أنني كائن حي أبله، وكنت كائنًا لم ينتقل من عالم النور إلى عالم الظلام، بل وإنما إلى عالم السكون والحزن «.

ولا يفوتها أن تؤكد لنا أن الحياة لا تنتهي بالبلاء، فهي واسعة فسيحة فيها آمال أخرى، وطموحات متغايرة، فكانت تقول:

«عندما يُغلق باب السعادة، يُفتح آخر، ولكن في كثير من الأحيان ننظر طويلا إلى الأبواب المغلقة بحيث لا نرى الأبواب التي فُتحت لنا»

***

رحلة كتاب!

ومع خالد رحمه الله في قصته مع الحياة، لقد كان يقول: «هناك فئات من الناس يحملهم التصميم وتدفعهم مقاديرهم إلى مواصلة رحلتهم ومسيرتهم مهما بعدت الشقة وكثر العناء..وكنت واحدا منهم»

وقد كان رحمه الله واحدًا من هؤلاء..ولعلنا نرى ذلك في حكاية كتابه الأول الذي دوى في الآفاق وأقام الدنيا وأقعدها، وشغل الساحة الثقافية في مصر حينها..فلم يكن ظهور هذا الكتاب وإخراجه عملًا سهلًا ميسورًا أمام خالد رحمه الله، وإنما كانت هناك عوائق وصعوبات أقل واحدة منها تُحبطه عن مواصلة إنجازه، لكنه تغلب عليها، حتى كان (من هنا نبدأ) الذي كان قضية الساعة في وقته.

ففي عام ١٩٥٠م دفع الكاتب الناشئ وقتها بأولى مؤلفاته إلى المطبعة، لقد أتم تأليفه، وحرص على طباعته في وقت قصير.. ولكن هذه الرغبة قابلها كثير من العقبات..والكتاب كما قلنا أحدث زلزالًا في الحياة الثقافية المصرية، وهللت له أبواق العلمانية، وتصدر صاحبه عالم الشهرة، وفتحت له الدنيا آفاقًا كبيرة في الصحف والمجلات والتأليف والطباعة..وبرغم تحفظي

على الكتاب ومراميه، وبرغم توبة صاحبه من أفكاره، فإني أرصد رحلة ظهوره وما اعتاقه من عقبات صمد في وجهها خالد حتى مثل كتابه بين يدي القارئ..

أما أولى هذه العقبات.. فكانت حينما وقع الكتاب تحت الرقابة، إذ وجد فيه الشيخ الشاعر (محمد الأسمر) الذي فُوض إليه مراجعة الكتاب أنه كتاب ثوري، ورفض نشره، ولم ييأس خالد، فسعى للقاء مدير الرقابة الذي توسم فيه خيرًا لماضيه البطولي ضد الإنجليز، لكن الرجل اعتذر منه، وأخبره بأنه لن يستطيع تكوين رأي مخالف لرأي شيخ أزهري.

وبعد ذهاب وزارة (إبراهيم عبد الهادي) جاءت وزارة (حسين سري) باشا، التي جاءت بمدير رقابة جديد استبشر به خالد، وتجدد في نفسه الأمل مرة أخرى، وذهب للقاء المدير الجديد الدكتور (يحيى الخشاب)، الذي طلب منه خمسة أيام حتى يقرأ الكتاب ويُعطي فيه رأيه، وذهب خالد بعد مضي المدة، ففتح الرجل أدراج مكتبه، وأخرج الكتاب ومعه تقريره عنه وقال له: مبروك!!

وزالت أولى العقبات من طريق الكتاب، فماذا بعد يا ترى؟ لقد انزاحت عقبة الرقابة من طريقه..بعد أن نادت إليها العقبة الثانية، وهكذا العقبات كالخطايا –ينادي بعضها بعضًا.!.!

فمن أين له نفقات النشر من ورق وطباعة؟

وكانت هذه العقبة أشد العقبات التي واجهت خالدًا لأنها لا تحايل فيها أو إقناع، فلك أن تعلم أن راتبه يومها بوزارة المعارف خمسة عشر جنيهًا وأضافت له حكومة الوفد معونة الغلاء فزاد ثلاثة جنيهات، وكان هذا الراتب حسب تعبير خالد نفسه: يطعمنا من اليد للفم..

ورغم هذا الضيق إلا أن خالدًا تحامل على نفسه، وتبرع بمرتب شهر كامل لخدمة المشروع، وعاش بقية الشهر على النسيئة من بقال صديق، وذهب صديق آخر فأقرضه ثلاثين جنيهًا، وذهب لصديق ثالث لتحصيل المبلغ المطلوب، إلى أن أذن الله بالفرج، حيث كان صديقه الأستاذ (محمد سيف) قد شغل وظيفة مصحح بعض الوقت في دار النيل للطباعة، وأخبره أن مديرها رجل رفيع الخلق ويستطيع المساعدة برأيه ومطبعته.. وتم اللقاء وقال له الرجل: من حيث نفقات الطباعة لا تجعلها ضمن همومك ولا اهتماماتك..فإني مستعد أن أطبع الكتاب، ثم نظرة إلى ميسرة، وطلب منه أن يأتي بورق الطباعة والكتاب.

طبع الكتاب وجاءت العقبة الثالثة في التوزيع فلم يكن يدري ماذا يفعل هل يعطيه للمكتبات ويحصل أجره منها فيما بعد، أم يعطيه لشركات التوزيع تقوم بالمهمة..؟

استقر رأيه أن يعطيه للأهرام ولكنها استقلت بعدد النسخ المطبوعة، لأنه كلما كثر المطروح بالسوق كلما أسرعت حركة الكتاب، فكثر المبيع منه، وكثرت بالتالي نسبة شركة التوزيع وعائدها.!.

وجاءت العقبة الرابعة وهي الإعلان عن الكتاب، فلو لم يُعلن عنه فلن يعرفه أحد، ولن يفيد في شيء، والإعلان في حد ذاته يقتضي مبلغًا باهظًا من المال، بينما لا يمتلك خالد في جيبه جنيهًا واحدًا.!.

وجاء الفرج فتبرع الأستاذ (إسماعيل شوقي) صاحب المطبعة بالإعلان هديةً منه للكتاب، ونشر الإعلان في جريدة المصري وكأنه لم ينشر..فلا حس ولا خبر، وهنا تهدأ نفس خالد ويفوض أمره إلى الله، وكاد أن يصيبه الإحباط، لكنه تذكر (برنارد شو) فقد قرأ عنه من قبل في موقف شبيه أنه كان يؤلف الكتب، ويدبج المقالات وينتظر رسالة واحدة تأتيه من قارئ واحد دون جدوى..

ففكر وقدر..ثم ظهرت له فكرة ذكية، إذ راح يمطر الصحف بمقالاته حاملة توقيعه الحقيقي..ثم يتبعها بمقالات تدحض مقالاته الأولى، وتحمل توقيعًا زائفًا ليس لاسمه الحقيقي فيه مكان.

وأخذ راحته في هذه الطريقة، يسب ويشتم ويسخر من هذا الذي

اسمه (برنارد شو)، والذي يتحدى تقاليد الأمة ونظمها وميراثها وحضارتها..وآتت الخطة أكلها، وبدا (شو) يستحوذ على قراء كثيرين، ويتمركز في دائرة اهتمام القارئين والمواطنين.!.!

وخطر في عقل خالد أن يحاكي الفكرة نفسها، ليحرك الكتاب الذي لا يتحرك بين أيدي القراء، ولا تقع عليه العين في زحام الحياة.!.

وكان له صديق يُنبئه يتابع الكتاب لدى الباعة ويخبره بالنتيجة، فقال له: دعك من هذا واذهب للبيت واكتب مقالًا في نقد الكتاب، ولا تترك كلمة وقحة إلا أقحمتها عليه..فسأله لماذا؟ فقال له: ستعرف غدا حينما تأتي بالمقال!! وفي الغد جاءه صديقه بالمقال وراح يقرأه..

ومن المضحك أنه طلب من صديقه نقدًا بيد أنه استدعى فيما كتب كل ما يحفظ من وقاحات وزركش بها مقالته..وهو ما أضحك خالدًا كثيرًا وقال له مداعبًا: احنا متفقناش على كده.!.!

واتفقا على أن يكون المقال تحت عنوان: (كتاب أثيم، لعالم ضال)، وحمل صديقه المقال وذهب به إلى جريدة منبر الشرق، وكان يرأس تحريرها الأستاذ (علي الغاياتي)، وعاد الصديق إلى خالد يقص عليه ما حدث في لقائه بالغاياتي..

لقد استقبله الأستاذ الغاياتي حسنًا، وراح يتلو المقالة، فاكفهر وجهه وصاح غاضبًا متى ظهر هذا الكتاب؟

هذه الأيام ولا يزال معروضًا في الأسواق؟

وكيف سمحت الرقابة بنشره؟

وأين الأزهر؟

وراح يشكر صديق خالد على غيرته الدينية ويقظته وجهاده، ويدعو أن يكثر في المسلمين من أمثاله..وجاءت اللحظة المنتظرة وترقبا صدور الجريدة في موعدها المعلوم، فإذا المقال منشور في مكان بارز وداخل إطار لافت للأنظار، أما العدد التالي والثالث والرابع فكان مقتظًا بالأقلام الملتاثة التي تهاجم الكتاب والمؤلف، وأغلبهم لا يستمد نقده من الكتاب ذاته، وإنما من مقال الجريدة الذي دبجه صديق خالد.

وهنا قامت العاصفة!!

حيث تحركت لجنة الفتوى بالأزهر تطالب النيابة بمصادرة الكتاب والتحقيق مع مؤلفه، وقام البوليس بمهاجمة المكتبات وباعة الصحف ليجمع نسخ الكتاب.. وطلب منه صاحب المطبعة أن يحضر عربة بسرعة ليحمل عليها بقية النسخ الموجودة من الكتاب في المطبعة، لأن أحد أصدقائه الضباط أخبره أن هناك

ضابطًا وثلاثة مخبرين متوجهون لتفتيش المطبعة.!.!

ونقل الكتاب إلى مكان أمين، وبدأ مشوار التحقيق، على مدار يومين، وبعد أيام تحدد جلسة المحكمة، وكانت المحاكمة سرية.. فقد قيل يومها:إن الأمن علم أن بعض شباب الإخوان المسلمين سيحضرون الجلسة ويثيرون فيها شغبًا، وانعقدت المحاكمة في مكتب رئيس محكمة مصر الابتدائية.

ووجه المحقق لخالد تهمًا كثيرة..منها أن الأزهر يتهمه بالخروج على الدين وإهانة العلماء، والنيابة تتهمه بالشيوعية والخروج على النظام..واستطاع خالد أن يرد كل تلك التهم العصيبة عن نفسه وعن كتابه.

وأمام المحكمة وبعد سماع الدفاع طلب خالد من المحكمة أن يعلق فقال له القاضي: حاتقول إيه؟ محاميك قال كل شيء!.

فقال: وإني أشكره بيد أن لي تعليقًا سريعًا، إن النيابة تتهمني بالشيوعية، صحيح أنني طالبت بالتغيير الشامل..لكنني اشترطت أن يجيء التغيير من أعلى – أي الدولة نفسها، والدولة لا تثور على نفسها، ولا تقود انقلابًا ضد نظامها..كذلك استنكفت أن يجيء التغيير من أدنى – أي من الجماهير– الأمر الذي تحتم الشيوعية حدوثه، لأنها ترى أن التغيير الذي يجيء سلما وبلا ثورة دموية لا

يلبث أن يزول.!.

وانتهت الجلسة على أن تعود للانعقاد للنطق بالحكم وجاء القرار بالإفراج عن الكتاب وتبرئة صاحبه مما نسب إليه.

ونشرت جريدة المصري حيثيات الحكم وقتها، والذي أشار إلى أن الكتاب يمجد الدين ويدافع عن حقوق الشعب، ولم تكد الجريدة تنشر ملخص الحيثيات حتى هاجت الدنيا وماجت وقامت ولم تقعد..حيث كتب الشيخ الأكبر (محمود شلتوت) مقالًا في صفحة كاملة في جريدة المصري تحت عنوان: هذا الكتاب يلقي ثلث القرآن في البحر، وكتب الأستاذ (أحمد الشايب) الأستاذ بدار العلوم أنه علم أن خالدًا قبض من السفارة السوفيتية عشرة آلاف جنيهًا، ونسب إلى الشيخ (حسنين مخلوف) مفتي مصر الأسبق قوله: إنه علم أن الكتاب ألف في السفارة الأمريكية، التي أجهدت نفسها في البحث عن عالم أزهري يضع اسمه عليه كمؤلف له، فأعياها البحث حتى عثرت على خالد، فقبل ما رفضه الآخرون، وقبض عشرة آلاف دولار أمريكي.!.

وكتب غيرهم كثيرون..ولكنها كلها كتابات راحت تفيء على الكتاب من الذيوع والانتشار ما يعز نظيره، لا في مصر وحدها، وإنما في الدول العربية وغير العربية حتى الإذاعات والصحف الأجنبية تقدم إليها من ينتقده ومن يمدحه، وراح الكتاب يسابق

الريح المرسلة في التوزيع والانتشار والتأثير، حتى أن بعض نسخه بيعت على قهوة الفيشاوي بجنيه مصري للنسخة الواحدة، مع أن سعره كان عشرون قرشًا.!.

وتوالت طبعاته حثيثة حتى أن بعضها كان ينفذ في يومين أو ثلاثة.

هذه هي رحلة كتاب من ألمع الكتب التي أحدثت ضجة كبيرة بمصر..ومر بمحطات من الإحباط كانت كفيلة أن تعيق ظهوره، لولا محاولات مؤلفه وإصراره على استكمال مسيرته، حتى كان كتابه ملء السمع والبصر.

***

صمود في باريس

كانت رحلة ومسيرة تستحق النظر والتأمل والوقوف على مراحلها لنستلهم العبرة من صمود صاحبها أمام ما وجد من صعوبات وعوائق..لقد خرج هذا الباحث العملاق الدكتور (زكي مبارك) أو الدكاترة (زكي مبارك) قوي الشكيمة، ماضي العزم، صارم النضال، لا يخنع أو يستسلم، ولا يعرف معنى اليأس والإحباط، مهما واجه من محن وعقبات كانت كفيلة أن تهدم آمال الأقوياء الأشداء..لكن العمالقة وحدهم من يستطيعون قهرها ونحسبه منهم.

إنه يتعقب ما فعله أستاذه (طه حسين) حين حصل على الدكتوراه من الجامعة المصرية، ثم سافر إلى فرنسا، إلا أن (طه حسين) ذهب على حساب الدولة، أما (زكي مبارك) فعجز عن تحقيق ذلك، فسافر على حسابه الخاص، ورغم الظروف المادية الضيقة التي كان يمر بها، إلا أنه بذل كل جهده وإمكاناته ليسافر حتى يحقق هدفه ويحصل على الدكتوراه من السربون في النثر الفني..وها هو يصور لنا تلك الرحلة ويصف فيها أيامه، وكيف تغلب فيها على ما واجهه من صعاب في مقدمة كتابه (النثر الفني) في القرن الرابع فيقول:

« هو كتابٌ شَغلت به نفسي سبع سنين، فإن رآه المصنفون خليقًا بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز، فهو عصارةٌ لجهود عشرين عامًا، قضاها المؤلف في دراسة الأدب العربي والأدب الفرنسي، وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئًا من الزهو، فيتذكروا أني ألَّفتُه في أعوام سُودٍ، لقيتُ فيها من عَنَتَ الأيام ما يقسم الظهر، ويقصف العمر، فقد كنت أشطر العام شطرين، أقضي شطره الأول في القاهرة حيث أؤدي عملي، وأجني رزقي؛ وأقضي شطره الثاني في باريس كالطير الغريب أحادث العلماء وأستلهم المؤلفين إلى أن ينفذ ما ادخرته أو يكاد، ثم صممت على أن أنقطع إلى الدراسة في جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت، وكانت العاقبة أن أنعم الله عز شأنه بالنصر المبين».

وقد علق البحاثة الأستاذ (أنور الجندي) في دراسته عنه ووصف هذا التحدي الكبير بقوله: «وكان ذلك عملًا ضخمًا يرسم صورة لطبيعة (زكي مبارك) وصلابته فيما يؤمن به، وإيمانه في الوصول إلى هدفه مهما وقفت الصعاب في وجهه»

إن حياته في باريس كانت حياة طالب العلم الفقيرَ، الذي لا يملك أحيانًا إلا قوت يومه، وكانت الجنيهات الخمسة عشر التي يرسلها إليه (عبد القادر حمزة) هي كل ما يملك من مورد.

ويسجل هو وبقلمه هذه المرحلة الصعبة من حياته بضيقها وظروفها العسيرة فيقول:

« كنت حين انتسبت إلى جامعة باريس أقضي أربعة أشهر في كل سنة في مدينة النور، ثم أعود إلى وطني لأجمع بين الصحافة والتدريس ما أستطيع به الرجوع إلى باريس من جديد، ودام ذلك بضع سنين، ثم عرفت أني لن أصل إلى غرضي إلا إذا قررت بطريقة حاسمة، ألا أفارق باريس إلا في إحدى حالين: النصر أو الموت، وكانت الإقامة الدائمة في باريس تبدو من المستحيلات، لأن أبي رحمه الله، لم يكن يقدر على إمدادي بكل ما أحتاج إليه، وكان ما ورثته عن أمي طيب الله ثراها، لا يزيد عن بضعة قراريط، وكانت زوجتي أفقر مني، ولم يكن لي في الحكومة المصرية عم ولا خال»(٧٢).

وهو دائمًا يلفت إلى أنه وصل إلى ما وصل إليه بجهد بالغ ونضال جبار فيقول: « هل عانى أحد في دنيا الأدب مثل الذي عانيت، لقد انتزعت حظي من أنياب الحياة السود، فهو حظ مدون بالسم الزعاف، ولو استطاع قوم أن يتجاهلوا وجودي لفعلوا، ولكن كيف يستطيعون، وقد ضيقت عليهم الخناق، وقهرتهم على

٧٢-زكي مبارك – لأنور الجندي.

الاعتراف بأن العاقبة للصابرين على مكاره الجهاد»(٧٣).

ومن العجيب في حياة الرجل..ما كانت تتسم به نفسه من صفات الشخصية المقاتلة، وروح التحدي التي ألفها في مصر، وأراد أن يشعل أُوارها في باريس، فرغم حلمه بنيل الدكتوراه من السربون، لم يسقه هذا الحلم أن يداهن في سبيله فهو يعتز برأيه ويمتلأ قناعة بصواب ما يرى، ويواجه مخالفه مهما كان قدره ومكانته، والمدهش أن هؤلاء المخالفين كانوا أساتذته من المستشرقين الذين يملكون أن يحققوا له حلمه، ويملكون كذلك أن يهدروه له، ويضيعوا عليه أمانيه..ولكن لا ضير..فروح المقاتل في شخص (زكي مبارك) تسبق طموحه وتغالبه، ولا يمكن أبدا أن يُسلم بمذاهبهم وآرائهم، وأنى له ذلك.. وقد أعلن في السربون قوله:

«جئت لأصحح أغلاط المستشرقين!».

وهنا نعرض لصورة من المعركة بينه وبين رأس المستشرقين في وقته (مسيو مرسيه)..، والذي كان مفروضًا أن يرأس لجنة امتحانه، إنه يخالفه في الرأي.. وهاجمه عندما وصل إلى باريس، لأن له آراءً مدونة في نشأة النثر الفني عند العرب، تختلف مع آرائه، ولكن (مسيو ماسينون)، نصحه بألا يقدم على ذلك، وأفهمه أن (مسيو مرسيه) رجل صعب المراس، وأن منزلته عظيمة، وأن المستشرقين

73–المصدر السابق.

يحبونه.

ولم يكن هذا النصح ليجد صداه أمام هذه النفسية العنيدة في تمسكها وقناعتها بما تراه، فلم ينتصح برأي (مسيو ماسينون)، وابتدأ رسالته التي قدمها للسربون بفصلين في نقض آرائه من الأساس، فغضب الرجل وثار، وأصر على حذف الفصلين بحجة أنهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسي في البحث، وأصر زكي مبارك على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذي تنهض عليه نظريته في نشأة النثر الفني.

يقول:

« وكأنما عز على الرجل أن أهاجمه في عقر داره، فمضى يعاديني عداءً خفيًا كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضت رعبًا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف، وقد قابلت خصومته بلدد أقسى وأعنف، ورأيت الحرص على آرائي أفضل من الحرص على رضاه، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه، وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها (مسيو ماسينون) كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيرًا في باريس: إن (مسيو مرسيه) لا يحبك، ولكنه لا يستطيع أن ينساك.

وهذا العداء لا شك من جملة العوائق والتحديات التي واجهته

في رحلته العلمية، إن لم يكن أكبرها ولكنه تجلد في مواجهته والوقوف في وجه خصمه، مهما كانت النتائج والعواقب.

إن زكي مبارك كان صاحب عزيمة ومضاء، يستطيع أن يحرم نفسه مما تصبو إليه في سبيل غايته التي يرجوها، كما فعل عام ١٩٣٢م حيث قال:» في مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٢ كذبت على أبي مرة، ولم أكذب عليه غير تلك المرة، كتبت إليه أقول: إني سأقضي أيام العيد في الإسكندرية، ولم يكن إلا حيلة لأحبس نفسي أيام العيد في البيت، لأكتب فصلًا من فصول «النثر الفني»، وهو الفصل الخاص بتطور السجع في اللغة العربية، إنما أنا قاهري يحبس أنفاسه في البيت يوم العيد، ليحفر بسنان القلم ثقبًا يتطلع منه على ضوء العظمة في القاهرة»

وفي حياة العملاق الكبير زكي مبارك..لم يستطع عامل التجاهل أن يقضي عليه، لأن إيمان الرجل بنفسه وثقته الكبيرة في قدراته، كان يفوق كل الحدود.. إن كثيرًا من صنوف الإحباط واجهته، وكان التجاهل والازدراء أبرزها..لقد شكا يومًا لقارئه قلة تقديره فقال:

«إن راتبي في وزارة المعارف ضئيل، وأنا أكمله بالمكافأة التي آخذها من (البلاغ) أجرًا علي مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه في الحبر الأسود..إن بني آدم خائنون، تؤلف خمسة

وأربعين كتابًا منها اثنان بالفرنسية، وتنشر ألف مقالة في البلاغ وتصير دكاترة ومع هذا تبقي مفتشًا بوزارة المعارف»

لم يورثه هذا التجاهل إحباطًا ويأسًا، وإنما كان يزيد من ثقته بنفسه واعتزازه بقدراته، وهو يبلغ في إطراء نفسه حدًا لم يبلغه غيره من المفكرين والأدباء، فهو يعجب بأدبه وشعره، ويرى أن الدنيا كلها لم تجد بمثله، فحينما كتب الدكتور (محمد صبري السربوني) يصف شعره بقوله:

«إن ديباجة زكي مبارك الشعرية ديباجة بحترية» فرد تعقيبًا عليه:»إنها كلمة يريد بها الثناء، ولكني عند نفسي أشعر من البحتري، وأشعر من جميع الشعراء».

ويلفت الأستاذ (أنور الجندي) لعمق التحدي في حياة (زكي مبارك) فيقول في مقدمة دراسته عنه:

« كان (زكي مبارك) من أصدق الناس إيمانا بمصر، والقومية العربية واللغة العربية، غير أن الحصاد الضخم من العمل الأدبي الذي أنشأه خلال رحلته الطويلة، قد شابه طابع الإعلان عن النفس، نتيجة لعوامل الاضطهاد والإحساس بعدم التقدير، الذي كان سمة العصور المتخلفة، والذي كان يبرز فيها من يتصلون بالأحزاب، أو يجرون في ركاب الزعماء والوزراء وذوي النفوذ،

كان (زكي مبارك) أبيًا عيوفًا، لذلك لم يجد المجال مفتوحًا أمام كفايته، سواء في ميدان التربية والتعليم، أم في ميدان الفكر أو في ميدان الصحافة، فقد شق طريقه بنفسه، ونحت حظه من الصخر»

ولعل البعض لا يجدون عناء التعريف بأنفسهم ولا تضطرهم الظروف أن يثنوا عليها كما فعل صاحبنا لقربهم من ذوي الجاه والأحزاب الذين يروجون لكتاباتهم.

وليس معنى أن علاقة البعض بالسلاطين وانخراطهم في الأحزاب، أنهم غير أكفاء، أو أن مواهبهم لا ترقى لهذه الشهرة.. بلى..فإن السلاطين والرؤساء والأحزاب، ما تهافتوا على الموهوبين منهم إلا ليحظوا بدعمهم ويسخّروا مواهبهم في خدمتهم، فهذه الأقلام الموهوبة، كانت في نظر كثير من الأحزاب صمام الأمان، وحائط الدفاع، الذي يرد عنها مكاره أعدائها وخصومها.

إن (زكي مبارك) يؤكد أن النجاح في الأدب للكثيرين من الكتاب، قام على سِناد من العصبيات الممثلة في الجمعيات والأندية والأحزاب، ويرى أن هذا التحزب تسبب في لمعان بعض الأسماء التي كانت أهلا للخمول، ولو واجهت الحياة الأدبية مجردة من هذا الدعم من حلفائها.. لكان مصيرها الإهمال!.

وهو يعبر عن ذلك فيما قاله لطه حسين:

«أنت لم تترك حزبًا إلا خدمته، ولا جريدة إلا توددت إليها، بعد عديد من الرسائل الطوال»

ثم يعقد المقارنة بين حاله وحال أستاذه فيؤكد على هذا المعنى مرة أخرى:

«قضيت دهري بلا نصير ولا معين، وسأظل كذلك طول حياتي، لأقيم على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع»

لهذا كان يُطري نفسه إكرامًا لها وتزكية لقدراتها، أما أولائك الذين نالوا ما نالوا وما زالوا يتحدثون عن أنفسهم، فلهم شأن آخر، أو هم كما عناهم ثروت أباظة بقوله:

« ترى قومًا بلغوا مناصب تظن أنت أنها تستطيع أن تمدهم بنوع من الثقة بالنفس والشعور بالنجاح في الحياة، حتى إذا جلسوا إليك بادروك بحديث لا ينتهي عن أنفسهم، والحديث عن النفس من أعظم معالم الفشل، أو على الأقل من أعظم معالم الغباء، وليس شر منه إلا أن يروي عن نفسه وقائع لم تحدث على سبيل الزهو والافتخار وهو ما نطلق عليه (فشار) أو(معار) واسمه في العربية (نفاج)»(٧٤).

74- الشباب والحرية - ثروت أباظة.

لم يكن زكي مبارك في يوم من الأيام صنيعة حزب من الأحزاب ، ولم يكن له حصن يدعم أدبه ويسانده كما حظي بذلك كثير من الشعراء والأدباء..

لقد تحدى الدنيا كلها واستطاع أن يوجد لنفسه مكانًا بين العمالقة ، بل إن موهبته نحتت بأسنانها في الصخر حتى تثبت وجوده، ويكون له أثره على الساحة التي كان من أبرز فرسانها.

***

الرجل الذي أزعج العالم

توفي والده فجأة وهو لا يزال في الثالثة عشر من عمره، وحينما بلغ الثامنة عشر، أرادت منه أمه أن يحقق أمل أبيه فيه فيلتحق بإحدى الوظائف الحكومية، ولم يستطع أن يخالف رغبتها، ولكن شاءت الأقدار أن يصاب بنزلة شعبية تطورت بصورة خطيرة، مما دعا الطبيب إلى توقيفه عامًا كاملًا عن الدراسة..

وفي هذا العام الذي قضاه بالبيت، أخذ يحدث أمه عن هواياته الجديدة، وطلب من الطبيب أن يقنع أمه بأن تسمح له بالتحاقه بمعهد الفنون، وبعد عامين من وجوده بالمعهد رحلت أمه عن الحياة ليبقى في معتركها وحيدًا.

تيتم (هتلر) مبكرًا وصار وحده في دنيا الناس، لا يملك شيئًا ولا يجد ما يقيه شر العوز، وتبدد المال الذي خلفه أبوه خلال الأشهر التي قضاها مع والدته وهو مريض، ومن ثم..كان لابد له أن يعمل حتى يعيش، فذهب إلى فيينا، وكان سلاحه الوحيد.. الإرادة والتصميم على مواجهة مصيره.

كان الدهر قاسيًا عليه، لكنه تحمل كل ذلك بصمود وجلد، فهذه القساوة جعلت منه رجلًا مسئولًا، يعي كثيرًا من تجارب الحياة، ويرسب في امتحان أكاديمية الفنون قسم التصوير بالزيت،

وحينما يُسأل عن السبب، يخبره عميد المعهد: أن الرسوم التي قدمها تؤهله إلى الدخول لفرع هندسة البناء..يقول هتلر في كتابه (كفاحي):» وصلت إلى فيينا بعد وفاة والدتي وقلبي عامر بالإيمان، ما استسلمت للأسى، بل صممت وأنا أدخل المدينة الكبيرة، على الالتحاق بقسم هندسة المعمار مهما يكن الثمن، لكن كان علي أن أعمل لأعيش بالإضافة إلى الدرس والتحصيل..وإني لأشكر اليوم العناية الإلهية، التي وضعتني أمام قسوة الدهر وأنا في مستهل عمري، وجعلتني أذوق مرارة العوز في عالم المحرومين، مما أتاح لي أنا البورجوازي النشأة، أن أعيش مع من ناضلت من أجلهم فيما بعد»

وفي فيينا قضى هتلر أشقى أيام حياته، وعاش خمس سنوات لم يذق خلالها طعم الراحة، وبدأ عمله كمعاون بناء، ثم كدهان ليحصل قوته اليومي، ويأمن شر الجوع الذي يصفه بالزميل الذي يلازمه ويشاطره في كل شيء!.، فإذا اشترى كتابًا وقف الجوع ببابه يومًا كاملًا، وإذا حاول أن يحضر حفلة موسيقية أو يشاهد مسرحية يلازمه الجوع مرتين..واتجه هتلر للقراءة، وكان الكتاب صديقه الوفي، وبفضل القراءة توسعت معلوماته وتبلورت آراؤه مع مرور الزمن، ثم راح يدون نظرياته الخاصة التي اتخذ منها في المستقبل أسس العمل.

تحرر (هتلر) من الكبرياء ومركبات النقص والخوف من الشامتين، إذ أيقن أن العمل مهما كان نوعه فهو شرف للعامل، وهو ما ساعده على القيام بأي عمل مهما كان مهينًا حتى يتكسب قوت يومه.

وبعد هذا العناء وفي عام ١٩٠٩م بدأ وضعه المادي يتحسن شيئًا يسيرًا، وأصبح يعمل لحسابه الخاص كرسام هندسي، وفي أوقات الفراغ ينكب على الدراسة والمطالعة، وخاصة دراسة الوضع السياسي في البلاد، ثم غادر فيينا إلى ميونخ، وكانت إقامته فيها من أسعد أيام حياته، وكان ما زال يعمل ليتابع دراسته وتحصيله، وكان يقول: ما كنت أعمل لأعيش ولكن لأتابع دراستي وأنا متأكد من بلوغي الهدف الذي رسمته لنفسي.

وانضم هتلر للحزب النازي عام ١٩٢٠م، تقديرا لدوره الذي بذله في الحرب العالمية الأولى وبعد مضي عام واحد، أصبح زعيمًا للحزب نفسه، وفي عام ١٩٢٣ سجن على خلفية محاولة انقلاب فاشلة، ولكنه على هامش ذلك، كان يحظى بشعبية هائلة، لخطبه القوية وأسلوبه في الدعاية والإلقاء..كما أحبته الجماهير لإيمانه بالقومية وبغضه لليهود.

لقد جذب انتباه الألمان بخطاباته، وأصبح أملًا لمن يرغبون في التغيير.

أما هو فقد وعد الجميع بحياة أفضل، وتحمس له العاطلون والشباب الصغار وأفراد الطبقة المتوسطة الفقيرة من أصحاب المتاجر الصغيرة والموظفون وأصحاب الحرف والمزارعون.

كان وصوله سريعًا للسلطة، فحصل حزبه على ٣ ٪ من الأصوات في انتخابات الهيئة التشريعية للرايخ (البرلمان النازي) عام ١٩٢٤م، وفي انتخابات عام ١٩٣٢م، حصل النازيون على ٣٣ ٪ من الأصوات، أي أكثر من أي حزب آخر، وفي يناير من عام ١٩٣٣م، ترشح هتلر كمستشار، أي رئيس الحكومة الألمانية.

تمكنت دول المحور وألمانيا في غضون ثلاث سنوات باحتلال معظم دول أوروبا عدا بريطانيا وحوالي ثلث مساحة الاتحاد السوفيتي، وأجزاء من إفريقيا وآسيا ومناطق متفرقة، وانتصر الحلفاء واقتحموا ألمانيا وسقطت برلين، وانتحر هتلر في ٣٠ أبريل ١٩٤٥م، بعد أن ودع أصدقاءه وموظفيه، وأوصى أن يحرق جثته، حتى لا يُمثل به كما مثل بموسوليني حينما عُرِضت جثته مع جثة عشيقته وجثث خمسة قادة فاشيين آخرين في ساحة عامة في ميلانو، معلقة من الأرجل أمام محطة لتزويد الوقود والجماهير تسبهم وتشتمهم وتبصق عليهم وترميهم بما في أيديهم.

وانتهت حياة الرجل الذي أزعج العالم، وتسبب في الحروب والدمار..ورغم هذه النهاية المأسوية، إلا أن له رحلة كفاح لا

يمكن إغفالها، فقد شق طريقه، وتغلب على كثير من المآزق والصعوبات التي واجهته، بفضل إصراره وطموحه الجبار وإرادته القوية، واستطاع أن يكون حديث الجميع، لا في ألمانيا وحدها وإنما في العالم كله!.

* * *

روح المقاومة

إن مقاومة المحتلين الغزاة لابد لها من روح قوية تدعم وتحقق أملها في الانتصار، إنها لا تعرف اليأس أمام القوة الغاشمة، ومهما مُنيت بالخسارة، ففي يقينها إيمان جارف بالنصر المبين الذي يعبّر عنه هذا الشاعر أصدق تعبير حينما قال:

ها قد أتينا من جديد
لسنا نخاف الموت
لا نخشى الوعيد
إنا على درب الشهادة
سائرون ولن نحيد
فالحسنيان لنا:
فإما نصرنا
أو أن يكون جزاؤنا
الخلد السعيد
ها قد أتينا نحمل البشر لكم
بالفجر يملؤه المنى
بالصبح
بالأمل الوليد
يا قومنا: لا تحزنوا
سيذوب فى شريان أمتنا الجليد

سنبدل الأسياف من خشب
بأسياف من حديد
حتما سنمحو عارنا
وغدا سيرجع قدسنا
وغدا سنسمع طائر الأقصى
يغرد للدنيا أحلى نشيد
سنحقق النصر الأكيد
سنعيد كل الأرض
نرفع راية الإسلام فوق ربوعها
وتعود شمس الحق
تشرق من جديد
يا أيها الوطن الكبير:
ألا انتبه لنفسك، قم قلب الصفحات
من تاريخ ماضيك المجيد
قم أيها الوطن الذي ألف النعاس.. مع الخمول.. مع الجمود
إن لم تعد مجد الألى سلفوا
سيسحقك اليهود»

ماذا تصنع لو كنت هادئًا مسالمًا حساسًا منعزلًا، ووضعك قدرك بين أناس مُحبِطِين.. كيف يكون تصرفك إذن؟!

هل تقاوم أم تستسلم لإحباطهم وتزداد تعقيدًا؟!

إنك إذا تجردت من روح المقاومة، فلن تستطيع أن تستمر في حياتك، لأن هؤلاء لن يرحموك، سوف يصبون عليك لهيب كلماتهم، حتى ترفع لواء الضياع مسلمًا وترغب في الموت والفناء.. يردونك يائسًا محبطًا كارهًا للحياة ومرددًا قول فيلسوف المعرة:

تعب كلها الحياة فما أعجب

إلا من راغب في ازدياد

وقوله:

لا تبك ميتًا ولا تفرح بمولود

فالميت للدود والمولود للدود

أو تقول كما قال سليمان الحكيم في سفر الجامعة:

ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجري تحت الشمس..فغبطت الأموات أكثر مما غبطت الأحياء، وخير من كليهما من لم يولد

وإذا كان هذا هو المصير..فانتصارًا لمعنى الإنسانية، وإعزازًا لقيمة التفاؤل، لابد لك أن تقاوم وتصد سهام الضياع..

تعلم كيف تواجه المحبطين وتكسر أهدافهم.

إياك أن تستسلم لليأس..احذر أن تتذوق معناه..

كن كهذا السمك الذي غير طبيعته ونظام حياته، لكي يستمر ويعيش..

يحكى أن طبيبًا من أهل (إيقوسيا) فتن بحسناء من عامة قومه، كان أبوها سماكًا يخرج كل يوم ليصطاد السمك ويكسب ببيعه ما يتكسبه، وهو مضطر إلى الخروج للصيد في قاربه الصغير، وإن كانت الريح عاصفة تعرض حياته للخطر..

وتزوج الطبيب بابنة الصياد، وكان بجوار المدينة منخفض من الأرض لو تسرب إليه الماء لكان بحيرة صغيرة، فاشترى الطبيب تلك الرقعة من الأرض، وشق بينها وبين البحر قناة، وقدمها هدية إلى نسيبه الصياد، إشفاقًا عليه من الصيد في البحر والتعرض لهبوب الزوابع، وزخرت البحيرة بأفخر السمك، ونال الصياد منه كسبًا عظيمًا، ولكن سرعان ما بارت تجارته بعد عام أو نحوه، حين انفض الناس عنه وعزفوا عن شراء صيده، ففزع الصياد إلى الطبيب يسأله المشورة، ففحص الطبيب السمك، فلم يجد به من آفة، بيد أنه لاحظ أن لحم السمك قد طرأ عليه استرخاء وضمور، فلعل ذلك بأن السمك ينعم بحياة الرفاهة في هذه البحيرة واحتال في علاج ذلك بأن جلب إلى البحيرة صنفًا من السمك مطبوعًا على المشاكسة يسمى ذئب البحر، فلم يلبث النزاع أن نشب بين الفريقين، واضطر سمك البحيرة إلى المقاومة، فتقوت عضلاته،

وصار لحمه جزلًا لا رخاوة فيه، فاستأنف الناس إقبالهم عليه واستطابتهم له».

ومن مظاهر الاستسلام لدى الانهزاميين أن يعدوا فشلهم قدرًا قدره الله سبحانه عليهم، تفشل ثم تنسب فشلك للأقدار، فرارًا من المقاومة وإخلاء لمسئوليتك..وأمثال هؤلاء يرون أن ما وقعوا فيه من فواحش وآثام هي من تقدير الله لهم..ولم يعلموا أن الله يضع أمام الناس طريقين، ثم يترك لهم حرية الاختيار!. قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) [البلد] طريق الخير وطريق الشر، بل أبشع منه صوفية الغدر في بلاد المغرب الذين كان يفتي بعض مجرميهم بحرمة قتال الغزاة المستعمرين بحجة أنهم قدر الله ومن الخطأ محاربة القدر!.

وفي كتاب (كليلة ودمنة)، يدور هذا الحوار بين الجرذ والظبي في باب (الحمامة المطوقة) حول الاحتجاج بالقدر:

كان الظبي قد سقط في شرك وأتى إلى الجرذ لكي يقرض حباله، فقال الجرذ للظبي: كيف سقطت في هذا الشرك وأنت من الأكياس؟ فكانت إجابة الظبي: وهل ينفع الكيس من المقادير شيئًا؟

وفي مكان آخر تقول الحمامة المطوقة للجرذ وقد وقعت هي

أيضًا في شرك وطلبت منه قرض الشرك: ألا تعلم أنه ليس من الخير والشر شيء إلا وهو مقدر على من تصيبه المقادير، وهي التي أوقعتني في هذه الورطة؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى مني وأعظم أمرًا.

ومما تلوكه بعض الألسنة:

لا تقل فيما جرى:كيف جرى؟

كل شيء بقضاء وقدر

وكل هذه الأقوال إذا أخذت بهذا المعنى، فإنها تبعث على الاستسلام والخمول، وتقتل الهمة وتبطل السعي، بل أكثر من هذا تؤدي إلى التخلف والتراجع عن ركب الحياة والحضارة والازدهار.. فالحياة عمل وكفاح، وجد واجتهاد، والنجاح ثمرة العرق، وما وصلت الدنيا إلى ما وصلت إليه اليوم إلا بجهود البشر التي تتابعت يومًا بعد يوم، وجيلًا بعد جيل، وسنة الكون تقضي أن من جد وجد، ومن زرع حصد..أما القاعدون فعاجزون عن تحقيق المنى والآمال.

***

واجهوا الأزمات بالبسمات!

الذين يواجهون الأزمات بالبسمات أناس خارقون، أو بشر غير عاديين..هكذا أراهم بعيني وعقلي، فهم يتمتعون بسمات لا تتوفر للكثيرين من البشر، ويفهمون جيدًا طبيعة الحياة، ويدركون منها مالا يُدركه غيرهم..وهذا الصنف من الناس أقوياء أشداء، لا تنهار نفوسهم ساعة المحنة، ولا تهتز أفئدتهم وقت الأزمة.

ففي الوقت الذي تدهمهم فيه الشدائد بلهيبها، لا يملكون غير البسمة الهادئة المطمئنة، ليطفئوا بها لفح المحن، ويكسروا جراح النوازل!.

ومن أروع ما قرأت عن هذا الخلق، عن الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان)، حين سار على رأس الجنود الشامية ليساعد (عبيد الله بن زياد) الذي كان يحارب (المختار بن أبي عبيد)، وحط (عبدالملك) رحاله في الطريق ليلةً فجاءه خبر مقتل (عبيدالله) وانهزام جنده، ثم جاءه بعد قليل خبر انهزام جيشه الذي أرسله لمحاربة (ابن الزبير) بالمدينة، وتلاه خبر ثالث بدخول جنود (ابن الزبير) أرض فلسطين، وخبر رابع بمسير إمبراطور الروم مهاجمًا حدود الدولة الإسلامية عند المصيصة، وخبر خامس بأن عبيد دمشق وأوباشها أطلقوا المسجونين وهاجموا السكان، وخبر

سادس أن بعض الأعراب أغاروا على حمص وبعلبك....وقال (المسعودي):يُروى أن (عبدالملك) لم يُر في ليلة قبلها أشد ضحكًا ولا أحسن وجهًا ولا أبسط لسانًا، ولا أثبت جنانًا، من تلك الليلة تجلدًا وسياسة..وواجه هذه الأحداث وانتصر عليها، وأعاد الأمن وقطع دابر الفتن(٧٥).

وهكذا كان الإمام الشهيد (حسن البنا) رحمه الله في وصف تلميذه النجيب، وصفيه القريب الأستاذ عمر التلمساني:

وينظر الإمام والإخوان من حوله إلى الفتن التي تحيط بالإسلام والمسلمين كقطع الليل الحالك البهيم، ويبحث عن ثغرة يمكن من خلالها أن نتلافى هذا الشر الذي يزحف على الإسلام والمسلمين، الحكام منهم والمحكومين، فتضرب منه الأبصار ونسأل إمامنا: ما المخرج؟ما العلاج؟

فيبتسم ابتسامة مشرقة هادئة مطمئنة، وتطالعنا إحدى رسائله بأسلوبه السهل الممتنع، في يقين المقنع المقتنع: لقد سبقتنا الأمم بمثل ما نحن عليه، ففكرت ودبرت وعملت ونجحت»(٧٦).

إن البعض حينما يقرأون عن هذا الصنف من الناس، أو يشاهدون مواقفهم في صفحات التاريخ، فإنهم يُعدون أنباءهم من نوادر

75 ذكره (المسعودي) في مروج الذهب والحافظ (السيوطي) في (تاريخ الخلفاء).
76-ذكريات لا مذكرات - عمر التلمساني.

الزمان وعجائبه التي قلما يحاكيهم فيها أحد..

ولكن المشيئة الإلهية، أبت إلا أن تُرينا هذا النموذج يتكرر على صفحة الحياة..أبت إلا أن ترينا هذه العجائب.. في فئة من الناس يُبهرنا تماسكهم في ظل ما يُصيبهم من ظلم وبطش وتنكيل.. ففي أتون المحنة، تنفرج أساريرهم عن بسمة مطمئنة بثقة الله في قدره واختياره، أما شهداؤهم فكانوا أسرع في ابتسامتهم.. وأمام هذا الدم الطاهر المهراق، وأمام هؤلاء الشهداء المجندلون، وأمام هؤلاء القادة الصامدون، تنهمر دموعي، ويعجز قلمي، أن يصف بسمتهم ومحياهم، ولا أجد غير كلمات نطقت بها إحدى الصامدات، فعبرت بها عما يختلج في صدري تجاه المحنة الأليمة، وكيف قابلها أصحابها بالابتسام، فتقول:

ابتسامة..ترافق وجه كل شهيد، تقهر كل من اعتدى على حريتهم وعلى إنسانيتهم وعلى أرواحهم، ابتسامة تدعونا جميعًا لنتخيل..يا ترى ماذا رأى هذا الشهيد من خير أمامه حتى تعلو وجهة تلك البسمة برغم صعوبة الموقف وقسوة الموت.. يا الله.

ابتسامة.. تعلو وجه القادة والمعتقلين، هي يقين بقوة الحق وعدالة القضية، هي ابتسامة العزة والأمل واليقين فيما عند الله من نصرة لأهل الحق وتكريمًا لثباتهم رغم المحن.

ابتسامة.. تعلو وجهنا في طريقنا للحق، هي باب الصبر على الحق، هي باب الأمل واليقين في تحقيق ما نطالب به، ابتسامة الرضا والفرحة باختيار الله لنا للسير في طريق الحق.

ابتسامة الرضا والصبر على قضاء الله، اشغل نفسك بأن يرضى الله عنك ويجعلك دائمًا من مناصري الحق، ولا تشغل نفسك بموعد النصر».

ليكن لنا في هؤلاء أسوة.. فلا تبتئس في الأزمات، لا تأس على الملمات..قابل كل شيء بالابتسام.

فمع النوازل تتفجر السعادة، ويولد النجاح..ولكنك لا تدري.!.

وقد تعجب إن علمت أن هناك أناسًا يسعدون بالمحن ويتهللون لمجيئها، نعم..فيقينهم يخبرهم أن السعادة كامنة متربصة خلف غشاء رقيق، كل مشكلته أنه أسود، ويوشك أن ينفض عن سرور هائل، وفرح عظيم، لتمتلئ الحياة بهجة وسرورًا..

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فرجت وكنت أظنها لم تفرج!

هناك من يجد في الأزمات والعوائق حافزًا للتطور، ومن الأزمات نقطة للنهوض..ففي مشوار حياتهم كانت هي المسار الذي انطلق

منه كل تقدم في حياتهم، وبسببها انتقلوا من حال لحال أفضل.. فلماذا إذن لا يبتسمون لها؟!

وفي تاريخنا من كانت المحنة دافع إنجازهم، ونواة إبداعهم..فما ثبت (أحمد) وصار إمام أهل السنة إلا بمحنته، وما كانت إبداعات (ابن تيمية) إلا في سجنه، أما (السرخسي) فصنف المجلدات الضخمة في خمسة عشر عامًا قضاها في السجن

وينظم لنا (إيليا أبو ماضي) أبياته العذبة التي تشكل جرعات من التفاؤل لا حدود لها فيقول:

قال السماء كئيبة! وتجهما
قلت: ابتسم يكفي التجهم في السما!
قال: الصبا ولى! فقلت له: ابتـسم
لن يرجع الأسف الصبا المتصرما!!
قال: التي كانت سمائي في الهوى
صارت لنفسي في الغرام جـهنما
خانت عـــهودي بعدما ملكتها
قلبي، فكيف أطيق أن أتبســما!
قلـــت: ابتسم واطرب فلو قارنتها
لقضيت عـــمرك كـله متألما
قال: الـتجارة في صراع هائل

مثل المسافر كاد يقتله الــظما
أو غادة مسلولة محـتاجة
لدم، وتنفث كلما لهثت دما!
قلت: ابتسم ما أنت جالب دائها
وشفائها، فإذا ابتسمت فربما
أيكون غيرك مجرما. وتبيت في
وجل كأنك أنت صرت المجرما؟
قال: العدى حولي علت صيحاتهم
أَأُسر والأعداء حولي في الحمى؟
قلت: ابتسم، لم يطلبوك بذمهم
لو لم تكن منهم أجل وأعظما!
قال: المواسم قد بدت أعلامها
وتعرضت لي في الملابس والدمى
وعلي للأحباب فرض لازم
لكن كفي ليس تملك درهما
قلت: ابتسم، يكفيك أنك لم تزل
حيا، ولست من الأحبة معدما!
قال: الليالي جرعتني علقما
قلت: ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعل غيرك إن رآك مرنما

طرح الكآبة جانبا وترنما
أتُراك تغنم بالتبرم درهما
أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما؟
يا صاح، لا خطر على شفتيك أن
تتثلما، والوجه أن يتحطما
فاضحك فإن الشهب تضحك والدجى
متلاطم، ولذا نحب الأنجما!
قال: البشاشة ليس تسعد كائنا
يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما
قلت ابتسم مادام بينك والردى
شبر، فإنك بعد لن تتبسما

إنها حقيقة عرفها (المازني) من حياته المشحونة بالتجارب..ولكن أكثرنا لا يعي وعيه في مدرسة الحياة.. يقول:

«علّمتني الحياة الابتسام! وإنّه لعجيب أن يحتاج المرءُ إلى أن يُعلّمه! ألم يقل بعضهم في تعريف الإنسان: إنّه حيوان يبتسم؟ وأدعى إلى العجب من ذلك.. أن تكون المِحَن والشدائد هي التي علّمتنيه وعوّدتنيه! إي والله!

فقد كان صدري يضيق، ومرارتي تكاد تنشقُّ من الغيظ، وكنتُ أجزع إذا حاقَ بي ما أكره، وأقنط من قدرتي على اجتياز المحنة،

حتى تلفت أعصابي واسودّت الدنيا في عيني، بل كاد نور عيني يخبو وينطفئ لفرط ما كنت أعانيه من الاضطراب والألم والكمد.

ثمّ لطفَ الله بي فتمرّدتُ على نفسي، وصرتُ إذا عراني ما كان يعروني من الجزع أو الخوف أو الاضطراب، أقول لنفسي: قد جرّبتُ هذا من قبل، وعرفتُ بالتجربة أنّه كلّه يمضي ولا يُخلِّف أثرًا، ولا يورثني إلا الأسف على ما أَنهكت من أعصابي في احتماله..ولقد لُدِغتُ آلاف المرّات، فلا يجوز أن أُلدَغ بعد ذلك أبدًا.

كان ذلك ما أفعل، ولم يكن يكفي، بل بالسخرية والتهكّم: سخرية العارف، وتهكم المُدرِك للقيم الحقيقية للأشياء، وبالابتسام الذي يهوِّن كلّ صعب، ويحيل كلّ جسيم ضئيلًا!

وإذا بالابتسام له فعل السحر أو أقوى، تفتح حنكك ربع قيراط، وتكفُّ عينك أن تُومض قليلًا، فتتغيّر الدنيا كلّها!

ما من حياة تخلو من دواعي الانقباض أو الألم أو الحزن، فليُجرِّبوا الابتسام إذا مرّ بهم شيء من ذلك، وليتأمّلوا فعل سحره، فقد وجدته في كلِّ حال وصفة نافعة»(٧٧).

77- من مقال - علمتني الحياة ..الابتسام - إبراهيم عبد القادر المازني مجلة الرسالة والرواية ٧١ ديسمبر ٥٤٩١.

إن (المازني) تمرد على ذاته، وعقد بينه وبين نفسه حوارًا هادئًا صادقًا.. ماذا جنيت من مخلفات التجارب السابقة؟!..لا شيء سوى آلام تمر وتنقضي.

وما دام أنها تمر فلما الألم إذن؟!

لماذا لا أستبدله بالفرح والابتسام؟ لا لهوله ولكن لأنه يمر وينقضي.. ثم ينبئنا (المازني) أن الأمر غير هين، ولا يحتاج إلا لبعض المران والتمرس حتى تتقبله النفس، لأن فطرة الإنسان لم تُجبل على الابتسام وقت المحن!.

«فليس الابتسام سهلًا في مثل هذه الحالات، فإنه مغالبة للنفس، ومغالبتها تتطلب جهدًا عظيمًا»

وعلى هذا فكن ذكيًا ولا ترهق نفسك بالهموم، واطرح اليأس جانبًا، وابتسم لما تدره المصائب عليك من بُشريات!! واعلم أن الحياة أمل.. فإذا انطفأ الأمل فلا قيمة للحياة..والله تعالى لا يأخذ منك شيئًا إلا عوضك بآخر، وحاول أن تتأمل عند كل مصاب ما خفي عليك من جوانبه المشرقة..فإذا وجدته فابتسم، وإن لم تجده.. فابتسم أيضًا.. فربما تجده بعد قليل!(٧٨).

78- المصدر السابق.

البكاء على الماضي لا يفيد

لقد نال الأمل والتفاؤل من الإسلام حظًا عظيمًا، كما كان العفو والصفح والتسامح من فضائله التي حث عليها وأمر بها، فهو دين يؤمن بالصفحة الجديدة، ويرفض البكاء على الماضي وتضخيم هناته حتى تكون عقبة في طريق المستقبل، والإسلام باعتناقه يمحو عنك ماضيًا كئيبًا مليئًا بالأوزار والخطايا.. ففي الحديث الشريف:

 الإسلام يهدم ما قبله(٧٩).

أي حينما تنطق بالشهادتين، كأنما ولدت من جديد.!.

وكذلك الحال في قوله ﷺ:

 التوبة تجب ما قبلها.!(٨٠).

أي تمحو وتزيل ما قبلها مهما تراكم هذا القبلُ وصار كالجبال، فإن الله ينسفها نسفًا بتوبة عبده منها

فـ»لا تؤودنك كثرة الخطايا، فلو كانت ركامًا أسود كزبد البحر، ما بالى الله تعالى بالتعفية عنها، إن أنت اتجهت إليه قصدًا، وانطلقت

79- أخرجه مسلم.

80- لكنها لا تبرئ ذمته مما استقر فيها من حقوق العباد ومن الكفارات وكذلك العبادات كالصلوات.

إليه ركضًا.. إن الكنود القديم لا يجوز أن يكون عائقًا أمام أوبة صادقة، وتوبة حقيقية»(٨١).

وقد تعجب حينما يكون الصحابي ذا تاريخ عريق في حرب الإسلام، والوقوف في وجه دعوته وتعذيب أتباعه وقتلهم..ثم يزول كل هذا بمجرد إسلامه وكأنه لم يفعل شيئًا، والأعجب من هذا أن تصفو له النفوس، وربما يلقاه ابن المقتول أو أخوه، فيرمي عليه السلام تحية الإسلام، فتصير النفوس التي كانت بالأمس حانقةً عليه كارهةً لصورته، هي أكثر النفوس حفاوة به وحرصًا عليه!.

وهذا التحول العجيب..لا تراه إلا في الإسلام، وهكذا علمنا المسلمون كيف تكون النظرة للماضي، وكيف نجتث البواعث السلبية من نفوسنا..

ف«في ماضي كل منا أشياء مؤلمة ومحرجة، ولو أنه أطلق لنفسه العنان في استرجاع أحداثها وذكرياتها، فإنه يسمح للمشاعر السلبية وتأنيب الضمير وغيرها بأن تسيطر عليه وربما وجه الإنسان اللوم للناس أو للحوادث أو لسوء الحظ، مما ينتهي به إلى شعور بالغضب أو الحقد أو الرغبة في الانتقام أو الإحباط التام..

81- جدد حياتك – الشيخ محمد الغزالي.

وكلها مشاعر تجعل الإنسان غير فعال، ولديه اختلال عاطفي ويصبح خائر القوى والعزيمة لأنه يشبه من يحاول الجري سريعًا وهو يجر عربة محملة بالحجارة»(٨٢).

إن البكاء على الماضي لا يفيد وفي المثل الإنجليزي:

«لا تبك على اللبن المسكوب»

ما مضى فات وانتهى..فلا تأخذ منه الألم والندم، وإنما تكفيك الخبرات والتجارب والدروس التي لا تنساها في حياتك..أما أن تتركه يهددك ويرعب حاضرك ومستقبلك فلن تخطو خطوة نحو الأمام..

دع الماضي يذهب إلى حيث ذهب، ارم آلامه وأحزانه خلف ظهرك، حتى تستقبل الجديد من أيامك بابتهاج وسرور، أم أنك تحب أن تذهب بقية حياتك حزنا وتحسرًا من أجل ما فعلت في ماضيك..

إنك لو صرت كذلك، فإنك وبلا شك قد صرت في عالم الأموات..ولن يدعك شبح الماضي إلا ويقفز عليك فيحطم كل رجائك في الدنيا وسعادتك في الحياة..

82- حياة بلا إحباط – محمد السيد.

والمحبطون لا ينسون الماضي أبدًا، فهو الكنانة التي يستخرجون منها سهام اليأس ليصيبوا بها آمال الناس وأحلامهم، فتجهز على ما تبقى فيهم من حياة..

وهم لا يصبغون الحاضر والمستقبل بشيء من الماضي إلا بصفحاته السوداء، التي لا يعرفون ولا يذكرون غيرها.!.

«ما قيمة لطم الخدود، وشق الجيوب، على حظ فائت أو غرم ناب؟..

ما قيمة أن ينجذب المرء بأفكاره ومشاعره إلى حديث طواه الزمن، ليزيد ألمه حرقة وقلبه لذعًا؟!

لو أن أيدينا يمكنها أن تمتد إلى الماضي لتمسك حوادثه المدبرة فتغير منها ما تكره، وتحورها على ما تحب؛ لكانت العودة إلى الماضي واجبة، ولهرعنا جميعًا إليه نمحو ما ندمنا على فعله، ونضاعف ما قلت أنصبتنا منه.

أما وذلك مستحيل، فخير لنا أن نكرس الجهود لما نستأنف من أيام وليال، ففيها وحدها العوض» (٨٣).

ومهما يكن حجم الماضي فلا ترعوي لمارده أو تهديداته، ولا تخشاه ولا يجزعنك منه وصف نجيب محفوظ بأنه:

83- جدد حياتك- الشيخ محمد الغزالي.

« يتوارى ويمكر أحيانا كاللص ولكنه لا يموت، ثم يبعث بغير رغبة أو دعوة».

«فيا ماض.. اذهب وانته اغرب كشمسك، فلن أبك عليك، ولن تراني أقف لأتذكرك لحظة، لأنك تركتنا وهجرتنا وارتحلت عنا، ولن تعود إلينا أبد الآبدين.

إن ملف الماضي عند العقلاء يُطوى ولا يُروى، يُغلق عليه أبدًا في زنزانة النسيان، يقيد بحبال قوية في سجن الإهمال، فلا يخرج أبدًا، ويوصد عليه فلا يرى النور، لأنه مضى وانتهى، لا الحزن يعيده ولا الهم يصلحه ولا الغم يصححه..

والقراءة في دفتر الماضي ضياع للحاضر، وتمزيق للجهد، ونسف للساعة الراهنة، وذكر الله تعالى الأمم وما فعلت ثم قال: «تلك أمة قد خلت» انتهى الأمر وقضي، والذي يعود للماضي، كالذي يطحن الطحين وهو مطحون أصلًا، وكالذي ينشر نشارة الخشب، وقديمًا قالوا لمن يبكي على الماضي: لا تخرج الأموات من قبورهم»(٨٤).

لقد فتح الله أبواب الأمل للإنسان حتى تنصرف أشباح الماضي، فلماذا تصر أنت على استبقائها، والإيمان بوجودها؟!

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ

84- لا تحزن – عائض القرني.

الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) [التوبة].

وقال ﷺ «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»(٨٥).

85- ضعيف ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن ابن عباس.

شعوب تقود بعد ركود!

هناك أمم نال منها الضعف نيله، وأخذت الهزيمة منها مأخذها، ولكنهم رفضوا بهمة جسورة أي نوع من الاستسلام والاستكانة، وقاموا للعمل والنهوض، رفعوا لواء التفاؤل وكأنهم يرون سحائب الضياع وقد تلاشت من أفقهم.

كانت الصين مع بداية القرن العشرين تعاني الجهل والفقر والتخلف..في العشرينيات تردت حالتها بسبب الفيضانات والزلازل وانهيار بنيتها، وجاءت عليها الأربعينات فخاضت حربًا أهلية عنيفة دمرت الآلاف من أبنائها..ولم يستقر الحال بالصينيين على هذا التردي والضياع..فبمجيء الخمسينيات، قرر الصينيون أن ينهضوا وينجحوا، ويحولوا حياتهم لنهضة شاملة.. وبدأوا في الوقت نفسه الذي بدأت فيه كثير من بلادنا..ولم تمر عليهم ثلاثون سنة، حتى أصبحوا قوة عظمى في العالم، واستطاع قادتها أن ينهضوا بها ويرفعوا شعار: لا لليأس!.

أما اليابان.. فبعد الحرب العالمية الثانية تجرعت هزيمة مفجعة.. وما كان أحد في الدنيا يتوقع نهوضها منها مرة أخرى، لأن هزيمتها كانت قاسية مؤلمة، خلفت وراءها دمارًا وضياعًا كبيرًا وخسائر بشرية هائلة.

لكن العزيمة والإرادة ملأت نفوس اليابانيين رغبة في النهوض والانتصار على تلك الكبوة..فلم تحبطهم مشاهد الدمار، ولم تُثنهم صور الخراب على استئناف الحياة والنجاح فيها.

واليوم نرى قوتها الاقتصادية، ومنتجاتها التي غزت العالم، وتفوقت فيه على الغرب، بل على أمريكا التي تجرعت على يديها طعم الهزيمة.

كتب السفير الأمريكي (إدوين أشاور) كتابًا تحت عنوان اليابانيون، طرح فيه سؤالًا جوهريًا، ما سر اليابان؟ وما سر نهوضها؟ وأجاب: بأن سر نهوضها شيئان اثنان، هما: إرادة الانتقام من التاريخ، وبناء الإنسان، هذا هو الذي نهض باليابان إرادة الانتقام من تاريخ تحدي أمة هزمت وأهينت فردت على الهزيمة بهذا النهوض العظيم، وبناء الإنسان الذي كرسه نظام التعليم والثقافة، النقلة النوعية التي أحدثها الشعب الياباني في التاريخ الإنساني المعاصر، تعد مثلًا أعلى لشعوب العالم، ولا غرو فهزيمة كبرى تلحق به في الحرب العالمية الثانية تثير في نفوس أبنائه الغيرة على بلادهم، وتلهب نيران الحماسة في صدور شبابه على مستقبلهم ومكانتهم بين دول العالم، ولذا فهم استمروا في المحاولات وظلوا وما زالوا يبحثون عن السبل التي تمكنهم من الرقي والتقدم، وما انفكوا حتى حولوا بلادهم إلى مكانتها

المتقدمة بين شعوب الأرض قاطبة، فأصبح اسم اليابان مطبوعًا في أذهاننا؛ لما يقدمه ذلك البلد من اختراعات وصناعات للعالم، ذلك البلد الذي لم تثنه الحروب عن التقدم والازدهار، وعكف على بناء نفسه، وأدرك قادته أن لا سيادة لهم إلا بالعلم واليد العاملة.

إن هذه التجربة التي أبهرت العالم وتفوقت على الدول التي تعد عملاقة من حيث الاقتصاد والصناعة ولها أكبر عدد من الخبراء في شتى المجالات بما فيها التعليم، وعلى رأس هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية، التي لم تخجل في أن تنقل تجربة اليابان حرفًا بحرف حيث كلفت فريقًا من الخبراء والباحثين التابعين لمكتب البحوث التربوية بإعداد دراسة مستفيضة حول التعليم في اليابان والتي طبعت على شكل كتاب في ١٧٦ صفحة من القطع المتوسط موزعة على ١٨ فصلا تتناول كافة أوجه وقضايا التربية والتعليم في اليابان بدءا بالأسس التاريخية والحضارية والثقافية للتربية اليابانية وانتهاء بأوجه الاستفادة من التجربة اليابانية في التعليم. وعند انتهاء البحث قام بختمه وزير التربية الأمريكي ويليام بينت وعدد من مستشاريه»(٨٦).

86- راجع مقال عبير الرملي في الأهرام 2-01-1102م تحت عنوان : الإنسان هو القيمة الحقيقية.

وتعد اليابان هي الدولة الوحيدة التي قصفت بسلاح نووي، واستسلمت دون شرط أو قيد، وسرح جيشها البالغ خمسة ملايين جندي، وتركت الحياة العسكرية وآلاتها ومعداتها، واهتم شعبها بالتعليم كما رأينا، وبلغوا فيه مبلغًا كبيرًا..وجعلوا منه جسرًا يعبرون به فوق آلام الهزيمة إلى النهضة الطموحة.

كما عقد (إدوين أشاور) مقارنات غريبة في كتابه استنتج خلالها « أن الطفل الياباني يحصل على نتائج عالية في الاختبارات الدولية التي تقيس القدرات في الرياضيات والعلوم أكثر من الطفل الأمريكي والبريطاني والفرنسي وغيرهم من الجنسيات الأخرى، أما طالب المرحلة الثانوية البالغ من العمر ١٤ عامًا فيكون قد تعرض لتعليم ومعرفة لم يتعرض له طالب أمريكي إلا إذا بلغ من العمر ١٧ أو ١٨ عامًا، لماذا؟ لسلامة نظام التعليم الياباني، ويقول: إن سر نهوض اليابان هو المورد البشري وتنمية هذا المورد العظيم، مما جعل اليابان تتقدم على الصعيد العالمي في نسبة العلماء والمهندسين (٦٠,٠٠٠ لكل مليون نسمة)، وينخرط نحو (٨٠٠,٠٠٠) ياباني في مراكز الأبحاث والتطوير، وهذا العدد تجاوز ما لدى بريطانيا وألمانيا وفرنسا مجتمعة معًا»(٨٧).

87- من مقال (التعليم من حولنا – التجربة اليابانية.. نموذج الترقي بعد التردي بقلم) – د.حسن الباتع عبدالعاطي.

وقد أراد الأمريكيون بعد نهاية الحرب أن يضعوا أيديهم على الخبرة اليابانية في الثروة الإلكترونية، وأنشأت أمريكا مركز (سليكون فالي) ليكون موئل هذا النوع من الصناعات في القرن الحادي والعشرين، إلا أنه تخلف عن الركب، وسبقه اليابانيون بمراحل شاسعة، حينما كانوا أذكي من هذه الخطة الاستعمارية في السيطرة على التقنية الحديثة، وأحكموا سيطرتهم على جملة العلوم.

ونجحت اليابان ولم تعقها الهزيمة العسكرية أو تكبلها عن النهوض، وأصبحت الأولى في مجال الإلكترونيات على مستوى العالم.

لم يغرق اليابانيون في حزنهم وتعاستهم، ولم يغط الرجال والنساء في بكائهم على موتاهم منتحبين صباح مساء..لقد أيقنوا أنهم هزموا..ولكن يقينهم بأنهم يستطيعون النهوض مرة أخرى، كان أقوى وأمكن.

أما (كوريا الجنوبية) فإن نهوضها يعد أمرًا خارقًا للعادة، أو معجزة من المعجزات التي تدهش العقول، ففي غضون ثلاثين عامًا تتجاوز أزمتها ومحنتها لتكون في مصاف الدول القوية العفية.

وقد وصفوا حالتها في مطلع الستينيات بأسوأ ما يكون، فاقتصادها مترد بعد حرب أهليّة مدمرة سبقتها عقود من الهيمنة الاستعمارية،

وخرجت من حربها مع كوريا الشمالية التي انتهت عام ٥٣ وهي أشبه بالخرابة، التي لا يوجد بها أي معلم من معالم الحياة، واشتهر ساكنوها بأكل الكلاب والصراصير وكل شيء قذر، حتى أراضيها لم تكن صالحة للزراعة، ونسبة المياه بها أقل من ١,١٪، كانت نسبة الأمية عالية، ومظاهر التنمية بسيطة، والفساد في أشده، ولا تهدأ فيها المظاهرات، حتى قدم رئيسها استقالته عام ١٩٦٠م عقب المظاهرات الطلابية التي اندلعت احتجاجا على التلاعب في نتائج الانتخابات، وفي عام ١٩٦١ قاد الجنرال (بارك سونج هي) انقلابًا عسكريًا ضد الحكومة الديمقراطية لرئيس الوزراء (تشانج ميون).

و نسوق هنا شيئًا من غرائب الرحالة التتري الشيخ عبد الرشيد ابراهيم حينما مر على على كوريا ، حيث وجد الكوريين يعملون حمالين عند الصينيين واليابانيين، ويقضون حاجاتهم في الطرقات، فإذا جاء الليل أووا إلى حظائر للنوم، فقابل أحد الكوريين في القطار فسأله عن مستقبل الأمة الكورية، وكان من دأب الشيخ سؤال الناس عن مستقبل أممهم، فرد الكوري باكيًا : «نحن أمة كالبهائم، نحن أمة لا مستقبل لها» . هكذا كانت نظرة الكوريون لأنفسهم في تلك الحقبة..!

يقول الدكتور صالح السامرائي(٨٨) في تعليقه على ما حكى عبد الرشيد إبراهيم:

88- رئيس المركز الإسلامي في اليابان

«نتابتني مشاعر غريبة وأنا أقرأ هذا في رحلته، فكوريا قبل أقل من مائة عام لم يكن أحد يتوقع لها أن تصل إلى شيء من الحضارة المادية، واليوم كوريا تصل إلى مستويات رفيعة في عالم التقنية والإنتاج، وهي أمة صغيرة قليلة بلا تاريخ ولا دين ولا حضارة سابقة، وكدت أبكي وأنا أتذكر أمتي ذات الحضارة العظيمة والتاريخ الرائع، والدين السامي الجليل، والتراث الذي ليس مثله تراث في الدنيا، تذكرت كل ذلك وقارنته بما نحن عليه اليوم من تخلف وضعف، ولا يقارن حالنا بحال كوريا، وللمقارنة فقط أقول إن براءات الاختراع التي ثبتت لكوريا من سنة ١٤٠٠حتى١٤٢٠هـ/ ١٩٨٠ حتى٢٠٠٠م كانت قرابة أربعة عشر ألف براءة، أما الدول العربية مجتمعة فكان ما ثبت لها في المدة نفسها قرابة أربعمائة براءة اختراع فقط فإنا لله وإنا إليه راجعون.»

اعتمد اقتصادها في بدايته على الإعانات الدولية كجزء من طوق النجاة، وتوجهت نحو التعليم الفاعل والتدريب الفني، والعمل على الاستفادة من قدرات الموارد البشرية لتحويل اقتصادها من وضعه البدائي الهشّ، إلى اقتصاد يقوم على التصنيع والإنتاجية العالية، وصدرت عمالتها إلى الخليج وليبيا وغيرهما فهم من شيدوا البنية التحتية لهذه الدول في السبعينيات والثمانينيات، وبعد حرب الخليج ١٩٩٠م، رجعوا لديارهم وصدروا أول سيارة هونداي

إلى منطقة الخليج بعد خمس سنوات.

لم تكتف كوريا الجنوبية بالسيارات فقط، ولكنها غزت العالم بالمفاعلات النووية، وتوصلت للتقنية النووية بسرعة فائقة، ووقعت اتفاقيات مع بعض الدول لبناء محطة نووية بها، والآن ما يقارب ٣٠٪ من الإنتاج للكهرباء وتحلية المياه يتم عن طريق الطاقة النووية في كوريا.

ووصلت بها التقنية إلى الأجهزة الكهربائية ومنافسة الأسواق الأوروبية والأمريكية بكل ما هو بسيط ورخيص نسبيًا، وتنوعت الصناعات الرئيسة لتنضم إليها صناعات البتروكيماويات والإليكترونيات وبناء السفن وصناعة النسيج ومنتجات الصلب، وارتفع معدل النمو في الناتج القومي الإجمالي بصورة قياسية، وتحتل كوريا في الوقت الراهن المرتبة الثالثة عالميًا من حيث الإنتاج الإجمالي العالمي لأشباه الموصلات، بل وأصبحت أكبر دولة مصنعة لشرائح «دي. رام» على مستوى العالم منذ عام ١٩٩٨م، وغير ذلك من صور التقدم المستمر.

ثم كانت هناك حقائق اقتصادية، فكوريا هي: ثانى أكبر مُصنع للصلب على مستوى العالم، وأكبر مُصنع للشاشات بجميع أنواعها، وبها أعلى معدل اتصال بالإنترنت حيث تمتلك واحدة من أقوى الشبكات فى العالم، وحصلت على مراكز متقدمة في

صناعة السيارات، وتعد أكبر مُصنع للسفن إذ (تملك أكبر مصنع للسفن في العالم بواسطة هيونداى للصناعات الثقيلة)، وبها أكبر شركة مصنعة للإلكترونيات (سامسونج)، وأعلى معدل زيادة فى براءات الاختراع، وتعد من أكبر المصدرين على مستوى العالم.

ويالها من مفارقات حينما تتغير ثقافة الشعوب، لتتبدل من حال إلى حال، ويتغير الإنسان فيها ليتحول من شخص غارق في الجهل والخرافة، إلى شخص يتسابق العالم عليه لعلمه وبراعته..وهذا تمامًا ما حدث في الهند..هذه الهند التي كتب عنها (سلامة موسى) في بدايات القرن الماضي تحت عنوان (الهند العظيمة المسكينة) فقال:

« ارتاع الإنجليز كما ارتاع الأمريكيون من كتاب ألفته سيدة أمريكية تدعى الآنسة مايو عن الهند، تناولت فيه أحوال العائلة الهندية وعرضتها بالتفصيل على قرائها كما رأتها بعينيها مدة إقامتها في تلك البلاد..وكلنا إذا ذكر الهند خطر بباله الاستعمار الإنجليزي وسيئاته واستنكر أفاعيل الإنجليز بالهند وود لو تقوى عصبة الأمم حتى تصير حكومة عالمية حقًا وتحكم بطرد الإنجليز من ذلك القطر الذي يكاد يكون قارة..ولكن كل من يقرأ كتاب هذه الآنسة الأمريكية يعرف أن نكبة الهنود ليست في الإنجليز، بل هي إحدى النكبات الشاملة للأقطار الشرقية، وهي في عقائد

الهنود وعاداتهم وعباداتهم للماضي، وفي التنطع بأن للشرق حضارة تفضل حضارة الغرب، وفي التوهم بأن للهندي كرامة يجب أن ترفعه عن محاكاة الغربي، فهذه الهند العظيمة بحجمها الحقيرة بأبنائها ما زالت ترضى بأن تحكمها أديان وعقائد مضى عليها آلاف السنين، والعالم يتقدم ويتطور مدة هذه الآلاف من السنين والهند واقفة تشرح ما قاله علماؤها منذ ألف أو ألفي سنة تمارس عادات قديمة يهلك بها ملايين الأطفال كل عام، وليس بين الهنود واحد يجرؤ على تسفيه هؤلاء القدماء.

فهذه المؤلفة الأمريكية وجدت أنه يموت من الأمهات في كل جيل ٣٢٠٠٠٠٠ أمًا وقت الولادة، وذلك لأن هؤلاء الأمهات المسكينات يحملن وهن في الحادية عشرة من أعمارهن، إذ يتزوجن وهن في السادسة أو السابعة، وتأتي لهن مولدات يعالجنهن بالرقى والطلاسم عوضًا عن العلاج الطبي الحديث.

ويموت في الهند كل عام ٢٠٠٠٠٠٠ طفل لأن أمهاتهم لا يعرفن لصغر سنهن كيف يعنين بهم، وأيضًا لأنهن لا يدركن من معنى النظافة سوى تلك الطهارة التي تقول بها أديانهم، والتي تجعل روث البقر أطهر من ماء النهر، وتجعل الأم وقت النفس دنسة لا يقترب منها أحد طاهر. وتتزوج الفتاة، بل الصبية الهندية، قبلما تبلغ العاشرة من عمرها تؤخذ من ميدان اللعب إلى بيت الحريم،

حيث لا ترى سوى زوجها وضرائرها، وقد يكون زوجها فوق الخمسين، وقد ذكرت المؤلفة حوادث يقشعر لها البدن عاينتها بنفسها في مستشفيات المجانين، حين وجدت صبايا هن دون العاشرة، تزوجن رجالًا في أعمار جدودهن، فلما التقى العروسان لم تتحمل الصبية المسكينة فظاعة المنظر، ولا أطاقت ما يطلب منها من الواجبات المنزلية، فجنت، وحملت إلى المستشفى تنتظر الراحة الأبدية بالموت القريب، ولكن زوجها هندي مثقف يعرف السنة والفرض من عقائد آبائه؛ ولذلك رافعها إلى القضاء يطلب ردها إلى بيت الطاعة..والهنود أبناء هؤلاء الأمهات ينشئون ضعاف العقول خريعي الأجسام، لا يقوون على عمل ولا يصمدون لكفاح، يفتخرون بأنه كان لهم قبل ألفي سنة حضارة عظيمة.. وهذه الهند، الأمة العظيمة بماضيها المسكينة بحاضرها، لن تدخل في زمرة الأمم المتحضرة حتى تخلع عنها ماضيها وتسن لنفسها شرائع قائمة على العلم والتجربة والفائدة»(٨٩).

ويتحدث في موطن آخر عن تحديد النسل فيقول:

« إذا كان أهم أسباب الحروب هو فيض السكان على الأوطان، فإن أنجع علاج للحرب وخير ما يدرأها عن الناس هو تحديد النسل بحيث لا يزيد السكان على الوطن الذي يعيشون فيه،

89- في الأدب الحياة- سلامة موسى.

فيمتنع الازدحام الذي يدعو إلى المهاجرة أو إلى الاستعمار، وبذلك تقل المنافسة بين الأمم وتنتفي الحروب، والأمم الآن ليست عظيمة بعدد سكانها بل بمقدار ما فيها من صحة ونظافة، وحضارة وثقافة فهذه الهند مثلا يزيد سكانها عن ٢٢٠ مليون نفس، ومع ذلك فإن أسوج التي لا تبلغ ستة ملايين نفسًا أعظم منها، وأقدر على التمتع بالحياة منها، ولو نازلتها في حرب لغلبتها، ولو تبارى الاثنتان في علم أو أدب أو جمال أو فن أو حضارة لبزت أسوج الهند وأربت عليها.

فكثرة السكان الآن لا قيمة لها ألبتة، وإنما العبرة بما عند الأمة من وسائل لتعليم هؤلاء السكان، وما عند هؤلاء من أخلاق وعلم وصحة، وأكثر الأمم حضارة هن أقلهن نسلًا »

وبعد مرور عشرات السنين من كتابة هذا الكلام، والوصف المأسوي لحالة الهندي نقرأ ما كتبه الأستاذ (حسن شبكشي) في صحيفة الشرق الأوسط تحت عنوان «الهندي يضحك أخيرًا!»:

«قيل قديما في الأمثال العامة الشعبية: «من يضحك أخيرا يضحك كثيرًا». أعتقد أن هذا المثل قيل تحديدا لوصف حالة الهند والهنود مع العالم، فلم ينل شعب من النكات والطرائف كما نال الهنود عبر فترة غير بسيطة من الأزمان، سواء من مستعمريهم السابقين الإنجليز والغرب عمومًا، أم العرب وباقي دول العالم،

ولكن يبدو أن الهند تقبض الآن ثمن فاتورة الصبر والتحمل طوال هذه المدة الهائلة.

فها هو العالم يستقبل اختيار (ساتيا ناديللا) رئيسا تنفيذيا لشركة «مايكروسوفت» العملاقة للبرمجيات، ليكون اختيار «هنديًا» آخر جديدٍ في عالم الأعمال ومناصبها التنفيذية الرئيسة، وهو بذلك ينضم لقائمة طويلة جدا ومهمة جدا من الكفاءات «الهندية» التي تتصدر إدارات كبرى الشركات المتعددة الجنسية؛ شركات مثل «بيبسي» للمشروبات، و»دويتشه» بنك المصرف الألماني العملاق، وشركة «ماستر كارد» لبطاقات الاعتماد، وأنظمة «آدوب» الإلكترونية، وشركة «دياجيو»، وشركة «ريكيت بنكسرن»، وشركة تصنيع المكونات الآلية لأجهزة الحاسب الآلي «غلوبال فاوندريز»، وشركة «بريم واتسا» (التي استحوذت مؤخرا على شركة الهواتف الذكية «بلاكبيري»)، وطبعا كانت هناك شركات أخرى على هذه القائمة نفسها، ولعل أهمها شركة «ماكنزي» للاستشارات.

هناك حالة ارتياح تصل إلى ثقة استثنائية في الإداري الهندي، فاليوم في أهم كليات الأعمال في كبرى الجامعات الأمريكية يعد البروفسور الهندي من أهم منابع العلم والتعليم، كما شهدت على ذلك جامعات هارفارد وستانفورد وشيكاغو، على سبيل

المثال لا الحصر طبعا، وهذه العلاقة التوافقية تأتي من قناعة زائدة ومعقولة بأن الإداري الهندي يحصل على تعليم استثنائي في جامعات ومعاهد ومدارس مهمة جدا في بلاده، ولغته الإنجليزية قوية، وليس لديه أي عقد أو هواجس أو مخاوف من التعامل مع كل الحضارات والثقافات، فبلاده هجين وخليط غير عادي من الحضارات والثقافات والأديان والمذاهب، مما يجعلها نموذج العولمة الأهم، وطبعا يضاف إلى ذلك أنها هي الديمقراطية ذات الحجم الأكبر في العالم، وفي صون للحريات واحترام للرأي، وهو الذي سمح للمئات من الشركات العملاقة في مجال التقنية العالية والاقتصاد الرقمي العصري الجديد، بأن تنتقل للهند من عشرات السنين، وتستحدث فيها مراكز تميز وإنتاج لرأس المال البشري في مدينة بنغالور أولا، ثم مدينة حيدر آباد ثانيا.

ومن خلال هذا النهج جعلت عشرات الهنود يكونون مثل نجوم الكرة المرغوبين، تلاحقهم كبريات الشركات مثل «جوجل» و»أبل» و»سيكسو» و»مايكروسوفت» و»إنتل»، وغيرها، حتى جرى استحداث أنظمة وقوانين وتشريعات استثنائية لهجرتهم إلى أمريكا ككفاءات خاصة واستثنائية تفيد الاقتصاد الأمريكي، مما جعل الحصول على نوعيتهم من المواهب بمثابة دعامة لأمن الاقتصاد القومي في أمريكا.

إنه الرد الناعم للهنود ضد الرجل الأبيض الساكسوني الذي أذل الهند والهنود يومًا، وجعل زوج الملكة إليزابيث الأمير فيليب وهو يزور جناح الصناعات الهندية خلال معرض «لندن إكسبو» الكبير في حقبة الستينيات الميلادية من القرن الماضي يضحك أمام المعروضات ويقول: «وهل لدى الهند أصلًا شيء لتصنعه؟».

اليوم «الهندي» يشتري درر التاج الصناعي البريطاني مثل مصانع «شيفلد» للحديد، فيمتلكها الهندي ملك صناعة الصلب في العالم «ميتال» ويشترون «رانغ روفر» و»لاندروفر» و»جاغوار» لتصبح تحت ملكية شركة «تاتا» الهندية العملاقة، وليصبح الهنود اليوم نجوم الأعمال بتميز وجدارة وتسمع ضحكهم في فروع البنوك التي تحمل حساباتهم.

نجاح الهنود في عالم الأعمال هو تأكيد لفكرة إمكانية اللاممكن في عالم الممكن!»(٩٠).

***

90- مقال حسن شُبكشي بصحيفة الجمعة 70 ربيع الثانى 5341 هـ 7 فبراير 4102 العدد 55821.

دع الموت يأتي وقتما يريد !

التشاؤم وفقدان الأمل لا يعيق الحياة، بل يهدمها عند الكثيرين، فحينما يسيطر اليأس والشعور بالإحباط على النفس، فإن صاحبها يُعد نفسه من عالم الأموات..لا يستطعم أي معنى للسعادة، ولا يستسيغ أية ومضة للهناء، وتحال الأفراح في صدره إلى أحزان، ويستوي في وجدانه الموت والحياة، فالموت هو سيد المصير، وهو العاقبة الأبدية، فما قيمة الحياة إذن وما معنى أن نسعد فيها؟!

إن معنى الموت في حياتنا يجب أن يكون باعثًا لا هادمًا..

باعث على الإصلاح والاستقامة..لا هادم للأمل والنهوض..

يجب أن يكون واعظًا لنا يحجبنا عن الزلل، ويدفعنا للرشد..أما أن نحوله في فضائنا إلى شبح مرعب يهدم كل نظرة للأمام، فإنه الإيذان بنهاية الإنسان!.

وأسوق تجربة لأحد الأدباء يوم أن سيطر عليه هذا الشعور في صِغره، وكاد أن يقضي على معنى الحياة في نفسه..فمرة أخرى مع الأديب السحار، وهو يروي لنا إحساسه بشعور الموت المخيف الذي حاصر نفسه وكبل تفكيره وأرهق نفسه..

يقول السحار في مذكراته:

«كان لا ينقطع عن مدرستي سيل الجنازات، فهي في الطريق بين المشهد الحسيني والمقابر، فما كان يمر يوم إلا وأنا أذكر الموت، ولا شك من النعوش التي كانت تلازمني كظلي كان لها أثر عميق في نفسي إنها صارت إحدى مكوناتي، فقد عشت منذ نعومة أظفاري أفكر في الموت وأعتقد أنه الحقيقة الوحيدة في هذا الكون، وأشرد طويلًا مفكرًا فيما بعد الموت، وما أكثر الصور الحسية التي أمدني بها خيالي في ذلك الوقت للحساب ووضع الموازين والصراط والجنة والنار، وما أمتع الحوار الذي كان يدور في وجداني بيني وبين أقاربي، الذين تجرعوا كؤوس الموت، كنت أسألهم عما رأوا في الآخرة وكنت أجيب عن الأسئلة بألسنتهم إجابات أستمدها مما أختزن في ضميري من معلومات ساذجة من جدتي أو أمي أو بعض أصدقائي من الأطفال، كان الموضوع أكبر من تصورات غلام لا يزال في المدارس الابتدائية، ولكنني كنت شغوفًا باستطلاع كنه الحياة الثانية، وكنت ألقي سمعي وكل حواسي إلى مدرس الجغرافيا المتدين الذي كان يحلو له أن يحدثنا عن الدين وعن الموت وما بعد الموت».

ويقول في موضع آخر: «كانت العداوة مشبوبة بيني وبين الكتب المدرسية، فلا أذكر أنني فتحت كتابًا طوال مدة دراستي الابتدائية، رسبت في السنة الأولى فلما أعدت نفس الدروس –

سنة أولى – انتقلت إلى السنة الثانية، وفي السنة الثانية رسبت طبعًا، وامتحنت في الملحق في الترجمة فرسبت أيضًا، وجاءت وزارة سعد باشا فأجريت ملحقًا للملحق بحجة أن السنة قد ضاعت في الاضطرابات، فامتحنت مرة ثالثة في الترجمة، فكيف كانوا ينتظرون مني وأنا في السنة الثانية الابتدائية أن أترجم للإنجليزية تلك الجملة التي حضرت في ذاكرتي منذ ذلك الامتحان الرهيب:»إذا سرت في شوارع القاهرة رأيت المباني الضخمة العالية» وراح واضع الاختبار يستعرض عضلاته في اللغة العربية واللغة الإنجليزية، فرسبت في الملحق الثاني ورحت أعيد السنة.. وانتقلت بعد سنتين إلى السنة الثالثة، ووقعت المعجزة التي ما كان أحد من أهلي ينتظرها، وانتقلت من السنة الثالثة إلى الرابعة دون أن أرسب في أية مادة، وكانت دهشتي تفوق دهشة كل بيتي، فقد كان شيئًا لا يصدق أن أنجح دون أن أقرأ في الكتب التي كانت مقررة علينا، وما كان عزوفي عن القراءة يرجع إلى كسل بل ضنًا بجهد أنفقه دون ثمرة، فقد كانت فكرة الموت تلازمني، وكنت أقنع نفسي أنه عبث أن أتعب نفسي في المذاكرة ثم أصبح ميتًا، وكنت كلما استيقظت في الصباح، وفتحت عيني ورأيت النهار قد تنفس، أشعر هزيمة منكرة لأني لا أزال على قيد الحياة، وأن روحي لم تفارق جسدي في أثناء نومي».

«وتيقنت على مر السنين أن الموت ليس أمرًا سهلًا، وأنه ليس رهن إشارتنا، فعزمت على أن أغير نظرتي إلى الحياة، وأن أعمل وأن أذاكر وأن أترك الموت يأتي وقتما شاء.. وعزمت على أن أدخل السرور دومًا على قلب أبي، إنه لم ينهرني أبدًا لرسوبي المتكرر، وكان يدفع مصروفات المدرسة في مواعيدها عن طيب خاطر، بل كان يعاملني معاملة فيها شيء من التدليل، أفيكون جزاؤه مني أن أرسب سنة وأنجح سنة، وما ذلك لقصور في مداركي، بل لأنني أنتظر الموت في كل ليلة..إنني سأبذل قصارى جهدي لأشق طريقي في الحياة وليأت الموت وقتما يريد».

إن السحار قد صارح نفسه، ولم يشأ أن يتركها لرياح الأوهام تعصف بها إلى مصير مجهول..ولعل هناك من يستلذ بالهزيمة، ويستسلم لعيائها، ويدمن جوها الكئيب، حتى ينتهي به المطاف للموت الحقيقي.

والرائع في القصة أن يظهر لنا مكون جديد من مكونات التحدي ومغالبة اليأس، فالوفاء لهذا الأب الرحيم، هو الذي جعل ولده الصغير يستحي أن يُحزن قلبه برسوبه المتكرر في الدراسة..إنه لابد وأن يرسم الفرحة على وجه هذا الأب الطيب.. ونحن نعرف أن دوافع التحدي والصمود، قد تكون نتيجة لشحذ الهمة، أو التشجيع المتواصل للخروج من الهاوية، أو نتيجة لقولة جارحة

تفجر طاقات النفس الضعيفة..

لكن.. ما أروع الوفاء والحب حينما يكونا يكونا دافعًا للنجاح!. وأعجب من هذا من يعلم متى يأتيه الموت..كمن يخبره الأطباء بدنو أجله، وأن استمراره في الحياة أصبح محالًا..لا شك أن بؤس الدنيا كلها يتربع فوق رأسه، ويصير الهم والغم كؤوسًا يتجرعها في كل لحظة يحياها..وربما عجل هذا الكرب المحدق بساعة الموت التي قدر الأطباء وقتها متأخرًا!

ويقص علينا (ديل كارينجي) قصة ذلك الرجل الذي صارع فكرة النهاية وانتصر عليها حينما رفض الانكسار وفتح لنفسه أبواب الأمل..لقد أصابته قرحة في أمعائه بلغ من خطورتها أن الأطباء حددوا له أوان وفاته، وأوعزوا إليه أن يجهز كفنه..وفجأة اتخذ هاني – اسم المريض- قرارًا مدهشًا..لقد فكر في نفسه (إذا لم يبق لي من هذه الحياة سوى أمد قصير، فلماذا لا أستمتع بهذا الأمد على أكمل وجه، لطالما تمنيت أن أطوف حول العالم قبل أن يدركني الموت، فها هو ذا الوقت الذي أحقق فيه أمنيتي).. وابتاع تذكرة السفر، فارتاع أطباؤه وقالوا له: إننا نحذرك، إنك إن أقدمت على هذه الرحلة فستدفن في قاع البحر، لكنه أجاب: كلا، لن يحدث شيء من هذا، لقد وعدت أقاربي ألا يدفن جثماني إلى في مقابر الأسرة..وركب هاني السفينة، وبدأ رحلة مشبعة باللهو

والمرح، وأرسل خطابا لزوجته يقول فيه:» لقد شربت النبيذ على ظهر السفينة، ودخنت السيجار، وأكلت أنواع الطعام كلها، حتى الدسم المحظور منها، وتمتعت في هذه الفترة بما لم أتمتع به طوال حياتي» وذكر كارينجي: أن الرجل شفي من مرضه، وأن الأسلوب الذي اتبعه وسار عليه أسلوب ناجع في قهر الأمراض ومغالبة الآلام»(٩١).

وهكذا تضرب أمواج السرور شواطيء اليأس.. وتقضى لهذا العاني حياة جديدة حينما قضى أولًا على مشاعر الإحباط.!.

وإذا كان الدواء لا يستطيع أن يدفع الموت، فإن الأمل من الممكن أن يدفعه بقدرة الله، ويفتح أمام الإنسان عمرًا جديدًا.. ويرسم البسمة التي جفت مآقيها من وجهه ومحياه!.

***

91- دع القلق وابدأ الحياة – ديل كارينجي.

الغرب ينتحر!

بقدر الرخاء والتقدم الذي يعيشه الغرب..فإنه لم يوفر الأمل والسعادة في الحياة لكثير من أفراده..وصارت كل مظاهر الرفاهية تنذر بمخاطر رهيبة، حين أوغلوا فيها وأغفلوا جوانب مهمة لا تستقيم الحياة إلا بها..

لقد وجدت هذه الحضارة المادية نفسها بكل إمكاناتها ووسائلها المتفوقة في صدام مع القيم..فأعداد هائلة من الشباب والشابات يقدمون على الانتحار يأسًا من حياتهم..وعلاجًا لما يشعرون به من قلق واضطرابات وآلام نفسية..وفي عام ٢٠٠٧م، عقد مؤتمر في مدينة جينيف لبحث ظاهرة الانتحار..فكان مما خرج به، أن أغلب المنتحرين من شريحة الشباب، ومعظمهم مرضى بالشذوذ الجنسي، وأمراض الاضطرابات النفسية، ويعاني معظمهم من الضياع، وانعدام الترابط الاجتماعي، مع خواء نفسي وروحي شديد، فالكنائس مهجورة، ولا يعرف الشباب عن التدين شيئًا، ويجعلون من المتدين شيئًا غير مألوف.

«وذكرت منظمة الصحة العالمية في أحد تقاريرها أن الانتحار في أكثر الدول الغربية مسؤول عن الموت، أكثر من النزاعات المسلحة وحوادث السير في الطرقات.

وتتركز أسبابه وسط المراهقين والشباب في الشعور بالعزلة، وافتقاد الحياة الأسرية السليمة والعاطفية، وعدم الثقة في المستقبل والفراغ، والعنف داخل الأسرة وإدمان الكحول، أما فئة المسنين فتعود أسباب الانتحار فيها، إلى العزلة والتقوقع على الذات وفقدان الشريك والمساندة العائلية.

وهذه هي النتيجة الحتمية حينما نوغل في المادة ونبتعد عن الروح.!.

«وهكذا تكون الحضارة الغربية بفرعيها الرأسمالي والشيوعي حين أفقدت الإنسان اطمئنانه واستقراره ومثله الإنسانية الرفيعة وحين جعلت الرفاه المادي هو المثل الأعلى الذي تستحث الخطى نحوه، فإن لم يصل إليه طالبه عاش شقيًا، وإن وصل إليه عاش ملولًا لا ينتهي من ملله إلا بالانتحار!..

وكان بعض المسلمين العرب يتحدث إلى لفيف من الشباب الفرنسيين المسلمين عن عظمة الإسلام ومسايرته للتطور والتقدم، واسترسل في هذا كأنه يتحدث في بلد عربي يتوق إلى القوة والمجد، فأخذ يؤكد أن الإسلام يدعو إلى اتخاذ القوة وصنع الدبابات والطائرات و.و.إلخ..فقال له أحدهم: يا أخي نحن إنما هربنا من الحضارة الغربية إلى الإسلام لأنها أتلفت أعصابنا بالحروب وأسلحتها وأفقدتنا إنسانيتنا حين أماتت أرواحنا وأحيت شهواتنا

بماديتها فحدثنا عن روحانية الإسلام الذي وجدنا فيه كرامتنا الإنسانية واطمئناننا الروحي!»(٩٢).

لقد طال الانتحار حتى بعض المفكرين والفلاسفة، وقد بنى العديد من المفكرين الأوروبيين مذاهبهم الفلسفية على الانتحار بوصفه دليلًا على حرية الاختيار في الحياة، مثل الفرنسي (ألبير كامو) الذي أدت نظريته هذه إلى انتحار العديد من القراء الشباب الذين تأثروا بها، ووضع العديد حدًا لحياتهم مثل (أرنست هيمنغواي) و(نيتشه) والمغنية (مارلين مونرو) وغيرهم كثير، وهؤلاء هم أنفسهم من كانوا يبشرون بالقيم الغربية المادية، وأخلاق القوة والتقدم والعقل، فراحوا ضحية هذه القيم»(٩٣).

أما الإحصاءات في البلدان الغربية فكانت شيئًا مفزعًا كما جاء في بعض التقارير، ففي فرنسا على سبيل المثال، تسجل كل سنة ١٢,٠٠٠ حالة انتحار، وهو عدد يفوق بمرة ونصف عدد ضحايا حوادث السير في فرنسا، وتضع الإحصاءات حول ظاهرة الانتحار فرنسا على رأس دول أوروبا الأكثر عرضة لهذه الآفة بعد الدنمارك والنمسا وفنلندا، ويحاول مئات الفرنسيين وضع حد لحياتهم بالانتحار، ولم تتغير هذه النسبة في السنوات بين ١٩٨٠

92- من روائع حضارتنا للمغفور له الدكتور مصطفى السباعي.
93- من مقال آفة الانتحار في المجتمعات الغربية - لإدريس الكنبوري بتصرف.

و١٩٩٩، ومنذ سنة ١٩٩٠ تضاعف عدد المنتحرين في صفوف المراهقين (١٥-١٩ سنة)، وازداد بثلاثة أضعاف ونصف في صفوف الشباب بين سني ٢٥ و٣٤ سنة، وقد أدى شيوع هذه الظاهرة ونموها بوزارة الصحة الفرنسية إلى أن يعد الانتحار أولوية في برامجها.

أما في ألمانيا.. فإن ما يقرب من ٤٠٠ مراهق يغادرون الحياة كل سنة، بسبب الانتحار لدى المراهقين الذين لا تتجاوز أعمارهم العشرين سنة، أما عدد المراهقين الذين يحاولون الانتحار، ولا يوفقون بسب تلقيهم الإسعافات، أو الإنقاذ في اللحظة الأخيرة فهو يتجاوز الرقم المذكور بثلاثين مرة، وحسب الإحصاءات الرسمية لوزارة الصحة الألمانية فقد أقدم ١٢٨٨٨ شخصًا على الانتحار في عام ١٩٩٥ وحده، أي أكثر بكثير من ضحايا حوادث السير في تلك السنة، بينهم ٢٨٦ تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٠ سنة، و٥٢٠ بين ٢٠ و٢٥ سنة، وكانت الوسيلة الأكثر استعمالًا للانتحار هي الشنق أو القفز من علوًّ شاهقٍ، أو بواسطة التسمم، وهو الوسيلة الأكثر رواجًا.

«وفي بريطانيا تبلغ نسبة المنتحرين من المراهقين نحو ٤٪ من كل مائة ألف مراهق، وترتفع لتصل لنحو ٤٧٪ من كل مائة ألف لدي الذين تعدوا سن الخامسة والخمسين عامًا، وترتفع لتصل لنحو

٥٧٪ للذين فاقت أعمارهم سن الخامسة والسبعين عاما.

ولا يختلف الأمر كثيرًا عن المعاناة التي يعيشها أفراد الجيش الأمريكي، والتي أصابت الكثير منهم بأمراض نفسية خطيرة، وحدت بالكثيرين منهم إلى الإقبال على الانتحار هربًا من جحيم الحرب المستعرة في العراق»(٩٤).

***

94- الانتحار في الغرب..ظاهرة تستحق التأمل!- ترجمة: يوسف وهباني.

ثقافة الانتحار

حينما يكون الانتحار نابعًا من مؤثرات نفسية، أو نتيجة عوامل اجتماعية قاسية..فإن الإنسان قد يعذر حينما تتغلب عليه الهموم التي لا تتحملها نفسه الضعيفة.

وقد نلوم الأسباب التي دفعته لهذا الفناء، وربما نقوم بعلاجها حتى لا تذهب بغيره من المحيطين..

كل هذا يمكن تصوره وتقبله..أما أن يتحول الانتحار لثقافة تؤمن بها بعض الشعوب فهذه مصيبة المصائب..

ومن مشاهد الاستغراب أن تجد هذا في اليابان فللانتحار طقوس وفلسفة وجذور تاريخية ينظر إليها الشعب الياباني بتقدير واحترام، ورغم الانحسار النسبي لهذا النوع من الانتحار، فإن البعض مايزال ينظر إليه بكثير من التبجيل والاحترام، كونه آخر ما يتبقى للمرء من مظاهر الكبرياء والاعتزاز بالنفس.!.

فهذا الطقس الانتحاري المقدس يسمى (هاراكيري) حيث يجلس الضحية على ركبتيه، ويمسك سيفًا خاصًا يغرسه أسفل بطنه ثم يرتفع به إلى زاوية الرئتين، ويظل على هذه الوضعية حتى يتصفى دمه تمامًا..وهي صورة الانتحار التي اشتهر به فرسان السموراي ممن كانت تجبرهم كرامتهم على الانتحار بدل مواجهة

عار الهزيمة والفشل.. وفي العهد القريب وحتى الحرب العالمية الثانية ظل هذا الأسلوب متبعًا وموجودًا لدى الضباط والجنود الذين انتحروا بعد هزيمتهم من أمريكا.

و»هناك ما يدعى «مواسم الانتحار» التي تترافق مع أوقات الامتحانات ونشر نتائج القبول في المعاهد والجامعات - حيث يعمد كثير من المحبطين لوضع نهاية لحياتهم.. كما ينتحر عدد كبير من المراهقين والشباب لأسباب عاطفية أو اجتماعية - أو لمجرد الانضمام لقائمة العاطلين عن العمل - في حين ماتزال طريقة الهاراكيري منتشرة بين مديري الشركات المفلسة والمنهارة!

قبل نهاية كل عام ميلادي تُصدر الحكومة اليابانية تقريرًا فريدًا يدعى «سجل الانتحار الوطني». وهو سجل يرصد مؤشر الانتحار في المجتمع الياباني وأبرز متغيراته خلال العام «المنصرم».. ونظرًا لقرب وفي (٢٠٠٧م) أعلنت الحكومة اليابانية، أن عدد المنتحرين مايزال فوق حاجز الـ ٣٠ ألفا للعام التاسع على التوالي..وأكثر من نصف هؤلاء من الذكور - وأكثر من نصفهم من الطلاب والعاطلين عن العمل!

وهذا الرقم يعد محبطًا للحكومة اليابانية التي بدأت برنامجًا لخفض عدد المنتحرين إلى ٢٤ ألف حالة بحلول عام ٢٠١٦م.. فقد أغلقت مثلا مواقع الإنترنت التي تشجع المراهقين على

الانتحار، ووضعت لوحات توعوية قرب خطوط القطارات (التي يرتمي تحتها ١٦٪ من المنتحرين سنويًا)!»(٩٥).

وتستوقفنا دومًا قصة الروائي الياباني (يوكيوميشيما) الذي كتب أول أعماله وهو في السادسة عشر من عمره، وفي مشوار حياته كله، أنتج مائة عمل أدبي لاقى بعضها نجاحًا ورواجًا.

وفي عام ١٩٦٥ بدأ يكتب أكبر أعماله، وهي رواية (بحر الخصب) من أربعة أجزاء، وضع فيها خلاصة خبراته وفكره وتجاربه الإنسانية والأدبية..وظل يكتب هذا العمل مدة خمس سنوات، حينما كان يخاطب أصدقاءه ويقول لهم: إنه بعد هذه الرواية لن يجد شيئًا يقوله للناس ما كانوا يصدقونه وبعد انتهائه من آخر رواية في حياته أعلن أنه سينتحر انتحارًا علنيا يشاهده الجميع، لأنه يحتج على تغلغل القيم الغربية الحديثة في حياة اليابانيين، والتي تسببت في إهدار التراث الياباني وما فيه من تقاليد وسلوكيات وفكر.. حتى جاء اليوم المحدد، فلف حزامًا في وسطه، وأمسك بسيفه الحاد وأغمده في بطنه فسقط على الأرض ودماؤه تسيل، وحوله الصحفيون والمصورون ووكالات الأنباء، تشاهد وتسجل هذا الحدث الكبير دون أن تمنعه كان عمره وقتها لايزيد عن ٤٥ عامًا،

95-جريدة الرياض – مقال ثقافة الانتحار في اليابان – فهد الأحمدي بتاريخ الأحد 51 ذي القعدة 8241 هـ - 52 نوفمبر 7002م - العدد 89341.

وبعد موته يقول فيه النقاد: إنه لو عاش مائة سنة بعد وفاته، لما كتب شيئًا يفوق رباعيته التي بلغ فيها قمة عبقريته الأدبية، ويبدو أنه كان يشعر أنه لن يستطيع أن يكتب مثلها في إبداعها وجمالها، وعرف أن ساعة النهاية قد أوشكت، فقرر أن ينهي حياته قبل أن يتعذب بنضوب موهبته الأدبية!.

وقال آخرون: إنه في الحقيقة كان يستجيب لهاجس ظل يراوده معظم سنوات حياته، ويطالبه بالانتحار(٩٦).

***

96- عاشوا في خيالي – عبد الوهاب مطاوع.

متفائلون حتى النهاية!

وعلى خلاف هذه الموجات البائسة وأفرادها الأشقياء، كان هناك من غمر حياته بالتفاؤل، وجعل من الأمل أسلوب حياة.. لقد آمنوا بأن دورهم فيها مازال قائما، ما دامت الروح تدب في جسومهم!.

وأنقل هنا بعض ما قرأته من مظاهر الأمل المتدفق في نفوس بعض النابغين الغربيين المتفائلين في الحياة، والذين لا يحدهم طموح عن العمل والإنجاز فيها، حتى وإن داهمهم الشيب، وهاجمتهم سهام الشيخوخة..

كان (ساندرز) رجلًا طاعنًا في السن، فقد بلغ السبعين من عمره وأحيل للتقاعد، ولم يكن يملك غير أشياء بسيطة، وحين وصل إليه أول شيك بالمعاش من البنك، وكان أقل من ١٠٠ دولار مزقه وقال:إنني لا يمكن أن أعيش بهذه الطريقة، فأخذ قائمة الطعام التي يمتلكها، وهي عبارة عن فكرة مطاعم (كنتاكي) الآن، وعرضها على أكثر من مطعم، وكان أغلبهم يرفضون العرض، ولكنه لم ييأس وبالإصرار والصبر.. أصبح الآن صاحب أشهر مطاعم في العالم، والسبب في ذلك أنه استطاع أن يعيش أحلامه ويحقق ما يريد من نجاح وإنجاز بعد سن السبعين.!.

والرسام الإيطالي (تيسيان) (١٤٧٧-١٥٧٦) الذي تعرض المتاحف العالمية لوحاته، ظل يتعلم ويجدد في أسلوبه للرسم، ويرسم لوحاته الرائعة حتى آخر لحظة في عمره، وقال وهو في التاسعة والتسعين: إنه لا يزال أمامه الكثير من آفاق الفن التي لم يصل إليها بعد، ويحلم بالوصول إليها! و(محمد علي) مؤسس مصر الحديثة بدأ يتعلم العربية وهو في الخامسة والأربعين من عمره ، و (النابغة الزبياني) قال الشعر لأول مرة في حياته وهو يقترب من الستين، والفيلسوف الألمان (ي شوبنهور) فاجأته الشهرة وهو يقترب من السبعين ، و (أفلاطون) لم يبدأ الكتابة إلا في سن الثامنة والأربعين بعد أن أكمل دراسته واكتملت له فلسفته التي عرفت بعد ذلك بالأفلاطونية الحديثة.

والموسيقار الإيطالي (فردي) (١٨١٣ - ١٩٠١) ظل يعزف موسيقاه ويسعد بها الأسماع ويملأ بها الدنيا حتى قارب التسعين، ولم يتوقف لحظة عن الإبداع والتفكير والإضافة للحياة!.

والفنان (مايكل أنجلو) رفع رأسه يومًا إلى سقف كنيسة (سيستينا) وهو يقترب من التسعين وراح يتأمل لوحته الرائعة (الخليقة) أو خلق آدم، التي رسمها في سنوات، وقال والأسى يملأ قلبه:لو كان لدي متسع من العمر لما ترددت لحظة في أن أبذله في تحسين هذه اللوحة وزيادتها إتقانًا وجمالًا.

أما الأديب الفرنسي (فونتونيل) الذي مات وعمره مائة عام كاملة، ظل حتى يومه الأخير يكتب ويفكر ويتأمل ويدافع عن أفكاره ويناظر الآخرين..ومثله (برنارد شو) (١٨٥٦- ١٩٥٠) ظل يكتب ويؤلف ويتابع تجارب مسرحياته بنفسه ويختلف مع مخرجيها..ويهتم بشؤون الحياة والعالم، ويعلن رأيه في أحداثه مؤيدًا ومستنكرًا ومهاجمًا حتى مات عن عمر ٩٤ عامًا، وكان يرجو المزيد من العمر في الحياة، وكان يرى أن العمر الطبيعي للإنسان ينبغي ألا يقل عن ٣٠٠ سنة حتى يستطيع أن ينجز كل ما يريد، ويحقق كل أهدافه.

ويموت (شون أوفالين) عن ٩٠ عامًا وشهرين..وقد ظل حتى يومه الأخير يكتب ويؤلف ويهتم بنقد النقاد لقصصه القصيرة ويجادلهم فيه بحماسة شاب في العشرين.

ويبلغ (هنري فورد) رجل الصناعة الأمريكي الثمانين وهو يعمل ١٤ ساعة يوميًا على الأقل، حتى استطاع أن يبني إمبراطورية صناعة السيارات التي تحمل اسمه، ولما سأله أحد الصحفيين: لماذا تعمل ١٤ ساعة يوميًا بعد أن حققت هذه الثروة..هل تريد مزيدًا من المال؟

فأجابه: لا..لكن عجلتي قد دارت بأقصى قوتها منذ الـ٢٠ وعجزت عن إيقافها الآن..لأن وقوفها لن يعني لي إلا الموت!

وظل كذلك حتى رحل عن الثمانين بأربعة أعوام، وهو يرأس إدارة شركته الضخمة بنفسه إلى أن شعر بشيء من التعب، فأخلف حفيده في إدارة الشركة، وظل يراقب العمل ويخطط لمشروعاته. «إن سن الخمسين والستين والسبعين إلى ما بعد الثمانين بل إلى آخر نفس في الحياة ليس سن إجازة مفتوحة وتعطيل كامل لدور الإنسان في حياته، والوقوف على هامشها، طالما هناك عرق ينبض. فقد تبدأ حياتك في سن الخمسين أو الستين، وما بعد الستين وتكتشف ما عشته قبلها ما هو إلا هامش، فالكثير من الفلاسفة وضعوا خلاصة تجربتهم في سن متقدمة»(٩٧)

ومن مثقفينا العرب من كان على هذا الأمل الفسيح في نظرته للحياة..فقد كان العقاد يكتب ويؤلف ويطرح آراءه ويدافع عنها، ويعارض خصومه ويخالف معارضيه حتى الأيام الأخيرة من حياته، وكان يرى أن العمر الطبيعي للإنسان ينبغي أن يساوي ٦ أمثال الفترة التي يستغرقها نضجه فإذا كان نضج الإنسان يستغرق نحو ٢٠ سنة، فالمفروض أن يعيش ١٢٠ سنة، فإذا لم يبلغها، فإن ذلك قد يرجع إلى مخالفته لسنن الطبيعة في الغذاء والسكن إلى جانب الإسراف في إنفاق قواه الجسدية والعقلية. وكان يقول عندما بلغ الخمسين : «كنت شيخًا في الشباب فلا

97- من مقال الهاربون من الحياة - لأحمد هلال - جريدة اليوم السعودية عدد 31151

عجب أن أكون شابًا في الشيخوخة»وحينما بلغ الستين وسئل عن خرف الشيخوخة قال «الذين حسبوا أن الخرف والشيخوخة حالتان متلازمتان، بقية من بقايا القرون الغابرة، لأن العلم الحديث يعلم أن الخرف مرض من أمراض البنية وليس من الأعمار فمن نجا من جراثيمه نجا من أعراضه».

وأحمد لطفي السيد مترجم (فلسفة أرسطو) في عشرينيات القرن العشرين، والذي وصفه عباس العقاد «بأنه بحق أفلاطون الأدب العربي» كان يرأس جلسات المجمع اللغوي، ويناقش أعضاءه حول إقرار بعض الكلمات المستحدثة والاعتراف بها أو رفضها وإنكارها وهو في التسعين من عمره، ولم يتخلف عن حضور جلسات المجمع إلا حين أقعده المرض تمامًا عن الحركة، ومات عن ٩١ عامًا سنة ١٩٦٣م..

وفي عام ٢٠٠٩م يفاجئنا الأستاذ (محمد فريد عبد الخالق) بحصوله علي درجة الدكتوراه من قسم الشريعة بكلية حقوق جامعة القاهرة عن عمر يناهز ٩٤ عامًا، وكان عنوان الرسالة «الاحتساب علي ذوي الجاه والسلطان»، وقد دخل بذلك الإنجاز موسوعة (جينيس) للأرقام القياسية، بأنه أكبر باحث في السن يحصل علي درجة الدكتوراه في العالم، متفوقًا علي صاحب اللقب السابق الذي كان عمره ٩١ عامًا.

ورغم الظروف التي مرت به وعطلت إنجاز رسالته في وقت مبكر إلا أن روح البحث لم تمت في نفسه، ولم يهملها بمرور الزمن وبلوغه هذا العمر المديد، ولقد وصفها بقوله: «أعترف بأن الرسالة أخذت وقتًا طويلا، ربما بسبب اعتقالي لعدّة مرات، فضلًا عن وجودي خارج مصر لفترات طويلة، لكن ما أودّ أن أقوله، إنه منذ اليوم الأول الذي بدأت فيه العمل بتلك الرسالة وأنا شَغوف لأن أنتهي منها، بسبب أهميّتها الشديدة جدًا هذه الأيام، ولمعرفتي بأن المجتمع في أشدّ الحاجة لموضوعها، فكل القوى الموجودة في المجتمع باختلاف اتِّجاهاتها الفكرية، يسارية ويمينية وإسلامية وحتى الليبرالية هي بحاجة إليها».

ويصف الأديب والباحث والناقد الدكتور (حلمي القاعود) ذلك الإنجاز بقوله:

الأمر بالنسبة للطَّالب (محمد فريد عبد الخالق) يختلف كثيرًا، فعمره أربعة وتسعون عامًا، وهو أول طالب في العالم في مثل هذه السن يتقدم إلى درجة الدكتوراه؛ مما يؤهله لدخول موسوعة جينس للأرقام القياسية، من خلال عزيمة شابة، وإرادة قوية، ورغبة جارفة في العلم والمعرفة والبحث، تدفعه دفعًا إلى القراءة والتحصيل..

وهو بهذه الصفة ينفي عن الإسلاميين التهمة الرخيصة التي

يوجّهها الموالون للغرب عادة إليهم، وهي: الجهل وعدم القراءة؛ فكثير من الإسلاميين يحققون تقدمًا فريدًا في العديد من التخصصات العلمية، وجماعة الإخوان نفسها، تضم عددًا كبيرًا من المهنيين العلميين، أو ممن يسمون بالتكنوقراط، لهم باع واسع في جميع التخصصات، ولاسيّما التخصصات الدقيقة، ومنهم من يحمل أكثر من شهادة في تخصصات تبدو متعارضة مثل الطب والحقوق، أو غير متعارضة مثل اللغة العربية والحقوق، ومنهم من استفاد من فترة اعتقاله الظالمة، ليحصل على شهادات عليا، أو درجات علمية في الماجستير والدكتوراه».

وعلق الكاتب الصحفي الأستاذ (عادل الأنصاري) بقوله:

لم يمنعه علمه وهو الذي أثرى المكتبة الإسلامية بأبحاث ودراسات علمية ومؤلفات..لم يمنعه فضله وسبقه في الدعوة أن يكتفي بما قدم، ويستريح ما بقي له من الأجل بعد أن وهن العظم واشتعل الرأس شيبًا، بل حمل معه عزيمة وإصرارًا على العمل والأداء في تلك اللحظات الحساسة من حياة الإنسان.

وفي الثمانين من عمره رحل علم الأمة وأديبها الكبير، الداعية الفذ الشيخ محمد الغزالي، فقد شاء الله تعالى أن يدعى لمؤتمر بالرياض عام ١٩٩٦م، حول الإسلام وتحديات العصر الذي نظمه الحرس الوطني في فعالياته الثقافية السنوية المعروفة بـ

(المهرجان الوطني للتراث والثقافة بالجنادرية) وترجاه تلامذته ألا يذهب لئلا يتطاول عليه أحد الأدعياء، وكان الأطباء قد منعوه من السفر ومن الانفعال، ولكنه صمم على السفر وألقى فيه كلمة، وقام إليه أحدهم واتهمه بمعاداة السنة، فانفعل الشيخ وعلا صوته وهو يدافع عن موقفه من السنة وكان آخر كلامه: «نريد أن نحقق في الأرض لا إله إلا الله»

وفي تاريخنا الإسلامي كان هناك من يلازمه الأمل وهو على فراش الموت..فراش الوداع والرحيل عن هذه الحياة.!.

إنهم مؤمنون بالحياة ومؤمنون بأن لهم فيها دورًا سميًا لابد أن ينجزوه حتى الرمق الأخير.

فهذا (البيروني) وكان متعدد المواهب والعلوم فهو الرحّالةً والفيلسوف والفلكي والجغرافي والجيولوجي والرياضاتي والصيدلي والمؤرخ والمترجم لثقافات الهند..والذي وصف بأنه من بين أعظم العقول التي عرفتها الثقافة الإسلامية، وهو أول من قال: إن الأرض تدور حول محورها، صنف كتبًا تربو عن المائة والعشرين كتابًا.

وقال عنه صاحب معجم الأدباء: «لم تكن يده لتفارق القلم، ولا عينه النظر ولا قلبه الفكر إلا يومي النيروز والمهرجان عيدان

فارسيان كل سنة»

وقد روى عنه المؤرخون أن القاضي (كثير بن يعقوب) قد زاره وهو في النزع الأخير، ففوجئ بالبيروني يسأله وهو يعاني من حشرجات الموت، عن مسألة في الفقه مازالت تحيره..فتردد القاضي في إجابته إشفاقًا عليه وقال له: أفي هذه الحالة؟ فأجاب البيروني:نعم فلأن أموت وأنا عالم بهذه المسألة أفضل لي من أن أموت وأنا جاهل بها!

وأجابه القاضي إلى ما سأله وتحاور معه فيه، ثم غادره، فلم يكد يبتعد عن بيته حتى سمع نواح أهله عليه!

وروي مثله عن إمام المسلمين (أبي حنيفة النعمان) رحمه الله، الذي كان يناقش مسألة في الفقه وهو على فراش الموت، فلما أشفقوا عليه من ذلك قال: لا أحب أن تمر لحظة من حياتي لا أنفع فيها المسلمين.

وهي الحقيقة الإنسانية التي أدركها برنارد شو حينما قال:

«إن غضب الله سوف يحل بالذين لن يتركوا الحياة أفضل مما وجدت عليه حين جاؤوا إليها، وأن مشعل الحياة متوهج دائمًا وعلينا أن نسلمه للأجيال القادمة أكثر توهجًا مما وجدناه حين جئنا إلى الحياة».

بهذه الأرواح المضيئة..تسير الحياة، وينبعث النور والإشراق في

جنباتها..بهذا الأمل الكبير تسير الإنسانية حينما يوفيها أبناؤها النجباء ما ترجوه منهم..أما الذين فشلوا وأصيبوا بعجز الإرادة، واسودت أيامهم، وأطفأوا مصابيح المستقبل..فقد ظلموا أنفسهم حينما غابت من قرائحهم غاية الإنسان ودوره في الحياة.

إن أصحاب الرسالات يستقبلون محن الحياة وآلامها برضىً كبير، ويتمنون لو أضيفت إلى أعمارهم أعمار أخرى.. يبذلونها لرسالتهم ويحققون فيها غاياتهم.!.

أما التافهون الفارغون، فما أوهى نفوسهم في وجه الأعاصير!

***

إن النصر مع الصبر

لو أننا استسلمنا لرياح الأحزان وأعاصير الهموم..لأخذتنا وما أبقت علينا..

ولو أننا أعملنا في نفوسنا أقوال المحبطين لانتهت حياتنا.. وضاقت علينا دنيانا..

ومن هنا كان لابد من الصبر كصفة أصيلة تعيننا على لأواء الحياة، ووعورة الطريق.

قال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»

وقال المسيح عليه السلام: « إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون»

وفي أحيان أخرى تكون الابتلاءات التي لا نطيق عليها صبرًا.. صهرًا لنفوسنا وصقلًا لتجاربنا، ومحطات ننطلق منها إلى حياة أرحب ونتائج مرضية..لو أننا فقهنا!.

والله تعالى رغب في الصبر ودعا إليه، وحث الله سبحانه نبيه الكريم ﷺ عليه فقال: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ..(٣٥) [الأحقاف].

فلولا الصبر لخنقتنا مشكلات الحياة، ولذهبت أنفسنا عليها

حسرات، ولعاش وجداننا ممزقًا عليل الحال أسير الجراح، فإذا بنا أموات في هيئة الأحياء!.

«إن العظمة بين الرجال لا توجد إلا حيث وجد الصبر، والضعيف الصبور قوي بصبره، والقوي الجزع ضعيف بجزعه، وإذا وجد الصبر أُرسلت أشعة النور إلى الشخص فيثق في نفسه، ويجتهد في إيجاد جو للفوز والنجاح في العمل، وإذا ذهب الصبر ذهبت الراحة والهدوء واضطربت النفس، وقلق الفكر»(٩٨).

قد تكون أمامك أهداف تريد أن تحققها فتتعجل عليها فتفسدها لأن وقتها لم يحن بعد.!. وهي العجلة نفسها التي أجدها الآن وأنا أصف مادة هذا الكتاب، ففي نفسي شوق كبير لإتمامه، حتى أنني أصارع ذلك الوقت الذي لا يريد أن ينقضي وينفذ، والشوق بقدر ما هو سعادة وغبطة..فإن له ألمًا عذبًا قد تضيق به النفس في بعض الأوقات، ولكنني لا أجد غير الصبر لأقيد به جماح هذه الرغبة الطامحة التي تريد أن تتعجل الثمرة قبل نضوجها، فكل شيء له ميقاته، ولكل بداية نهاية..

وفي المثل الفرنسي: « النبوغ..صبر طويل»

وفي المثل الإنجليزي: « الحجر المتدحرج..لا ينبت عليه العشب»

98- الشخصية – محمد عطية الإبراشي.

والعاقلون في هذه الحياة، يدركون قيمة الصبر وأثره في نيل الأماني..وضرورته لتحقيق الغايات، وكان (خالد بن الوليد) ﵁ يقول وهو يسير في صفوف المعركة يُشجع المجاهدين:

« يا أهل الإسلام: إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن النصر مع الصبر» إن الذين يتعجلون فشل الناس لمجرد سقوطهم في محطة من محطات حياتهم، إنما هم مخطئون.. فبالصبر والمحاولة، يستطيع أهل العثرات أن ينجحوا فيما أخفقوا فيه!.

سأل عمر بن الخطاب ﵁ بني عبس: كيف تقهرون من ناوأكم ولستم بأكثر منهم عددا ولا مالًا؟

قالوا: كنا نصبر بعد اللقاء – لقاء الجيش– هنيهة.

وقال علي ﵁: «الصبر مطية لا تكبو، وسيف لا ينبو»

وقال أيضًا: « الصبر مع الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له»

وقال أيضًا: «لا يعدم الصبور الظفر وإن طال به الزمان»

وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقول:

«إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركون ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون».

و الفيلسوف الإنجليزي الشهير (إسحاق نيوتن)، ما كان ذا قريحة وقّادة، وذكاء حاد في دراسته، إلا أنه عرف بالصبر والجد ومضاء العزيمة، لقد أنبه معلمه يومًا فغضب كثيرًا وقال له: ياسيدي إني وإن كنت عاجزًا لست مقصرًا، وثق بأني بذلت كل جهدي في استذكار دروسي.

وسئل مرة: كيف استنبطت كل هذه المستنبطات الغريبة؟

فأجاب: بالتأمل المستمر فيها، فقد كنت أضع الموضوع نصب عيني، وأثابر على مزاولته وعلاجه، حتى يبزغ ضوؤُه ويصير نورًا ساطعًا.

ومن أقواله: إذا كنتُ قد أديتُ للعالم خدمة فباجتهادي وجلدي.

وسأل (وليام بت) وهو من أكبر السياسيين الإنجليز بعض الحاضرين أمامه:

ما أهم صفة يجب أن يتصف بها رئيس الوزراء؟

فأجاب أحد الحاضرين: الفصاحة، وقال آخر: العلم، وقال ثالث الجد في العمل..

فقال لهم وليام بت: إن أهم صفة يجب أن يتصف بها رئيس الوزراء هي الصبر»

لا تبتئس إن مع العسر يسرًا

لا تخلو الحياة من هموم وأزمات..عواصف ونوازل..خوافض وروافع..تكدر حياة الإنسان، وتذهب من نفسه معنى السعادة والشعور بها.

بعض الضعاف كلما ألمت بها نازلة، يشعر أن الحياة توقفت وانتهت، ويسيطر عليه التشاؤم ويظل كئيبًا حسيرًا، إذا رأيته حسبته ينتظر الموت أن يأتيه بعد حين!.وربما لو طال الانتظار لأقدم هو على الانتحار تعجيلًا بنهاية هذه الحياة المؤلمة، وعلاجًا لنفسه المضطربة!.

إن هؤلاء لا يعرفون معنى الأمل والرجاء في الله، ولا يعلمون أن الصبر الذي هو نصف الإيمان، علاج رباني لمشاعر الإحباط التي تتفشى في نفس الإنسان..

يقول الشاعر:

عسى فرج يكون عسى

نعلل أنفسنا بعسى

وأقرب ما يكون المرء

من فرج إذا يئسًا

ويقول غيره

عسى الكرب الذي أمسيت فيه

يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان
ويأتي أهله النائي الغريب
ويقول الفرزدق:
لّما رأيْت الأرْض قَد سدّ ظَهرهَا
ولمْ تَر إلاّ بَطْنَها لَك مَخْرجَا
دَعَوْتَ الذي ناداهُ يُونُسُ بَعدَمَا
وَى في ثلاثٍ مُظْلِماتٍ، فَفَرّجَا

بهذا الأمل الكبير يجب أن نُعامل أزماتنا ونواجهها.. نردد هذه الأشعار التي تذكرنا بأناس سبقونا في استقبال المكروه، لكنهم كانوا أقوى منا عودًا أصلب قريحة!.

والرجاء في ربك سبحانه يجب أن يكون قويًا حتى يدفع عنك الإحباط واليأس، ويدفع عنك العبوس والقنوط..

يقول تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) [النمل].

ويقول سبحانه:(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) [الشرح].

والإيمان بالفرج وانتظاره عبادة كما أخبرنا الصادق المصدوق

ﷺ، فقد قال:

«انتظار الفرج من الله عبادة»(99).

وقال أيضًا: «أفضل العبادة انتظار الفرج»(١٠٠).

وقال ﷺ لابن عباس: « واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن العسر مع اليسر»(١٠١).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أسلم أن أبا عبيدة حصر فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «مهما ينزل بامرئ من شدة، يجعل الله بعدها فرجًا، وإنه لن يغلب عسر يسرين»

كما أوجد لنا الرسول ﷺ، بعض الوسائل التي نستجلب بها الفرج، ونفرج بها الكرب، ونستعين بها على كل الشدائد والأزمات العصيبة..فعن ابن عباس رضي الله عنه قال:قال ﷺ:

«من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب»(١٠٢).

وقال أيضًا: «لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم»(١٠٣).

99- فيض القدير 25/3 (9172).
100- الترمذي (1753).
101- أخرجه أحمد 703/3.
102- أخرجه أبو داوود والنسائي وابن ماجة وابن أبي الدنيا.
103- أخرجه ابن أبي الدنيا في الفرج عن أبي هريرة.

وعن سعد بن أبي وقاص ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يفرج عنه؟ فقيل له: بلى، فقال: دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»(١٠٤).

وعن ابن مسعود ﵁ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا نزل به هم أو غم يقول: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»(١٠٥).

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من أصابه هم أو غم أو سقم أو شدة أَو ذلٌّ، أو لأْواءُ فقال: الله ربي لا شريك له كشف ذلك عنه»

وعن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال:

«دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت»(١٠٦).

والأحاديث كثيرة في هذا الباب تخبرنا بوسائل لها فعل السحر، والقدرة العجيبة في تبديل الحال من العسر إلى الفرج، ومن الضيق إلى السعة، ومن الهم إلى السعادة، ومن الغم إلى السرور..وإذا كان

104- إسناده صحيح السلسلة الصحيحة للألباني.

105- أخرجه الحاكم وابن أبي الدنيا.

106- رواه البخاري في الأدب المفرد، و أحمد، وأبو داود.

الإنسان مأمورًا بهذا تجاه نفسه التي يقفز عليها هذا الشعور الذاتي القاهر المحطم،، فهل يليق بك أن تكون هادمًا للإنسان، وقاتلًا لصبره وباعثًا لنفس الشعور؟ فتطفئ أمامه بوارق الأمل؟!

كم ضاقت الدنيا بأناس وخنقهم البلاء، وزلزلتهم المصائب، لكنهم أبدًا لم يفقدوا أملهم في ربهم سبحانه أن يفرج همهم ويزيل كربهم..بل كانوا يرددون ما علمهم إسلامهم أن يرددوه ويناجوا به خالقهم وبارئهم، الذي لا يعبدون سواه، ولا يرجون أحدًا غيره.

بين كتبي وجدت (الأرج في الفرج)، وهو سفر لطيف للإمام السيوطي اختصر به كتاب الفرج للإمام (أبي بكر ابن أبي الدنيا) رحمة الله على الجميع، يعرض الكتاب مواقف الممتحنين الذين تَعَلَّقَ رجاؤهم بالله في أوقات المحن، حتى كان الفرج والخلاص.. وهي مواقف آسرة تلهم المرء قدرة الله في الحياة والأحياء، وكيف لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟، وأن التعلق به وحده طريق النجاة، لكشف هموم الحياة وأتراحها..فمما فيه : كتب الوليد بْن عَبد المَلِك إلى عثمان بْن حيان المري: انظر الْحَسَن بن الحسن فاجلده مائة ضربة، وقفه للناس يومًا، ولا أراني إلا قاتله، قال: فبعث إليه، فجيء به، والخصوم بين يديه، قال: فقام إليه علي ابن حسين، فقال: يا أخي تكلم بكلمات الفرج، يفرج اللهَّ عنك:

لا إله إلا اللهَّ الحليم الكريم، سبحان اللهَّ رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين».

قال: فقالها، قال: فانفرجت فرجة من الخصوم فرآه، فقال: أرى وجه رجل قد قرفت عليه كذبة، خلوا سبيله، أنا كاتب إلى أمير المؤمنين بعذره، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

وكان بعضهم يقول كلمات الفرج في المواقف العصيبة، فيكون لها فعل السحر العجيب، وتجلب النجاة لصاحبها، وتقلب الموازين رأسًا على عقب.. وهو ما حدث مع (جعفر بن محمد)

إذ لما حج الخليفة المنصور العباسي، قدم المدينة فطلب أحد خصومه المقيمين بها، فجيء به، ولما دخل خصمه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، قال:

لا سلم الله عليك يا عدوَّ الله، تُلحد في سلطاني وتبغي الغوائل في ملكي؟! قتلني الله إن لم أقتلك.. قال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنَّ سليمان أُعطِي فشكر، وإن أيّوب ابتُلي فصبر، وإنّ يوسف ظُلم فغفر، وأنت من ذلك السِنخ - أي: الأصل.

فسكت الخليفة المنصور طويلًا، ثم رفع رأسه وقال: أنت عندي يا أبا عبد الله، البريء الساحة، السليم الناحية، القليل الغائلة، جزاك الله من ذي رحم أفضل ما يجزى به ذوو الأرحام عن أرحامهم

وكان من أولاد عمّه من بني هاشم، ثم تناول يده فأجلسه على مفرشه وأكرمه، ثم قال: في حفظ الله وكلاءته يا ربيع، الْحَق أعط أبا عبد الله جائزته وكسوته.. وانصرف.!.

فلحقه ربيع فقال له:

إني قد رأيت ما لم يُرَ، ورأيت بعد ذلك ما قد رأيت، وقد رأيتك تحرّك شفتيك، فما الذي قلت؟ فقال: نعم، قلت:

اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك عليّ لا أهلك، وأنت رجائي يا ربّ، كم من نعمة أنعمتَ بها عليَّ، قلَّ لك عندي شكرها فلم تحرِمني، فيا من قلَّ عند بليّته صبري فلم تخذلني، ويا من رآني علَى المعاصي فلم يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضِي أبدًا، ويا ذا النعم التي لا تحصى عددًا، أسألك أن تصلّي على محمد وعلى آل محمّد، بك أَدرأُ في نحرِه، وأعوذ بك من شرّه، اللهم أعنّي على ديني بدنياي، يا من لا تضرّه الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، اغفر لي ما لا يضرّك، وأعطني ما لا ينفعك، إنّك أنت الوهاب، أسألك فرجًا قريبًا وصبرًا جميلًا ورزقًا واسعًا والعافيةَ من جميع البلايا وشكرَ العافية.

وقال مطرف بن مصعب:

دخلت على المنصور فرأيته مغمومًا حزينًا، قد امتنع عن الكلام

لفقد بعض أحبته، فقال لي: يا مطرف.. ركبني من الهم ما لا يكشفه إلا الله الذي ابتلاني به، فهل من دعاء أدعو الله به عساه يكشفه عني؟

فقلت:ياأمير المؤمنين، حدثني محمد بن ثابت عن عمرو بن ثابت البصري قال:دخلت في أذن رجل من البصرة بعوضة، حتى وصلت إلى صمَاخيه فأنصبته وأسهرته ليلًا ونهارًا، فقال رجل من أصحاب الحسن:ادع بدعاء العلاء بن الحضرمي ﵁ صاحب النبي ﷺ الذي دعا به في المفازة، وفي البحر وخلصه الله سبحانه، قال:وماهو يرحمك الله؟

قلت:بعث العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، فسلكوا مفازة وعطشوا عطشًا شديدًا حتى خشوا الهلاك، فنزل فصلى ركعتين ثم قال:

ياحليم ياعليم! ياعلي ياعظيم! اسقنا! قال:فإذا نحن بسحابة كأنها جناح طائر قعقعت علينا ومطرنا حتى ملأنا كل إناء وسقاء، ثم انطلقنا حتى أتينا على الخليج من البحر ماخيض قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعده، فلم نجد سُفنًا، فصلى ركعتين ثم قال:

ياحليم، ياعليم، ياعلي، ياعظيم أجزنا! ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال:جوزوا باسم الله..

قال أبو هريرة ﷺ: فمشينا على الماء، والله مابللنا قدمًا ولا خفًا ولا حافرًا، وكان الجيش أربعة آلاف فارس، قال: فدعا الرجل بها فما برحنا حتى خرجت من أذنه لها طنين، حتى صكت الحائط وبرئ، قال: فأستقبل المنصور القبلة، ودعا بهذا الدعاء ساعة، ثم انصرف بوجهه إليّ وقال:

يامطرف قد كشف الله عني ماكنت أجد من الهم ودعا بالطعام، فأجلسني فأكلت معه.

وتأتي هذه القصة الغريبة الأطوار والتي تفوق الخيال في أحداثها، وقد نقلها ابن أبي الدنيا عن الحلية لأبي نعيم في ترجمة سفيان بن عيينة..

عن يحيى بن عبد الحميد الحِماِني قال: كنت في مجلس سفيان بن عيينة، وقد اجتمع عنده ألف إنسان أو يزيدون أو ينقصون، فالتفت في آخر مجلسه إلى رجل كان عن يمينه، وقال: قم حدث الناس بحديث الحية، فقال الرجل: اسندوني فأسندناه فشال جفونه عن عينه، ثم قال:

ألا فاستمعوا وعوا حدثني أبي عن جدي أن رجلًا كان يعرف بابن الحمير، وكان له ورع وكان يصوم النهار ويقوم الليل، وكان مبتلى بالقنص، فخرج يومًا يتصيد، فبينما هو سائر إذ عرضت له

حية، فقالت يا محمد بن حمير أجرني أجارك الله، فقال لها: ممن. قالت من عدو قد ظلمني. قال لها: وأين عدوك؟ قالت له: من ورائي، قال لها: من أي أمة أنت؟ قالت:

من أمة محمد ﷺ قال: ففتحت لها ردائي وقلت لها ادخلي فيه. قالت: يراني عدوي. قال: فبسطت لها طمري وقلت لها: ادخلي بين طمري وبطني. قالت: يراني عدوي. قلت لها: فما الذي أصنع بك. قالت: إن أردت اصطناع المعروف، فافتح لي فاك حتى أنساب فيه. قلت: أخشى أن تقتليني. فقالت: لا والله ما أقتلك، والله شاهد علي بذلك وملائكته وأنبياؤه وحملة عرشه وسكان سمواته أن لا أقتلك. قال: ففتحت لها فمي فانسابت فيه، ثم مضيت فعارضني رجل معه صمصامة فقال: يا محمد فقلت له: ما تشاء؟

قال: هل لقيت عدوي؟ قلت: ومن عدوك. قال: حية. قلت: اللهم لا، واستغفرت ربي مائة مرة من قولي لا، لعلمي أين هي، ثم مضيت قليلًا، فإذا بها قد أخرجت رأسها من فمي وقالت: انظر هل مضى هذا العدو. فالتفت فلم أر أحدًا فقلت: لم أر أحدًا فإن أردت الخروج فاخرجي. فقالت: الآن يا محمد اختر لنفسك واحدة من اثنتين: إما أن افتت كبدك وإما أن أنفث في فؤادك فأدعك بلا روح فقلت: يا سبحان الله أين العهد الذي عهدت إلي، واليمين الذي حلفت لي، ما أسرع ما نسيته وخنت، فقالت: يا

محمد: ما رأيت أحمق منك إذ نسيت العداوة التي كانت بيني وبين أبيك آدم، حيث أخرجته من الجنة فليت شعري ما الذي حملك على اصطناع المعروف مع غير أهله؟

قال: فقلت لها: ولا بد لك من قتلي؟ قالت: لا بد من ذلك. قال: فقلت لها: أمهليني حتى أصير تحت هذا الجبل، فأمهد لنفسي موضعًا. قالت: شأنك وما تريد. قال محمد: فمضيت أريد الجبل، وقد أيست من الحياة فرفعت طرفي إلى السماء، وقلت:

يا لطيف الطف بي بلطفك الخفي، يا لطيف يا قدير أسألك بالقدرة التي استويت بها على العرش، فلم يعلم العرش أين مستقرك منه، يا حليم يا عليم يا عظيم يا حي يا قيوم يا الله ألا ما كفيتني شر هذه الحية. ثم مشيت فعارضني رجل صبيح الوجه طيب الرائحة تقي الثوب..

فقال لي: سلام عليك فقلت: وعليك السلام يا أخي. فقال: ما لي أراك قد تغير لونك واضطرب كونك؟ فقلت: من عدو قد ظلمني قال لي: وأين عدوك؟ قلت في: جوفي. قال: فافتح فاك، ففتحته فوضع فيه مثل ورقة زيتون خضراء، ثم قال: امضغ وابلع فمضغت وبلعت. قال محمد:

فلم ألبث إلا قليلًا حتى مغصني بطني ودارت الحية في بطني

فرميت بها من أسفل قطعًا قطعًا، وذهب عني ما كنت أجده من الخوف، فتعلقت بالرجل، فقلت:

يا أخي من أنت الذي من الله علي بك؟ فضحك ثم قال: أما تعرفني قلت: اللهم لا. قال: يا محمد بن حمير إنه لما كان بينك وبين هذه الحية ما كان، ودعوت الله بهذا الدعاء، ضجت ملائكة السموات السبع إلى الله عز وجل فقال الله تبارك وتعالى:

وعزتي وجلالي بعيني كل ما فعلت الحية بعبدي، وأمرني سبحانه وتعالى أن انطلق إلى الجنة، وخذ ورقة خضراء من شجرة طوبى والحق بها عبدي محمد بن حمير، وأنا يقال لي المعروف، ومستقري في السماء الرابعة، ثم قال: يا محمد بن حمير عليك باصطناع المعروف فإنه يقي مصارع السوء، وإنه وإن ضيعه المصطنع إليه، لم يضع عند الله تعالى».

إن ألطاف الله تخفى على الكثيرين، لكن القرب من الله واللجوء إليه يهدي القلب للطمأنينة، ويعجل له بالفرج، ويقدر له الخير في كل أعماله.

ومما ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وكم لله من لطف خفيٍ
يدق خفاه عن فهم الذكي

وكم من يسر أتى من بعد عسر
وفرج لوعة القلب الشجي
وكم من هم تساء به صباحًا
فتعقبه المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأسباب يومًا
فثق بالواحد الأحد العلي
وقال أبو الحاكم السجستاني رحمه الله:
إذا اشتملت على اليأس القلوب
وضاق بنا به الصدر الرحيب
وأوطأت المكارم واطمأنت
وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجهًا
ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث
يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تلاهت
فموصول بها فرج قريب

***

دعاة اليأس

إن ميدان الدعوة من أكثر الميادين التي تُعاني من المحبطين المثبطين، إنه يعج بكثير من هؤلاء المشؤومين الذين يهدمون وهم يظنون أنهم يبنون..ورغم ما يقرره ديننا العظيم من العفو والمغفرة، وأنه مهما اقترف الإنسان من الذنوب والآثام، فإن الله تعالى يقبل توبته ويمحو سيئاته.. فإن هؤلاء لهم آراء أخرى ومواقف مختلفة، هي أبعد ما تكون عن روح هذا الدين وهديه القويم.!.

يقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) [البروج].

قال الحسن البصري رحمه الله: «انظر إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التّوبة والمغفرة»(١٠٧).

ومن هنا ذم الله تعالى اليأس، وحذر من القنوط، مهما كان الإسراف على النفس، ومهما كان حجم هذا الذنب!.

قال تعالى: (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) [يوسف].

107- تفسير السعدي – سورة البروج :01.

إنه اليأس الذي يبغضه الله تعالى..وقد تكون أنت أيها الداعية سببًا فيه!.. حينما تتهم العصاة بغلظة، وتنهرهم بقسوة، فتدفعهم هذه الخصومة المنكرة، ليتمادوا في غيهم معاندين مكابرين، وقد كانوا يرجون منك كلمة حانية، ونصيحة رقيقة هادية، ومؤازرة علي طريق لم تعنهم أنفسهم على السير فيه.

لماذا نغفل دائمًا أن يكون هؤلاء العصاة في يوم من الأيام أفضل منا عند الله؟!، حينما يفيق أحدهم من غفلته، ويتوب إلى ربه، ويتحول بذل المعصية، من أخشع الخاشعين، وأوجل العارفين، بينما غيره يتعالى منتشيًا بطاعته.

عن أبي هريرة ﵁ قال: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ: يَقُولُ: « كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول أقصر فوجده يوما على ذنب فقال له أقصر فقال خلني وربي أبعثت علي رقيبًا؟ فقال والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد أكنت بي عالما أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به إلى النار»(١٠٨).

108- سنن أبي داوود- حسن..

قال أبو هريرة ﵁ والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته

وعن جندب ﵁ أن رسول الله ﷺ حدث: « أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أني لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك »(١٠٩).

وعَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ » قالوا: بلى، قال: «من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر »(١١٠).

وهذا عمر ﵁ رغم ما عرف عنه من شدته في الحق، إلا أنه أيضا كان الرفيق اللين في معاملة العصاة الغافلين، حتى يفتح لهم باب التوبة ليعودوا إلى الله مرة أخرى، ففي فتح (تستر)، كان سؤاله عن المرتدين من بني بكر بن وائل، وهنا يظهر عمر في أبهى ما يظهر فيه الداعية من الرفق بالعصاة، فهو يدعوهم ويرجو هدايتهم، ويذكرهم بغفران الذنوب، قبل أن يذكرهم بشدة العقاب.

فعن يزيد بن الأصم: أن رجلًا كان ذا بأس، وكان يوفد على عمر

109- رواه مسلم.

110- مرفوع..جامع البيان لابن عبد البر. وحلية الأولياء لأبي نعيم.

﵁ لبأسه وكان من أهل الشام، وأن عمر فقده فسأل عنه، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فدعا كاتبه فقال اكتب:

من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، ثم دعا وأمَّن مَن عنده، ودعوا له أن يقبل الله بقلبه وأن يتوب عليه، فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأ ويقول: غافر الذنب.. قد وعدني الله أن يغفر لي، وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني الله عقابه، ذي الطول، والطول.. الخير الكثير، لا إله إلا هو إليه المصير، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ – عمر ﵁ أمره، قال:

هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل فسددوه ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه»(١١١).

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﵁ فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلت، فهل لي من توبة، فقرأ عمر ﵁: (حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آَيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) [غافر].

111- حلية الأولياء..

وقال: «اعمل ولا تيأس»(١١٢).

ألا ما أجهل هذا الداعية.. الذي يفتن الناس عن دين الله..إنه يأخذهم بالشدة، ويغلظ عليهم، ويقنطهم من رحمة الله..إنه يشتد على العصاة، ويقسو عليهم في وعظه، وقد يجره الغلو ليخرجهم من الجنة إلى النار.!.

هكذا يقرر مصائر العباد، وكأن مفاتيح الجنة والنار بيديه، يُدخل من يشاء الجنة، ومن يشاء النار!.

والحق سبحانه رد رسوله ﷺ حينما دخل على رهط من أصحابه وهم يضحكون، فقَالَ: « لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا « فأتاه جبريل، فقال: إن الله، قال لك: لم تقنط عبادي؟ قال: فرجع إليهم وقال: « سددوا وأبشروا «(١١٣).

«هناك دعاة سوء يحشرون يوم القيامة فتانين؛ لأنهم يؤذون الله ورسوله لسوء تصويرهم للإسلام، وجهلهم لفقه الدعاة..وكأن وظيفتهم الصد عن سبيل الله»(١١٤).

إن دعاة اليأس.. يجترون الناس للمعاصي جرًا، وحينما ترتكب المعصية، لا يمكن أبدًا أن ينبت في خيالهم شيئًا من معاني التوبة

112- تفسير ابن كثير..

113- البخاري وأحمد وابن حبان.

114- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل – الشيخ محمد الغزالي.

والندم والرجوع إلى الله تعالى..وإنما الذي ينبت ويتوغل في عقولهم، هو ذلك التصور الموهوم من إنكار المنكر، والأخذ على يد الجاني، وإذا كان الحق سبحانه ينهى عن اليأس، ويدعو للتوبة، فكيف بداعية حصيف أن يجافي هذه الرغبة الإلهية، أو يغيب عنه ذلك المعنى الذي يؤهل المخطئ لصفحة جديدة في حياته؟!

إن الرسول ﷺ قاوم كل بذور اليأس، ووقف في وجه كل دعوة للقنوط من رحمة الله، وأقسم بربه..أن توبة هذا المذنب، لو وزعت على أهل الأرض لكفتهم أجمعين!.

وأمام هذا الأمل لك أن تتخيل صورة داعية عرف ذنوب العصاة، وكلما مر بأحدهم، عبس في وجهه وأعرض عنه، بل ربما لمزه أو غمزه بكلمة أو حركة، حتى يدفع هذا المذنب لا لكي يتوب، وإنما ليرمي نفسه في البحر منتحرًا، أو يلقي بها من فوق قمة جبل شاهق، ليتحمل وزره في النهاية بحمقه وجهله، وإذا لُـمت هذا المؤنب، يبرر حماقته بقوله: إنما فعلت ذلك لأشعره بذنبه، وأُجرعهُ مرارة معصيته، حتى لا يعود لمثلها مرة أخرى، ولكنه للأسف..لم ينصرف عنها فقط، وإنما انصرف عن الحياة جملة!.

إننا نؤكد بإلحاح..أن الدعوة المجردة من معالم الفقه والوعي والفهم الدقيق لطبائع الناس، تُفسد أكثر مما تصلح، وأن الداعية الذي يسلك القسوة مركبًا، لن يُكتب له القبول، ولن تتمكن دعوته

من قلوب المدعوين..ولو أن هذا الداعية على درجة من الوعي.. لكان له مع المذنب شأن آخر يقوده للتوبة والإنابة، ويزرع في قلبه الأمل والرجاء، ويفتح له صفحة جديدة من الطاعة والإيمان.

إن الله تعالى غفور رحيم، كما أنه شديد العقاب، ولكن..لا أعلم لماذا يغفل دعاة اليأس عن المعنى الأول، ولا يدركون من صفات ربهم سبحانه إلا المعنى الثاني؟

كثيرٌ من الدعاة لم يتخلصوا من أمراض النفوس بعد، وربما تتسبب الدعوة في إنماء كثير منها.. إنهم جُبلوا على حب التقريع والتوبيخ وتعيير المخطئين، يدفعهم النقص بين الحين والحين، لتذكير المقصرين بسقطاتهم، حتى يُظهروا تميزهم، ويبرزوا تفوقهم، ويتعالون على المجتمع بطاعتهم.

ألم يقرأ دعاة اليأس قول الله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) [الزمر].

ألم يتفكروا يومًا ما لتوبيخهم من أثر في نفوس الغافلين؟

إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة، وسمى نفسه الرحيم، وفتح لعباده أبواب المغفرة، مهما أثموا وأذنبت جوارحهم..

وفي الحديث القدسي، عن أنس بن مالك ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى:

«يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة»(١١٥).

وفي الصحيحين، عَنْ أَبِي هريرة، عَنِ النبي ﷺ قَال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي «

وعنه ﵁ قال: قال رسول اللهَّ ﷺ:» إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن، والإنس، والبهائم، والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة «(١١٦).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن رجلا أذنب ذنبا فقال: أي رب أذنبت ذنبا فاغفر لي، قال ربك عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، قال: ثم لبث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا آخر، فقال: أي

115- رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

116- الصحيحان.

رب، أذنبت ذنبا فاغفر لي، قال ربك عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، قال: ثم لبث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا آخر، فقال: أي رب، أذنبت ذنبا فاغفر لي، قال ربك عز وجل: علم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت فليعمل ما شاء»(١١٧).

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب ﵁، قال: قدم على النبي ﷺ بسبي، وإذا امرأة من السبي يتحلب ثدياها، كلما وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها، فقال رسول الله ﷺ: « أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ « قالوا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: « والله، لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها « دفعة هائلة من النصوص تشع بالأمل، يغفلها أصحاب العُقد، لكنها في الوقت نفسه، تدفع أي يأس في نفوس من أسرفوا على أنفسهم، بل يملأ الكرم الإلهي قلوبهم خجلًا، إن هم قنطوا من رحمة ربهم، فينطلقون مستبشرين مغردين يحدوهم الأمل يرددون مع القائل قوله:

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرم

117- الصحيحان.

أدعوك ربي كما أمرت تضرعا
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجاء
وجميل عفوك ثم أني مسلم

❋ ❋ ❋

ناصحون لا مؤنبون

لا يعرف الداعية الحصيف معاني اللوم والتأنيب والتوبيخ والتقريع.. إنها هوايات لا يمارسها الفاهمون، ولا يعرفها قاموس الواعين بطبائع النفوس وسجايا البشر، الذين لا يبغضون شيئًا في الدنيا كالنقد والتنقيص.

هناك أناس يدمنون التقليب في صفحات الآخرين، والتقصي عن هِنات الماضي، ويشعرون بنشوة غامرة في تقريع المقصرين، وتأنيب المذنبين، وإذا كان الداعية على هذا المنهج السلبي، فلن تتقدم الدعوة على يديه قيد شبر، ولن تنفتح له القلوب مقدار ذرة.. ومن هنا..كان من الضرورة أن يدرس الدعاة غرائز النفوس ورغباتها وميولها..حتى يستطيع أحدهم أن يتعامل معها بنجاح..

إن التأنيب نقد هدام، والنقد عمومًا أكبر حاجز تصنعه بينك وبين من تدعوه، وأول لبنة تضعها في طريق الإعراض عنك وعن دعوتك، فالناس يعشقون الإطراء، ويهيمون بمن يمدحهم، ولا يمكن لناقد أن ينال الحظوة في قلوبهم.. ولا نَعني بذم النقد والتقريع، أن تصل إلى مرتبة من النفاق، ولكننا نصور لك المعالم الأولى للتأثير فيمن حولك..هناك فرق هائل بين الناصح والمؤنب، والذين يؤنبون الناس، وهم يتصورون ذلك نصحًا، فلا يلومون

إلا أنفسهم، على ما يجنون من خسارة..

ونقدم هنا كلامًا عظيمًا لابن القيم رحمه الله وهو يصور فيه الفرق بين الأمرين فيقول: «إنَّ النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه، فهو إحسانٌ محض يصدر عن رحمة ورقة، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه، فيتلطَّف في بذلها غاية التلطف، ويحتمل أذى المنصوح ولائمته، ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق، والمريض المشبع مرضًا، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكلِّ ممكن، فهذا هو شأن الناصح.

وأما المؤنِّب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في صورة النصح، فهو يقول له: يا فاعل كذا وكذا، يا مستحقًا للذمِّ والإهانة في صورة ناصح مشفق.

وعلامة هذا.. أنَّه لو رأى من يحبه، ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شرٍّ منه؛ لم يعرض له، ولم يقل له شيئًا، ويطلب له وجوه المعاذير، فإن غلب قال: وأنا ضمنت له العصمة، والإنسان معرض للخطأ ومحاسنه أكثر من مساوئه، والله غفور رحيم، ونحو ذلك.

فيا عجبًا كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه، وكيف كان حظُّ ذلك منك التأنيب في صورة النصح، وحظُّ هذا منك رجاء العفو

والمغفرة، وطلب وجوه المعاذير.

ومن الفرق بين الناصح والمؤنِّب أيضا: أنَّ الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته، وقال قد وقع أجري على الله، قبلتَ أو لو لم تقبل، ويدعو لك بظهر الغيب، ولا يذكر عيوبك ولا يُبينها في الناس، والمؤنِّب في ضد ذلك»(١١٨).

«والداعية الحق شخصية متميزة، فهو كالمنارة الهادية من بُعد لمن ضل أو حار، وهو كالظل الوارف لمن لفحه حر الشمس والمسير في الهجير، وبالتالي فهو نقطة تجمُّع بالنسبة للمدعوين، ولذا فإنه يحتاج إلى أن يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق: (١١٩).

«فالناس في حاجة إلى كنفٍ رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء»(١٢٠).

وهكذا كان قلب الرسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع

118- الروح لابن القيم.

119- مقومات الداعية الناجح.د- علي بادحدح.

120- في ظلال القرآن - سيد قطب.

الناس، «ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه، إلاّ امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة والرحيبة»(١٢١).

إن الداعية الذي ننشده.. رقيق القلب، واسع الصدر، لين الجانب، حاضر المشاعر، سهل المعاملة، هذه هي الصورة الزاهية للداعية المأمول، الذي ينهض برسالته ويُمكِّن لدينه، فلا يحبط الناس ولا يقنطهم من رحمة الله، ويشجعهم على طاعته، واستئناف المسير إليه مرة أخرى..

فلا يعقل أن يكون الداعية جبارًا على الناس، أو قاسيًا على العصاة منهم؟

إن دعوته تتطلب منه أن يكون مأوىً لهم، يشعرون فيه ومعه بالراحة والطمأنينة، ليخلصهم من سعار الشهوات وغمار المادة الطاحنة.

لابد للداعية أن يعي محنة العصاة، وأنهم أهل بلاء وداء، وقبل أن يهجم عليهم بقسوته وعنفه، لابد أن ينقذهم مما وقعوا فيه، وأن يحمد الله أن جعله في طريقهم، ليكون خلاصًا لهم، وأن يشكره

121- المصدر السابق.

تعالى أنْ عافاه مما وقع فيه غيره من وحل المعاصي، ومما ينسب لعيسى ﷺ: «لا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد، إنما الناس رجلان، مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية»(١٢٢).

وكان ﷺ حذرًا في نصيحته يخشى أن تجرح أحدهم نصيحته، فإذا أراد أن يَنهى قال: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا».

وحينئذ يدرك المخطئون خطأهم، وتتحقق الدعوة كما أراد الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة.

أما حينما يُغلظ الداعية في القول، ويثب على من يدعوهم، ويجرح الناس، ويخصهم بأسمائهم، فإنه الإيذان بانتهاء الرحلة، وافتراق الطريق، ولن يستطيع بعدها أن يحاورهم، أو يخاطب لسانه لسانهم.

إن (يَكَن) عليه -رحمه الله-، يندد بالقساة الغلاظ، وينفي عنهم ما تظاهروا به، ويؤكد أنهم معاول هدم لا دعاة دين، فيقول:

«أولم يسمع قساة القلوب وغلاظها، ممن يعملون على الساحة الإسلامية، وقد يكونون ممن يتصدرون صفوفها، ألم يسمع هؤلاء وأولئك ممن ابتلي بهم الإسلام، وممن انقلبوا إلى جلادين، شغلهم

122- الإمام الرباني عبدالله بن المبارك - الإمام عبد الحليم محمود- مطبوعات دار الشعب ص631.

الشاغل مقاضاة الناس وإصدار الأحكام عليهم من غير حياء من الله ولا خجل؟! ألم يسمع هؤلاء صوت النبي محمد ﷺ يدعو إلى الرفق ويحذر من العنف؟

إن الساحة الإسلامية تحتاج إلى دعاة فاقهين، والذين يحجبون الأمل من حياة الناس، لا يمكن أن يكونوا يومًا دعاة، أو أن يتحقق على أيديهم نصر أو فتح.» (١٢٣)

وصدق من قال:

لو ألف بان خلفهم هادم كفى

فكيف ببان خلفه ألف هادم

ويصور لنا شيخنا القرضاوي بأدبه الفريد سمات (جيل النصر المنشود) فيقول:

«يدعون إلى رسالتهم بالرفق واللين، وبالحكمة لا بالحماقة، ويجادلون بالتي هي أحسن، ينظرون إلى العصاة كما ينظر الطبيب إلى المرضى، لا كما ينظر الشرطي إلى اللصوص، لا يتهمون عاصيًا بالكفر، مخافة أن يرتد عليهم، ولا يقولون: هلك الناس، متهمين غيرهم، ومبرئين أنفسهم، ففي الحديث:

«من قال هلك الناس فهو أهلكهم»..

123- احذروا الإيدز الحركي للعلامة فتحي يكن-مؤسسة الرسالة

وقد أعجبني قول هذا المتأمل الحكيم:

إذا أردت أن تحصل على العسل، فلا تحطم خلايا النحل، ونقول لبعض الدعاة:

إذا أردتم أن تحصلوا على ثقة المدعوين، فلا تحطموهم، فإن أحكم الدعاة من يُقيم العوج، ولا يكسر المعوج، والذي يثبت في ذهن المدعو أنه ناصح لا جارح، ومن المؤسف أن تجد أحيانًا دعاة لا يرحمون الناس، ولا يريدون لرحمة الله أن تنزل على غيرهم!.»

المحتوى

مقدمة	٧
التشجيع يصنع المعجزات!	١٣
سقاء المعلمين	٢١
نقوش على جدار الذاكرة	٤٤
عقدة الساخرين!	٥٠
سيضحكون..لكنك ستنجح!	٦٠
اعرف نفسك أولًا	٦٧
الواثقون بأنفسهم	٧٣
على خطى العباقرة	٨٢
الجماهير العمياء	٩٦
الانطباع الأول وهم أم حقيقة؟!	١٠٢
لا تقتلوا الأمل	١١٤
آباء مُحطِّمون	١٢١
الفشل طريق النجاح!	١٢٧
إنها زلة وليست سقوطًا؟!	١٣٤
القوة الحقيقية	١٣٨

لا تحسبوه شرًا لكم	١٤٩
لا تحبط نفسك!	١٥٩
حينما يتجاهل غرورنا عيون الآخرين!	١٧٥
محبطون أم حاسدون؟	١٨٥
رسول الأمل	١٩٥
الرجاء في حياة الأنبياء	٢٠٤
همة تقهر المستحيل	٢٠٩
الفرار من الأقدار!	٢١٥
من القصار إلى الرشيد!	٢٢٦
نصيحة جارحة لكنها دافعة	٢٣٢
فتاة تعلمنا الإرادة	٢٣٥
هيلين .. وثلاثية العجز	٢٤٤
رحلة كتاب!	٢٥٠
صمود في باريس	٢٥٩
الرجل الذي أزعج العالم	٢٦٩
روح المقاومة	٢٧٤
واجهوا الأزمات بالبسمات!	٢٨٠
البكاء على الماضي لا يفيد	٢٨٩

شعوب تقود بعد ركود! ٢٩٥
دع الموت يأتي وقتما يريد! ٣١٠
الغرب ينتحر! ٣١٦
ثقافة الانتحار ٣٢١
متفائلون حتى النهاية! ٣٢٥
إن النصر مع الصبر ٣٣٥
دعاة اليأس ٣٥٢
ناصحون لا مؤنبون ٣٦٢

رقم إيداع ٢١٩٩/ ٢٠١٥ط١

الترقيم الدولى / ٩- ٠٠١ - ٧٨٩ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليث للنشر والتوزيع

أحصل على تخفيض ٢٥٪ عند شرائك

إصدارارت الدار من مكتبة محطة مصر

٢٤ ش سيد درويش كوم الدكة